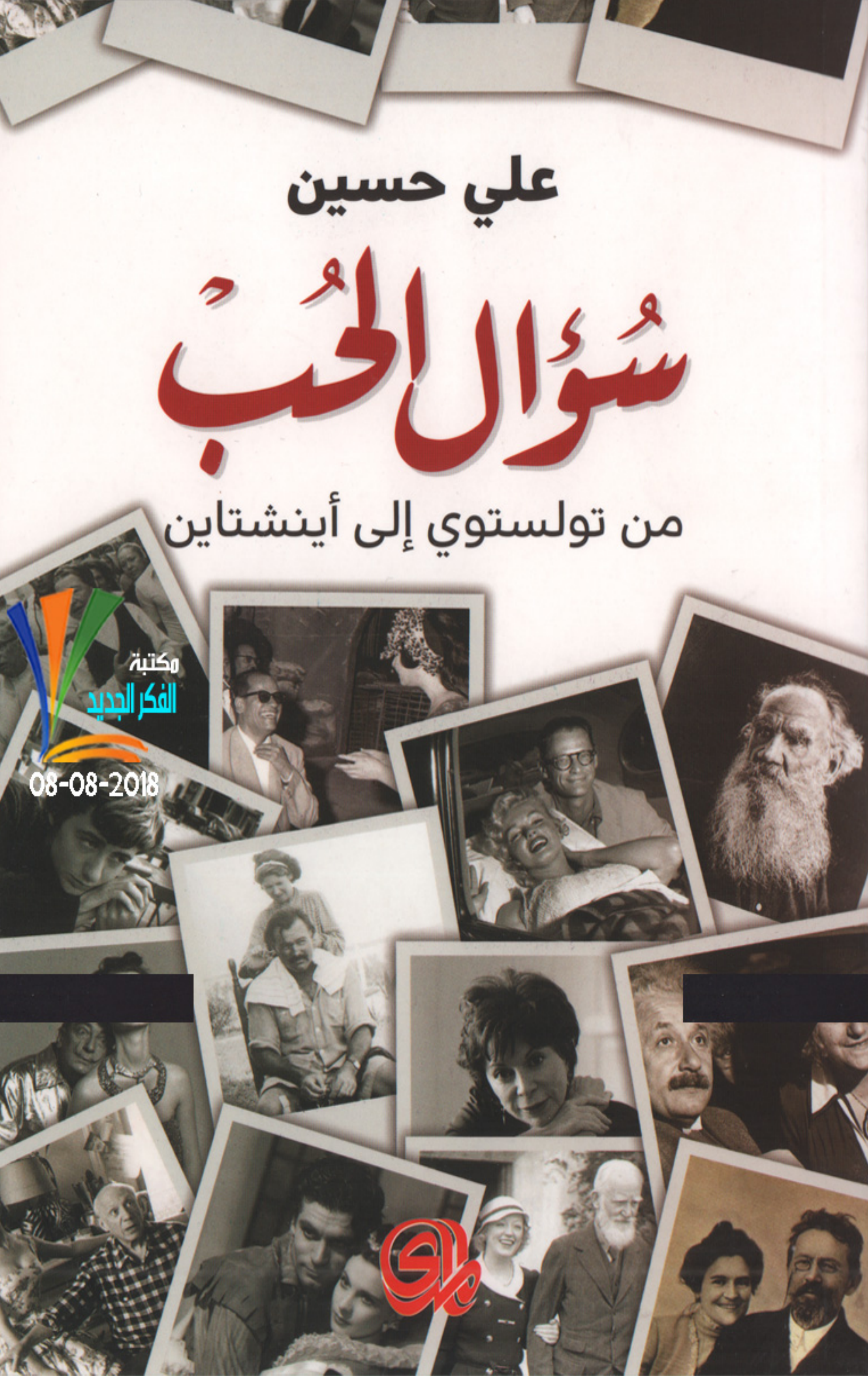


علي حسين
سُؤال الحُبْ
من تولستوي إلى أينشتاين
مكتبة
الفكر الجديد
08-08-2018



من تولستوي إلى اينشتاين



المؤلف: علي حسين
عنوان الكتاب: **سؤال الحب**
من تولستوي إلى اينشتاين
تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**
الناشر: **دار المدى**
الطبعة الاولى: **2018**

Author: **Ali Hussein**
Title: **Love question**
from Tolstoy to Einstein
Cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2018**



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

علي حسين



سؤال الحب

من تولستوي إلى اينشتاين






مكتبة
الفكر الجديد

كلمة أولى
ولكننا نحب دائماً

قـال إله الغيـوم وكبير الآلهة زيوس : أجلـي رحيلك لنتنعم بمباهج الحب

إلياذة هوميروس

إن الحيـاة هـي الحب ، والحب هو الحياة « هـذه العبارة قرأتها قبل سـنوات وهي للمفكر الهندي نيسـار كادتا مهراج . وقد توقفت عندها كثيـراً ، وأنـا أسـأل مـا الحب ؟ وهو سـؤال ظـل الكُتّـاب والمفكرون يضربون أخماساً بأسداس وهم يحاولون حل لغزه. حاول «أوفيد»الذي ظهـر قبـل أكثر من ألـف عام تـاركاً القضـاء والسياسـة متفرغـاً لكتابة موسـوعته»فن الهوى»في أن يدرك سـر الحب . بثلاثية شـعرية مكرسة بالكامل لمفهوم العشـق : « مراثـي الحب وعلم الحب ودواء الحب « ، ونجـد الحب عند أوفيد ليس مجرد زينة الحياة كما كتب الفيلسـوف أبيقور ، بل هو الحياة كلها ، فبالنسبة له ، ليس هناك حياة كاملة من دون حب ومن دون معاناة الحب الدائمة.

أمّـا سـقراطُ فقد صـوّر الحبّ علـى أنه جنّـيٌ عظيـم وكان تلميذه أفلاطـون يرى أنّ الـروح تصل إلى الخير من خـلال الحب ، ودائما ما تضعنا الكتب في قلب أشهر قصة حب ربطت بين فيلسوفين هما جان بول سـارتر وسـيمون دي بوفوار، وكذلك العلاقـة الكبيرة التي ربطت بيـن الفيلسـوف الألمانـي هايدغر والفيلسـوفة حنة أرنـدت، فقد رأى هايدغـر أن أرندت كانت تبث ما أطلق عليه الفكر العاطفي في كتاباته،



أي يتحدث عن لحظة الإلهام التي مثلتها أرندت في حياته، وهو الحب الـذي مثـل لكليهمـا لحظة جملت حياتهمـا، فهيدغر يرى أن لا شـيء يقود إلى قلب العالم أكثر من الحب.

وحيـن عصفت الأهواء بشـيخ مثل تولسـتوي انزوى جانباً ليسـطر ملحمـة الحب فـي أنـا كارنينا: »على رصيـف المحطة لمحـت قوامه. عجباً، ما الذي جاء به الى هنا؟ لم أكن أعلم إنك كنت على سفر. لماذا أنتَ هنا؟ سألته، قال وهو ينظر في عينيها: تعلمين أنني جئت في إثرك. فليس في وسعي تجنب ذلك».

كبـار الكُتّـاب يتركون لنـا حكاياتهم مع الحب من خـلال آثارهم ، فنعـرف أن سـتندال كان مغرمـا بزوجة جاره فقرر ان تكـون بطلة عمله الكبير »الأحمر والأسـود»، ونعرف أن هتلر الذي أباد الملايين لم يقبل أن يرى ضعفه سوى شخص واحد هو إيفا براون، وإن شاعراً مثل أمرئ القيس ترك البحث عن ملكٍ ضاع و هام يبحث عن محبوبة هجرته:

أغرك مني أن حبك قاتلـي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وأنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيلٌ ونصفٌ بالحديد مكبـل

يكتب شـاعر فرنسـا الرفيق لويس أراغون : «انهم لا يصدقون قولي عـن الحب، برغـم هذا انظـروا إلي قد أكـون مجنوناً، وقد أكـون عبداً أحمـق، لكني أعلن لكـم باني لم أتعلم في الحياة إلا شـيئاً واحداً، لقد عرفـت الحب» ويكتب»أبـي الطيب بن يحيى الوشـاء» صاحب كتاب الوشـاء أن أولـى علامـات الهوى نحول الجسـم وطول السـقم، وقلة النوم وإدمان الفكر وإظهار الخشـوع وإعلان الحنين». من هذه الفكرة العتيقة انطلق فيلسـوف الحب في القرن العشـرين أراغون ليضع آلاف القصائـد ونحـو ٦٠ »رواية»ظلت تشـغل العالـم قرابة أكثـر من نصف قـرن، وكان مواطنه سـتندال قد قسـم الحب، الى أربعة أشـياء عاطفة، وذوق، وحس وكبرياء.

وقديمـاً قالـوا إن الجنون فنون والعشـق فن من فنونـه واحتجوا بما



حصل مع أبي الطيب المتنبي الذي هام عشقاً بخولة أخت سيف الدولة الحمداني:

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقتهُ.. فعجبت كيف يموتُ من لا يعشقُ.

هـذا الكتاب هـو عن إحياء قصـص الحب التي قرأناهـا في الكتب حيـث حفظهـا الزمن من التلاشـي.. وقـد حاولت في فصـول الكتاب الثلاثين أن أخذ القارئ في سـياحة مع الكتب لنكتشـف معاً أن الحب لـم يكن حالة عرضية فـي حياة أدباء وفنانين وفلاسـفة كبار ، لكنه كان نقطـة الدخول الى عالم من الإبداع ، وهروب من الوحدة، للبحث عن ملاذ آمن، يمدنا بالثقة والطمأنينة بأننا لا نواجه العالم بمفردنا.

في إحدى رسـائله الشـهيرة لزوجته يكتب آينشـتاين : «الحُبّ فعل إيجابي، والإنسان فيه ينهض ويتعثر ، ويخطو ويسير، ويتعلم».




مكتبة
الفكر الجديد

-١-

إن الحرب شبيهة بالحُب.. فتنحوا أيها الكسالى!

كان فـي التاسـعة عشـرة من عمره حين كتـب في دفتـر يومياته: «ان صحبة النسـاء ضرورة كريهة من ضرورات الحياة، لهذا اتمنى ان ابتعد عنهـن ما امكننـي ذلك، من يجعلنـا نفقد مزايانـا الطبيعية، الشـجاعة، والحـزم، والعقل غير النسـاء»، بعـد ان ينتهى من كتابة هـذه الكلمات يشـعر بخيبـة أمل تتمكن منـه، كان قد صمم ان يعيش في يسـنايا بولينا مع عمته، يقرأ ويتأمل، لكنه لم يسـتطع ان يبعد تفكيره في النسـاء، فقد أسـرته فتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها «زينا مولوستفوف» دون ان يجـرؤ البوح لها بحبه، وقد كتب في يومياته: «أمن الممكن ألا اعود فأراهـا ابـداً؟ أمـن الممكن ان اسـمع في يوم مـا انها تزوجـت، ام هل اراهـا ثانية وذلك اكثر مدعاة الى الحزن، بقبعتها سـعيدة، بنفس عينيها المفتوحتين المرحتين و العاشقتين؟».

سـنة ١٨٤٨ يكتب تولستوي رسالة الى شـقيقه الاكبر: «كانت زينا، كما علمت فيما بعد احدى اولئك الفتيات النادرات، وان كنَّ قد ولدن للحياة العائلية، ونتيجة لذلك يصممن على اغداق كل كنز الحب الذي يختزنّـه فـي قلوبهن على أحبائهـن المختارين، والمحـزن انني لم اكن يوما من بين جميع الناس الذين أثاروا إهتمامها».

بعدهـا يقرر ان ينشـر مقالة ادبيـة يضع فيها مفهومـه للحب: «هناك ثلاثـة انـواع من الحب: وهي – حب الجمال و حـب التضحية بالذات



والحب الذاتي، ولا اتحدث عن حب شاب لفتاة أو حبها له، فأنا اخاف هذه العواطف، وقد كنت سيء الحظ للغاية في هذه الحياة من حيث اني فشلت في ان اشهد شرارة واحدة من الصدق في هذا النوع من الحب، انني اتحدث عن الحب الموجه للجنس البشري الذي يتركز وفقا لقوة الروح شدة وضعفا على شخص واحد او على اشخاص عديدين، او ينهمر على الكثيرين، وينطوي حب الجمال على حب العاطفة نفسها والافصاح عنها، لأن الناس الذين يحبون على هذا الوجه يكون هدفهم اثارة محبوبهم، ذلك الشعور السار في الوجدان الذي يلذ لهم التعبير عنه، والناس الذين يحبون مع حب الجمال لا يهتمون الا قليلا جدا بالمبادلة الا بوصفها شيئا لا اثر له، وكثيرا ما يغيرون اهداف حبهم، اذا ان غرضهم الاساسي ليس الا استثارة شعورهم السار بالحب. للمحافظة على هذا الاحساس السار في نفوسهم يتحدثون دون انقطاع عن عاطفتهم بألطف العبارات، وعن الشخص المقصود بهذا الحب».

في تلك الفترة يتفرغ تولستوي للقراءة وتدّوين الملاحظات حول المواضيع التي اثارت اعجابه: اعترافات جان جاك روسو، اوجين اونغين لبوشكين، اللصوص لشيلر ومعطف غوغول وحكايات صياد لتورجنيف، ودايفيد كوبر فيلد لديكنز والتي كتب عنها انها اثارت لديه انطباعات عظيمة. وتبين اليوميات التي كتبها اثناء هذه الفترة، انه أبدى اهتماما خاصاً بالادب الرومانسي وبخاصة الادب الفرنسي واشعار اوفيد وقد كان هذا الادب بالنسبة له، يعني التحرر من المحظورات الاجتماعية وطريقا الى الحرية الادبية، ولهذا نجده يبدأ منذ كتابة قصصه الاولى «القوزاق» باضفاء هالة من القداسة على الحب، وكانت اكثر مواضيع ابداعه تختلط باستمرار بوصف مفاتن المراة: «ان حب الجمال هو حب الحرية»، ونجده بعد سنوات يكتب تحليلا نقديا مفصلا لنظريات الحب التي كانت منتشرة في الغرب انذاك، فتولستوي يرى ان الحب ذو طابع فريد بصورة استثنائية. والحب هو القوة الوحيدة القادرة حسب رأيه على لجم الانانية المفرطة، دون ان



يحذف السمات الفردية، بل على العكس ينميها ويتفهمها، ولهذا فان مغزى الحب البشري حسب رأي تولستوي هو تبرير وحماية النزعة الفردية من خلال التضحية بالانانية وهذا يحدث لانه عن طريق الحب نخن نؤكد الاهمية المطلقة للفرد، والحب هو الغاء كامل للانانية، انه نقل اهتمامنا من الذات الى الآخر ومن هنا تاتي قوة الحب الكبرى التي تلغي الانانية وتبعث الفرد وتسمو به نحو روحية جديدة.

****

الوقوع في الحُب

من المألوف ان يقال ان فلاناً وقع في الحب، لان معظم العشاق يرتسم على وجوههم الذهول والحيرة والارتباك.

كم من الرجال والنساء أحبوا بعضهم البعض في كل الحقب والعصور التي سبقت تولستوي وسبقتنا، كم من احلامهم تحققت وما قدر ما أهدر من عواطفهم وهواهم، عادة ونحن نقرأ مؤلفات تولستوي او بلزاك او موباسان او تورجنيف، نتساءل عن كل علاقات الحب الممزقة للقلوب تلك التي طرحها هؤلاء الكتّاب، وهم يتركون لنا كل هذا الكم الهائل من الادلة التي تشير الى حياتهم العاطفية.

في ١٣ ايلول عام ١٨٦٢، كتب تولستوي في يومياته: «انا احب حباً، لم احبه في حياتي من قبل، انا مجنون وسأطلق الرصاص على نفسي اذا سارت الامور على ما هي عليه، لا يمكن وقف عواطفي نحوها»، وفي اليوم التالي كتب «كل يوم يمر اعتقد فيه اني لن احتمل المزيد من شعوري بالسعادة، سأذهب في الغد اليهم وسأصارح لهم بكل شيء وإلا فإني أنتحر؟».

كانت هي الابنة الثانية لعائلة يعرفها ويتردد عليهم دوما، تكتب في يومياتها: «اني خائفة لو دلت تلك التجربة على رغبة خاطفة في الحب وليست حباً دائماً».



كان هو حذراً في مسألة الحب والزواج ويعتقد ان الارتباط بامرأة مدى العمر شيء رهيب، كانت علاقاته الاولى مع نساء كثيرات لا تتعدى اياما وتنتهي، باستثناء علاقته بامرأة ريفية تدعى «اكسينيا» اثرت عليه تأثيرا كبيرا دامت علاقاته بها مدة طويلة، وقد كتب عنها فيما بعد قصة «الشيطان» يروي لنا حكاية انسان يخضع لعبودية جسده، لكنه وجد نفسه في أشد الحاجة الى امرأة، وأخذ يفكر في زوجته المستقبلية وقد اشترط فيها شروطا خاصة الى ان وقع في حب سونيا ونراه يكتب في يومياته ٢٣ آب ١٨٦٣ : «اني خائف، ماذا لو دلت تلك التجربة على رغبة خاطفة في الحياة، وليست حباً حقيقياً دائماً «لكنه عاد ليكتب في ايلول من نفس العام: لا اعتقد ان مستقبل حياتي مع زوجة يضارع ما يبدو لي الان مع سونيا.. المستقبل السعيد الهادىء الخالي من المخاوف».

كانت سونيا الابنه الوسطى لطبيب الماني الاصل «بيرز» يعمل في بلاط القيصر، تزوج من الانسة ليوبونوف ابنة احد ملاك الاراضي، كانت اول زيارة لتولستوي لعائلة الطبيب الالماني سنة ١٨٥٦، في تلك الفترة كان قد انتهى من كتابة قصص من سيبستول وكانت سونيا واخواتها يشعرن بسعادة حين يقوم تولستوي بقراءة الأجزاء الاولى من قصة الطفولة، وفي تلك الايام كان شغوفاً بالفتيات ويقول لأخته انه لو تزوج يوما فستكون عروسه من عائلة الدكتور بيرز، كانت شقيقته تعتقد ان الابنة الكبرى ليزا خير من تصلح عروس لشقيقها الكاتب، لكنه يخبر انه لايحبها. يكتب في يومياته: «ليزا تغريني، لكني لن ادع ذلك يحدث، فان مجرد الإغراء الذي لا يصحبه اي شعور ما غير مجدٍ».فقد احسّ ان سونيا الأقرب الى قلبه، وذات يوم تقترب منه على استحياء لتطلب منه ان يرقص معها فيجيبها بابتسامة: «اني اليوم اكبر سناً من ان افعل ذلك». تكتب فيما بعد ان الكونت تولستوي رفض الرقص لكنه طلب منها طلبا غريبا: «ان أغني ولما كان ذلك آخر ما كنت ارغب فيه فقد هربت الى غرفتي». فيما يكتب تولستوي في يومياته: لقد بقيت يومين افكر على انفراد في امر سونيا.. وقلت لنفسي لا تدفع نفسك حيث الشباب



والجمـال والشـعر والحب، فـان لهذه ايها الشـيخ من هـم اصغر منك، ان موضوعـك فـي صومعة مـن صومعات العمـل، لقد عشـت في هذه الصومعة وسأعود اليها ». بعدها يقرر أن يصارحها «: لقد سطّرت خطاباً سـوف أرسـله اليها في الغد، ياإلهي أمنحني القوة، أخاف ان أموت، فان مثل هذه السعادة تبدو مستحيلة »

وذهـب في مسـاء اليوم التالي وفي جيبه الخطـاب الذي أعدّه ووجد سـونيا جالسـة مع شـقيقاتها، انتظر سـاعات حتى انسـحبت الشـقيقتان فمد يده الى سـونيا بالخطاب قائلا: انه ينتظر ردّها، فذهبت مسـرعة الى غرفتها لتقرأ: «اي سـونيا أصبح الأمر لا يُطاق، لقد ظللت أقول لنفسـي طيلة الاسابيع الماضية انني سأبوح الآن، ومع ذلك كنت اشعر بالحرج، وكنت اخرج من البيت حزينا ساخطا على نفسي أسأل ما عساي ان اقول لـو انني تكلمت..لكن اذا كنتِ تحسـين نحوي بـأي عاطفة فأرجوكِ ان توافقـي على ان تكوني زوجة لي، و اذا كنت تحسـين ادنى شـك فقولي لا، ناشدتك الله ان تفكري ملياً في الأمر ».

وقفت سـونيا جامدة وفي يدها الخطاب، وعندما شـاهدتها شقيقتها الكبـرى على هـذه الحال صرخت: «اخبريني ماذا بـك ؟ فقالت بهدوء: ان الكونت طلب يدي، فصرخت الاخت قائلة: ارفضيه، كان تولسـتوي خلال هذه الفترة ينتظر والقلق قد سـيطر عليه يحاول ان يسـترق السـمع على ما يجري داخل الغرفة الى ان سمع وقع أقدام حيث خرجت سونيا لتقول له جملة واحدة: «نعم».. ثم دخلت مسرعة الى غرفتها.

****

الغيرة القاتلة

كانـت هذه اول كلمة كتبها تولسـتوي في يومياته بعـد الزواج: «حظ من السـعادة لا يُصدَّق ». الا أن هذه السـعادة لم تدم طويلا اذ سرعان ما



كدّر صفوها الغيرة، ونجد سونيا تكتب في مذكراتها : «ان ماضي زوجي كله مخيف حتى انني لا اعتقد اني سوف أقبله» ثم تكتب بعد ايام: «إن زوجي مريض، معتل المزاج وليس يحبني، إنه يفترُ يوما في حين اني ازداد له حباً وانه يعتقد اني لا أحبه»،. وفي يومياتها هناك غيرة واضحة من بطلات رواياته فتكتب لتصف شعورها: «لقد قرأت اوائل بعض كتبه، وكنت اشمئز واضيق كلما قرأت له شيئا عن الحب والنساء».

عندما كانت سونيا تتنقل في قراءة أعمال زوجها، لم يكن يخامرها ألشك بأنه كان يحاول ان يرسم صورة للمرأة الحقيقية التي في مخيلته. فيما تولستوي من جانبه وجد مفهوما جديدا للحب عند الالماني شوبنهور ففي تلك السنوات تفرغ لقراءة الفلسفة وأُعجب اعجاباً شديداً بكتاب شوبنهور «العالم ارادة وتمثلا» والذي يفند فيه الفيلسوف المتشائم جميع مبادىء الحب الرومانسي، وهو يعتقد ان جميع الشعراء والكتّاب الرومانسيين قد أخطأوا في سعيهم الى امثلة الحب من حيث هو الشهوة الانسانية، فمثل هذا الرأي يُعد وهماً مطلقاً، اما الحقبقة فهي ان الحب هو انعكاس لإرادة عمياء في الحياة وغريزة لاعقلانية لاستمرار النوع البشري.

ونجد تولستوي يعلق على ما كتبه شوبنهور في يومياته: «لقد ايقنت ان جميع الاحلام والآلام الغرامية للعاشقين ليست سوى رقاقة رومانسية تخفي شيئا واحدا هو الغريزة الجنسية القاهرة».

ويسعى الى تطبيق نظرية شوبنهور في عمله الملحمي الكبير الحرب والسلم فيضع على لسان اندريه هذه الكلمات: «لا تتزوج ياصديقي العزيز، هذه نصيحتي لك، لا تتزوج الى ان تقنع نفسك بانك قمت بكل ما تقوى عليه، وحتى تكون قد هدأت ثورة حبك للمرأة، فيمكنك رؤيتها على حقيقتها».

يكتب شوبنهور في العالم ارادة وتمثلاً: «الانسان يخدع نفسه لاعتقاده بانه في الحب يخدم عواطفه وشهواته السامية، انما يخدع



نفسـه بنفسـه، لان الحب ليس عاطفة فردية، بل عاطفة جنسـية بشرية، انه نداء مجهول وقاهر، علينا ان نتريث قبل ان نلبي نداءه».

***

الحب نقمة ونعمة

في ١٨٧٣ بدأ تولستوي كتابة روايته الشهيرة «آنا كارنينا»، عزل نفسه فـي مكتبه في ياسـنايا بوليانا، يقرأ وبـدأ يدوِّن الملاحظـات، من جانبها تكتـب زوجتـه سـونيا في مذكراتهـا: «قال لي البارحة مسـاء قـد ظهر له نموذج امرأة متزوجة، من الطبقة الارستقراطية. ضلّت سبيلها، إن مهمته تنحصر في عَرض هذه المرأة على أنها جديرة بالعطف وليست مذنبة».

كان قد تذكر حادثة اثرت فيه كثيراً، حكاية جاره بيبيكوف الذي يعيش مع امرأة أسمها آنا ستيبانوفنا، امرأة في اوج شبابها، لكنه اهملها بعد ذلك من اجل مربية اولاده الالمانية. وكان يفكر بالزواج من الشقراء فريولين. فهمت خيانته، غيرة ستيبانوفنا فاقت كلٰ الحدود، قررت الهرب، عاشت بجنون وكآبة. ثم القت بنفسـها تحت قطار لنقل البضائع. قبل ان تموت ارسـلت رسـالة الى بيبيكوف تقول له فيها: «انت من قتلني، كن سـعيداً، أذا كان يمكن لقاتل ان يكون سـعيداً، أن احببت، تسـتطيع ان ترى جثتي علـى القضبان»، في اليوم التالي ذهب تولسـتوي الـى المحطة كمتفرج، تخيل وجود تلك المرأة المسكينة التي اعطت كل شيء من اجل الحب، فقط لتلتقي بهذه الميتة المبتذلة والحقيرة.

يكتـب تولسـتوي إن «الحـب نقمـة ونعمة. الحـب قـوة متطرفة في الانسـان، مثل العبقريـة، الغضب الصلابة أو الثروة. وبالنسـبة لـ آنا كان مـن الافضل لو لم تقع في حب فرونسـكي، لانها اعطت كل شـيء، من اجل فرصة في الحب».

ينتهي من مسودة الرواية عام ١٨٧٥ ليرسلها إلى صديقه ستراكوف: «إنهـا روايـة حية، مثيـرة، تامة، أنا راضٍ عنها، وسـتكون جاهـزة قريبا».



وطلب إلى ستراكوف أن يتولى تصحيح التجارب المطبعية!. ليظهر الكتاب عام ١٨٧٨، في نحو ألف صفحة.

***

فات الآوان

كان تولستوي قد قرأ من قبل مدام بوفاري لغوستاف فلوبير وقد نشرت متسلسلة، ونتعرف من يومياته ان موضوع الخيانة قد شغل باله منذ زمن طويل، لكنه يجد ان الكاتب الفرنسي كان قاسيا مع بطلته فقد طاردها بمشاعر متجمدة ومتواصلة بلا رحمة، ويتساءل تولستوي لماذا أصر فلوبير على ان تحيا مدام بوفاري حياة خالية وهمية. ونجد تولستوي برغم اعجابه الشديد بالرواية ياخذ على المؤلف أنه حاول ان يعكس الكثير من طباعه على «إيما بوفاري».

يتحدث دستويفسكي عن آنا كارنينا باعجاب شديد: «لقد دشن تولستوي مفهوما جديدا لإدانة الظلم في آنا كارنينا». وفي رسالة بعثها فلوبير الى تورغنيف عام ١٨٨٠ يتطرق إلى تولستوي وروايته الجديدة: «ياله من فنان، وياله من نفساني».

في الرواية نجد تصمم آنا على هجر زوجها وابنها لتقيم مع عشيقها بعد صراع نفسي طويل. إنها أعظم صدقاً واستقامة من أن تقبل بوضعها الملتبس، وأعظم حساسية من أن تكبت شعورها الفاجع بدورها كامرأة ينبذها المجتمع لأنها تصرّفت بصراحة، هذا المجتمع الراقي الذي تنتمي إليه والذي يغْتفر أشد المواقف زيفاً إذا ظلّت مخبّأة، وإذا راعت القاعدة الاجتماعية. إن آنا التي لا تطيق الرياء، تكره الكذب وتتحدّى المجتمع. بيد أن المجتمع لا يغفر لها، ففي المساء الذي قصدت فيه المسرح، أشعرها معارُفها بذلك على نحوٍ قاس. وهكذا فإنها ترى نفسها مَدينة، دانَها عالم ليس أهلاً «للحكم عليها». العدل الإلهي وحده، يستطيع في عرف تولستوي، أن يُنزل بها عقابه لأنها هجرت زوجها وابنها. وبهذا



المعنى ينبغي أن نفهم تلك العبارة المعمّاة التي صدّر بها روايته. «لي النقمة انا أجازي».

ولقد قرأها تولستوي في نص لشوبنهاور بالألمانية.

****

في الخامس من شباط ١٨٩٣، تذهب سونيا مع وزوجها إلى رحلة صيد تكتب في مذكراتها: «كان يقف خلف إحدى الأشجار.. وسألته لماذا لم يعد يكتب. طأطأ رأسه وتطلّع حوله بطريقة أقرب إلى الكوميديّا وقال: لا أحد يستطيع سماعنا عدا هذه الأشجار، كما أعتقد يا عزيزتي - كان ينادي كل شخص يا عزيزي حينما تقدّم به العمر -، لذا سأخبرك بأنني قبل أن أكتب أي شيء جديد، أحتاج أن التهب بالحب، وهذا ما انتهى الآن. (يا للعيب) قلت مضيفة بروح النكتة، يمكنك أن تقع في حبي، إن أحببت لكي تستطيع أن تكتب شيئا ما. قال: (كلا، لقد فات الأوان)؟».





مكتبة
الفكر الجديد

-٢-

الحب سعي محموم نحو أمل يأتي أو لا يأتي

«جاء الإنسـان إلى الدنيا وهو يتوق الى الحُب»، بهذه العبارة استطاع رجل سويسـري ولد عـام ١٧١٢ لعائلـة فقيرة، أن يصبح اسـتاذاً في فن الحـب. كان جان جاك روسـو في السادسـة والاربعين مـن عمره، حين كتـب روايتـه الوحيدة، ولـم تظهر الا بعد ثلاث سـنوات في شـباط من عام ١٧٦١ باسـم «جولي أو هلويز الجديدة»، بطلة الرواية، شابة مثالية، تقع في حب معلمها الخاص وحين تختلي بنفسـها تكتب: «لقد جعلت السـماء أحدنـا للآخر، لم يكن هنـاك اتحاد اكثر مثالية مـن هذا، روحانا متداخلتان أيضا بشكل وثيق، ولم يعد بوسعهما الانفصال أبداً».

يقع الأسـتاذ في حـب تلميذته الجميلـة، ويقرر ان يفاتحها بأشـواقه فيرسل اليها خطاباً، لا يطلب به شيئا سوى ان يقول لها ان جمالها سيطر على مشاعره: «ولِمَ لا أفرض ان قلبينا ينبضان بعاطفة واحدة، كما يخيل ألي، انه ليحدث احيانا ان تلتقي أعيننا فجأة، فتفضح التأوهات مشاعرنا، وتنهمـر مـن مآقينا الدمـوع، ياحبيبتـي جوليا لو لـم يكن اتحـاد روحينا إلهامـاً، لـو لم تكن السـماء اعدت كلينـا للآخـر، دون ان يحوجنا الأمر الـى الفرار».ويقرر الاسـتاذ ان يتقدم للزواج من تلميذتـه، الا ان والدها الأرسـتقراطي، يحرم عليهـا الزواج من رجل من العامـة، مصراً على ان تتزوج بدلا عنه من وولمر الغني، وتوافق جولي بالرغم من حبها لسانت برو، ويصر المعلم ان لا يفارقها ويسعى لان يصبح معلماً لأطفالها، وقد علـق القـراء على تصـرف جولي بانه تصـرف منافق وعديم الشـرف، اذ



كيف تتخلى عن الرجل الذي عشقها من اجل آخر اكثر غنى، لكن الأمر بحسب روسو كان محاولة لمزج تخيلات الرغبة مع براءة الحب، وعلى الرغم من ان الرواية تنتهي نهاية مأساوية حيث نجد جولي على فراش الموت تقول تقول لحبيبها الاول وهي تحتضر : «ان الخطوة الاولى نحو الرذيلة، هي أخفاء التصرفات البريئة في ذاتها ! وليكن شعارك دائما، ان لا تقول أو تفعل شيئا تجد غضاضة في أن يسمعه الناس جميعاً او يروه» وعندما تصدر الرواية تصبح الاكثر مبيعاً وتُكسب روسو شهرة عالمية، وتعمل على تغيير مفهوم الحب، حيث اعتبرت جولي امراة مثالية وقدوة للنساء، وهي ترتعش باصدق العواطف المتحررة، واصبحت الرواية حديث المجتمع الأوروبي، من السويد مرورا بباريس وصالونات انكلترا الادبية، كان الجميع يتحسر على حب جولي، فيما الفتيات المراهقات تنتابهن نوبات بكاء ونشيج كلما قرأن هذا المقطع: «وداعاً إذن يا جولي المفرطة الفتنة، غداً سأكون رحلت إلى الأبد. ولكن ثقي أن غرامي العنيف الطاهر لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي، وأن قلبي المفعم بهذا المخلوق الملائكي، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثانٍ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة، وأنه لن يدنس لهيباً آخر المذبح الذي عبدت عليه جولي»كان الحب بالنسبة لروسو شكل من اشكال العذاب، ونجده في الاعترافات يكتب: «الحب حيلة معدية، رجل كاد يموت من دون ان يعرف ذاته».وكان روسو يرى ان الحب لم يكن طبيعيا في حياته، وانما تاريخ لاضطراباته النفسية. جرب الحب للمرة الاولى عندما بلغ العشرين من عمره، لكن بهجة الحب تلك لم تكن صافية، فبعد سنوات من نشر رواية هلويز الجديدة يعيش قصة حب مشابهة، وهذه المرة مع الكونتيسة «صوفي دويتويو» امرأة جميلة ولطيفة تصغره بتسعة عشر عاما، وقد كتب يصفها في اعترافاته: «الذكرى الخالدة للبراءة والنعمة جالسة في ذلك البستان، على مقعد عشبي تحت شجرة (أكاسيا) في حالة إزهارها الكامل، لا أجد كلمات تناسب عواطف قلبي، انها المرة الاولى والوحيدة في حياتي، يا لتلك



الدموع المسكرة التي ذرفتها عند قدميها»، ومثل بطلة قصته جوليا، تتزوج صوفي من المركيز دي سانت لامبيرت لتترك الفيلسوف يعيش مع احلامه يكتب رسائل لامرأة في الخيال: «النيران تتأجج في انحاء جسدي، آلام حبي لك. الوجع يسري في جسدي مع لهيب غرامي بك، السقم يجول في جسدي مع حبي لك، اتذكر ما قلته لي: أفكر في حبك لي، الوجع والمزيد من الوجع، الى اين تذهبين مع حبي، أخبروني بأنكِ ستمضين بعيداً وستتركينني وحيدا ها هنا». ويُعيد روسو على مسامع صوفي ما قالته جولي في الرواية: «لا يمكن لمن تذوق الحب إلا ان يشعر بالخزي حين يفقد الحبيب».

لم يتوقف روسو خلال حياته التي استمرت ٦٦ عاما توفى عام ١٧٧٨، عن الإشارة لخيالية الحب، لكن وعلى الرغم من كونه نابعاً من الخيال، الا ان آثاره واقعية تماماً: «الحب ليس إلا وهماً، اعترف بذلك، إلا انه يحوي حقيقة واحدة تتمثل في ما يولده فينا من شعور بالجمال الحقيقي الذي يجعلنا نحب، هذا الجمال لا يتمثل في من نحب، بل هو من صنع أخطائنا. ماذا ؟ هل تضمحل الجوانب المنحطة من ذواتنا من اجل هذا النموذج الخيالي ؟ هل يجعلنا الحب نتخلى عن الاشياء الوضيعة في الحياة ؟»

****

عن أي أمل تتحدث؟

في العشرين من عمره يعثر بالصدفة على نسخة من رواية «هلويز الجديدة» وتسحره الرواية، ويقرر ان يكرس جزءاً من وقته لقراءة اعمال روسو، ويكتب لأستاذه هنري جيمس: «كان روسو مجهولاً تماماً بالنسبة لي، وبدأت بتقليب صفحات روايته «هلويز الجديدة». لا أعلم أية روح حارسة كانت تهمس لي: «خذ هذا الكتاب الى المنزل». في جميع الأحوال هذا ما حدث، مع انه كان مناقضاً لعادتي بعدم التعجل بقراءة



كتاب أبداً. في المنزل رميت بجسدي على السرير، وبدأت بالسماح لتلك الرواية الساحرة بالتأثير على حياتي.كان كل سطر يصدح بالتضحية والشوق والألم».

عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، لم يتحقق حلمه بان يصبح ممثلا، لكنه أدمن كل اسبوع على مشاهدة كلاسيكيات شكسبير، حفظ حوارات مسرحياته، وكان اذا عاد الى غرفته الرطبة يقوم بإداء الأدوار بصوت مرتفع، وذات يوم شاهدها تؤدي دورا صغيرا في مسرحية عطيل، اقترب منها ليقول لها بتردد: اسمي تشارلز ديكنز، أحاول ان اكتب للمسرح. فتجيبه ببرود: «لم أسألك عن هواياتك.ياعزيزي».

منذ ذلك اليوم اخذ يحرص على ارتداء ملابس مناسبة، حرص على أناقته، وقد لاحظ صديقه بوب فاجن، التغيّر الذي طرأ عليه فقال له: ابتعد عنها يا تشارلز، فهذا النوع من النساء لا يهتم بصعلوك مثلك.

- لكني أحبها..أجاب.

- وما الفائدة.. انها محاطة دائما بالأثرياء.

- لا يهم.. اني احبها وكفى وستصير لي وحدي ذات يوم.

- هذا هو الجنون..قال له صديقه.

ولم يتجرأ على مفاتحتها بمشاعره، لكنه شرح لها حبهه من خلال رسالة كتبها بعناية، وانتظر خروجها من المسرح ليسلمها لها ويهرب.

في اليوم التالي يجدها تنتظره على باب المسرح لتقول له: «انك انسان رقيق جدا، لم اكن اعرف ان قلبك يحمل كل هذا الحب لفتاة مثلي محاطة بعشرات المعجبين، لكن ثق ان لك احتراما خاصا في نفسي».

لم يصدق وهو يقول: إذن هناك أمل.

- عن أي أمل تتحدث..قالت:

- أعني قد يأتي اليوم، فتقاطعه: «ماذا لو تركنا الامور للايام ياعزيزي ديكنز فمن يدري كيف ستكون النهاية»؟

وترسخ في ذهن ديكنز ان الشابة قد احبته وانها تبادله نفس المشاعر،



مما دفعه ذات يوم الى ان يتقدم للزواج منها، ليجد احدى صديقاتها تقف امام بوابة المسرح وهي تحمل رسالة مكتوب فيها: «أنصحك وانت في اول شبابك ان تنساني، وأن تبحث لنفسك عن زوجة تناسب ظروفك».

كانت رسالة ماريا، إيذانا بان يصحو من أوهامه، ويتوقف عن الذهاب الى المسرح، وينسى فكرة التمثيل، ليجد نفسه يجلس ذات ليلة الى منضدته الصغيرة، يكتب قصة غرامه الاول، وليعبر عن احاسيسه ومشاعره تجاه ماريا التي اوصدت الابواب في وجهه، ليجد نفسه بعد ثلاثة اشهر من الكتابة المتواصلة قد انتهى من رواياته «دوريت الصغيرة» : «لم اصدق انني انهيت الفصل الاخير منها، انني كتبت رواية ذات شخصيات ومواقف، كان كل همي ان ادوّن احاسيسي بعد ان تخلصت من حب ماريا، وبعد ان الحقت بي مذلة لا تزال مرارتها تهيمن على عقلي». في اليوم التالي ذهب بالمخطوطة الى رئيس تحرير الصحيفة التي يعمل بها مندوبا، فلم يجد غير سخرية مرة:

- انت ياتشارلز تكتب رواية، وماذا تفهم في الادب؟

- لا افهم شيئا، ولكني قرأت كثيرا، كل ما اريده ان تقرأ الرواية فربما تروق لك.

لم ترق الرواية لرئيس التحرير الذي وجد صفحاتها الاولى ساذجة، فنصح تشارلز بان يركز جهده على اخبار البلدية، ألا أن الرواية التي كتبها ديكنز في دفاتر، تقع بيد الابنة الكبرى لرئيس التحرير، الفتاة كاترين كانت في العشرين من عمرها، جميلة ومثقفة اخذت تتصفح الدفاتر، وما ان قرات الجملة الاولى من الرواية: «ذات يوم في لندن التقى آرثر بخطيبته السابقة فلورا فينتشينغ» حتى اقبلت على مواصلة القراءة، وحين اخبرتها والدتها بموعد العشاء رفضت ان تترك الرواية جانباً، وعندما جاءتها المربية لتخبرها ان الساعة تجاوزت منتصف الليل، وحان وقت النوم، قالت كاترين: «لا داعي للعجلة»، واستمرت في القراءة، ولم تسأل عن الوقت حتى ادركها الصباح وهي تقرأ الصفحات الاخيرة من حكاية دوريت، فتخبر والدها الذي وجدها متورمة العينين من البكاء، ان هذا



الكتاب لو نشر في الجريدة، فانه سيحقق نجاحا هائلا: «ان كاتب هذه الرواية استاذ في الرقة والاحلام العاطفية» ويتعجب الاب من كلام ابنته، هل يعقل أن مندوب البلدية، يمكن ان يكتب رواية جيدة، فقد قرأ منها عدة صفحات لم ترق له. وفي اليوم التالي يطلب حضور ديكنز ليفاجئه بالقول: لقد قررت ان انشر قصتك على حلقات. كان رئيس التحرير يعتقد انه جازف في الامر، لكن توسلات ابنته العزيزة على قلبه وحبه لها جعله ينشر رواية لكاتب لم يسمع به احد من قبل، إلا ان المفاجاة كانت بانتظاره، حيث ارتفع توزيع الصحيفة من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ نسخة، وانهالت رسائل القراء تسأل عن صاحب قصة الحب هذه، الأمر الذي جعل رئيس التحرير يطلب الاجتماع بتشارلز ديكنز ليبحث معه توسيع مساهماته في الصحيفة.

- القراء يحبون حكاياتك، حسنا لنوقع عقد رواية جديدة

- لديّ اوراق جمعتها من حكايات المدينة اسميتها «أوراق بيكوك»

- موافق قال رئيس التحرير، وبهذه المناسبة أقمت الليلة في البيت حفلا صغيرا بمناسبة نجاح الرواية، فأرجو ان تشرفني بالحضور، ثم اضاف: لكنني احذرك لدي اربع بنات كلهن من المعجبات برواياتك، ارجو ان لا تحاول ان مغازلة واحدة منهن، الا اذا كنت تنوي الزواج

- وإذا كنت لا أنوي الزواج..قال ديكنز.

- اجاب رئيس التحرير وهو يضحك : عندها سأتوقف عن نشر رواياتك حتى لو صدر قرار ملكي بنشرها.



ست نساء

في حياة تشارلز ديكنز ست نساء، الممثلة ماريا حبّه الاول، كاترين هوجارت ابنة رئيس التحرير التي تزوجها وشقيقتها ماري، وجورجيينا، وانجيلا بودريت التي كون معها جمعية خيرية، والين تيران حبيبته التي



عشقها في اواخر حياته، وكان واضحا ان ديكنز حاول أن يشارك القراء وصف حالات الحب التي مرت به، وطالما وضع هذه الحكايات على لسان شخصياته التي يؤكد دارسو ادبه، ان مغامراته العاطفية كانت مادة دسـمة للعديد من رواياته، فقد الهمته ماريا شـخصية فلورا في دوريت الصغيرة ويبدو ان قصة المرأة الاولى تركت أثراً عميقا في نفسه، فنجده يكتـب لها فـي احدى رسـائله: «تركتِ لـدي انطباعا عميقـا حتى انني ارجـع اليك تلك العادة التي لازمتنـي في قهر النفس، والتي اعرف انها ليسـت جزءا من طبيعتـي الاصلية، ولكنها تجعلني شـحيحاً في اظهار عواطفي حتى بالنسـبة لاطفالـي»، ونجدها تكتب اليه بعـد انتهاء قصة حبهما بعشـرين عاما: «ان صورة فلورا فينتشـينغ فـي دوريت الصغيرة تشـبهها كثيـراً علـى الرغم من انه قدمهـا بصورة المـرأة اللعوب». تقع رواية دوريت الصغيرة في قسمين الاول بعنوان الفقر، والثاني الأغنياء وتدور احداث القسـم الاول حول رجل أُحتجز في سـجن المدينة مدة طويلـة، حتـى ان أبنته تولد وتنمـو وتكبر بعيدة عنه، وفجأة يجد نفسـه مضطرباً وحائراً، فهو حر وغني. في القسم الثاني يتناول ديكنز ما يفعله الرجـل بحريته ومالـه، حيث يحدوه دائما هدف لفعـل الخير لكنه قلق ومشتت وخصوصاً في علاقاته مع النساء، وفي هذه الفترة يتعرف على «فلورا فينتشينغ» ابنة صاحب أقطاعية ويجد فيها متنفسا لرغبة خاصة لا تتوقف ولا تحد للانتقام من النساء الخائنات وهو الموضوع الذي ظل يشـغل ديكنز منذ ان أهملته ماريـا وصدته، وفي الرواية نجد الذكريات تنخـر عقـل كلينـام، وهو طيلـة الجزء الاكبر مـن الأحـداث لايريد ان يعـرف ان حبّه للورا محكوم بالفشـل، وان الهوى المبالغ الذي تكنه له «دوريت» سـيكون من اكثر العلاقات تألقا وبريقا في حياته التي طغت عليها السوداوية.

ان كليـام، هو ديكنز الذي يحلم بالثـروة والإنتقام من ماريا، يخبرنا الروائـي هنـري جيمس وهـو من معاصـري ديكنـز، ان عاطفـة ديكنز الأخلاقيـة فـي دوريـت الصغيرة تتركـز حول فكـرة الهجـر والخيانة،



كما تتمثل في فلورا، التي تحبكُ المؤامرات من اجل الاستمتاع بثروة كليام، ورغم خداعها له إلا انها تترك تاثيرا كبيرا عليه. ومع ان «دوريت الصغيرة» توصف بالرواية السوداء، فان قلة من القراء لم تحركها مشاعر التضامن مع بطل الرواية: «رجل في الثلاثين من عمره له رأس عالية لكنها حسنة الشكل وشعره القصير المقصوص لا يزال خفيفاً ووجهه صغير، به ملامح من الجمال رغم التعب والأسى، عيبه الوحيد حالات الشرود التي تنتابه كثيرا، أما عيناه الواعيتان الغريبتان، فهما مع ذلك عينان غامضتان وثاقبتان في الوقت نفسه، ذكيتان وقاسيتان، تعبران عن المراقب وكذلك عن عيون الحالم»، ولعل الصورة التي يرسمها ديكنز لبطله تقترب كثيرا من صورته عندما كان يقترب من سن الثلاثين. وهي نفس الصورة التي سحرت كاترين ابنة رئيس التحرير التي كانت فتاة جميلة تتفوق على شقيقاتها في المرح، ولما شاهدت ديكنز للمرة الاولى قالت له بكل ثقة: «لا تظن ياسيد ديكنز ان شهرتك الأدبية يمكن ان تؤثر في فتاة مثلي وتجعلها تقع في حبك، انني محصنة ضد الغرام».

من النظرة الاولى أحب ديكنز كاترين، واخذ يرسل لها يوميا قصاصات ملونة من الورق يكتب فيها: «حياتي العزيزة.، ارسل إليك قبلاتي الحارة ولثماتي الثائرة»، وكان ديكنز يسأل كاترين بعد كل رسالة ان تصارحه رأيها فيه، فتطلب منه ان يُكثر من هذه الرسائل. وذات يوم تطلب منه ان يرسم لها صورة للحب كما يفهمه فيكتب رسالة مطولة نشرت فيما بعد ضمن مجموعة رسائله: «عزيزتي كاترين بالطبع بوسع الحب ان يتخذ اشكالاً عدة، لكنها في معظم الحالات مطاردة للفرح وسعي محموم نحو امل يأتي او لا يأتي، انه اشبه بالفيضانات والاعاصير، نسبح في هذا المد والجزر، والكُتاب من امثالي يميزون بين نوعين من الحب، الحب المتبادل وهو المصحوب بالتحقق والفرح، والحب غير المتبادل، اي المصاحب للخواء والقلق والهم، ياعزيزتي منذ ايام وانا الرجل الذي تكسرت آماله على مذبح الحب،



اعيش الحب مجددا مع فتاة مدهشة تمثل لي العالم كله، واكتشف معها بعد كل سنين الألم والعذاب، انني مازلت قادرا على الوقوع في الحب من جديد، ليست لدي القدرة على التحكم بعواطفي، لان قلبي متعلق بك ولا اعرف ماذا افعل؟» يقرر ديكنز الزواج من كاترين، وحين يخبر والدها بالامر وبانه مستعد لفعل اي شيء لإرضاء كاترين وكسب ودها، يقول له الاب: «انك لا تعرف ابنتي جيدا، انها قادرة بدلالها وعبثها ان تورثك الجنون، ولهذا أنصحك بالزواج من شقيقتها ماري»، فيكون جواب ديكنز قاطعا: «اسف لن اتزوج سوى كاترين».

****

الحب الآثم

في الخامسة والثلاثين من عمره اصبح ديكنز أشهر كاتب عرفته بريطانيا وصار حديث الصحف، وانجبت له كاترين عشرة ابناء، لكنها لم تكن سعيدة معه، فمعظم وقته يقضيه في الكتابة: «كل وقتك مع الورق والقلم، لست ادري لماذا رضيت بك زوجا؟ »، وبدا كل منهما يعيش في جزيرة منعزلة، لم تعد كاترين تهتم بما يكتبه، واخذت تقضي اوقاتها في سهرات الطبقة الارستقراطية، في تلك الفترة جاءت اختها ماري لتقيم معهم، يصفها ديكنز بانها ارق واجمل فتاة شاهدها في حياته، وكانت هي مغرمة به أيضا، فاصبحت ترعاه وتراجع مخطوطاته، ونراه يحبها كانه يحب للمرة الاولى، ولم يفكر بان هذا الحب محرم او انه يخدش الحياء، اصبحت ماري مصدر سعادته الحقيقية، كل الاحاسيس الجميلة التي سطرها في رواياته في تلك الفترة، كانت بوحي منها، لكنها تمرض فجاة وسرعان ما تتدهور حالتها الصحية، لتموت بعد اشهر وقد وصف مشهد مرضها في روايته الشهيرة ديفيد كوبر فيلد: «سيظل يذكر ما عاش حرارة صلواته في تلك الليالي بالمقارنة الى ما اعتاد ان يؤديه من صلوات سريعة لاتكاد تمس صميم القلب. تلك الليلة لم يكف عن



الدعاء والتوسل الى خالقه ان ينقذ حياتها ويعيد اليها صحتها، وبهجة ابتسامتها ولمعة عينيها المليئة بالحنان». وحين ماتت لم يستطع من فرط حزنه العيش في نفس البيت فقرر السفر الى خارج بريطانيا ليقضى اكثر من عام يتجول في اوروبا، وحين عاد كان قد قرر الطلاق من كاترين لصعوبة العيش بينهما، وخاضت الصحف في حياته الشخصية وتتفاقم الازمة بينهما بعد مجيء شقيقتها الثانية فرجينيا لتقيم معهم، حيث لاحظت كاترين اهتمام ديكنز بها فصرخت: «حسناً يبدو انك تريد ان تلحق العار بكل بنات هوغارث اني اوافق على فكرة الطلاق اذا اقسمت لي انك لن تتزوج بفرجينيا بعدي». وطلقها لكنه لم يتزوج بعدها. ا يكتب الناقد هارلود بلوم: «ربما كان ديكنز يحاول رسم المرأة المثالية من خلال بطلاته، لكن عندما التقاها في الحياة الحقيقية كانت أقل من مثالية. ربما كان يحاول رسم الشخصية التي ظن أن جمهوره يريدها. إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد النساء الفاتنات اللاتي عرفهن ديكنز».

بعد طلاقه من كاترين، أصيب ديكنز باضطراب عاطفي ونجده يكتب رسالة إلى أبنته: «انني اعاني الوحدة والقلق» في تلك الفترة يتعرف على الين تيرنان فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، فيقرر الارتباط بها عاطفيا، ولانه اصبح من الاثرياء يشتري لها بيتا خاصا، وتصل عدد رواياته الى خمسة عشر رواية ومئات القصص وعدد من المسرحيات ويحقق شهرة لم يحققها كاتب بريطاني قبله، لكنه يصاب بمرض القلب وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره ليتوفى عام ١٨٧٠ تاركا رسالة حب الى ألين ومعها الف جنيه استرليني وكانت تعد انذاك ثروة كبيرة، وتقرا كاترين اخر رسائل الحب التي كتبها زوجها السابق لمحبوبته الأخيرة: «احبك يامن ملكتني كاملا، يامن معها هربت من الناس، لنحلق بعيدا جدا».



-٣-

حين يتوفر الحب نشعر أن وجودنا مبَّرر

بين العاشـرة والثانية عشـرة من عمرهـا تخبر أختها انهـا تعرف الآن «معنـى الحُـب»، كانـت فـي المنتـزه عندما لمحـت «فتى يمسـك حبل الاطفـال وهم يلعبون، كانـت وجنتاه ورديتين وابتسـامته متألقة رقيقة»، وقـد كانت تلك صدمة انفطار القلب، لانها استشـعرت للمرة الاولى ان شـعاعا اتيا مـن ناحية اخرى يمكن ان يمس القلب مباشـرة، بعد شـهور تحـس اهتماما بابن عمتها جـاك وهو يكبرها قليـلا، ولنتذكر الاوصاف التي تقدمها الينا سـيمون دي بوفوار في «مذكـرات فتاة رصينة» ان جاك كان «فتى جميلا جدا، كان عادة يحتقر البنات ولذلك كنت اقدر صداقته، كان يعامـل الكبـار معاملة الند للند وذات يوم قال لي: سـيمون انتِ فتاة ناضجـة وسـرتني هذه الكلمة اكبر السـرور» انذاك اعتقـدت انها وقعت فـي الحـب، وطوال ثلاثـة اعوام اصبح جـاك الرجل الاول فـي حياتها. تكتب في مذكرات فتاة رصينة انها وضعت مخططا لحياتها المسـتقبلية، سـتتزوج مـن جـاك وتحصـل علـى شـهادة الاسـتاذية: «كنـت اتحدث بغمـوض عـن الحب، فانا اعرف الثمن، انا عقلانيـة جدا، ومتطلبة جدا، وكان جاك بالنسـبة لي مطلبا شـخصيا»، لكنها تكتشـف بعد ثلاثة اعوام من قصة الحب الخيالية ان ابن عمها سـيتزوج من امرأة أخرى.: «عندها فقط أيقنت انه ليس بإمكان اي شـخص ان يكون مسؤولا عني على نحو كامل، لا أحد يعرفني او يحبني تماما، ليس لديّ سوى نفسي فقط».

انهـا الآن فـي الخامسـة عشـرة مـن عمرهـا، تحلم بشـخصيات من



الروايات: «بطلة تحس السأم، ويأتي فتى وسيم مندفع لكي ينتزعها من زوجها، لم أكن قط احسست او تأملت او تخيلت مثل هذه البهجات، بقيت مبهورة من كشف الملذات التي لم أكن اعرف كيف أُسميها، وان كانت سوف تفيض بي يوما ما، كانت تلك هي الحرية، وهي المتعة ايضا»، بعد سنوات وفي سن الحادية والعشرين، سوف تعيش على لحظات المتعة هذه، فهي منذ شهور محط إهتمام جان بول سارتر، الطالب المتميز، كانت الأصغر بين طالبات وطلاب جامعة السوربون، تستعد لخوض الامتحان النهائي لنيل شهادة الاستاذية في الفلسفة، وذات يوم وهي منشغلة في الحديث عن فلسفة «ليبتنتز» لمحت طالباً ينظر اليها باعجاب، ثم يقترب منها ليقول لها: «جمالك به لمعان خاص وصوتك قوي وحديثك متلاحق» بعد سنوات ستقول عنه سيمون دي بوفوار: «انه اكبر انجاز في حياتي»، كان اصغر من تقدم لنيل شهادة الفلسفة، وحين حاصره الاساتذة بالاسئلة سخر منهم وهو يتطلع من النافذة: «استطيع ان اجادل نيتشه واعلمه كيف يمكن للانسان ان يكون حراً باختياره؟»

بعد ايام قليلة يستحوذ سارتر على سيمون دي بوفوار ويحكم السيطرة على تفكيرها، تكتب لصديقتها الحميمة زازا: «أعرف هذا الشاب منذ ثلاثة عشر يوماً وقد جال في غيابي، وصار يتكهّن بأفعالي فإمتلكني. يحتاج ذهني إلى حضوره وينتابني الانفعال أمام تعاطفه. الشك والاضطراب والنشوة. أريد أن يرغمني على أن أصير شخصاً حقيقياً ويعتريني الخوف».

في البداية كانت اشبه بالمسحورة، لم تصدق انها وقعت في حب الطالب المتفوق، الذي يعد الألمع بين اصدقائه، ولم تكن تميل الى التذمر من سلوكه الغريب، فمنذ بداية علاقتهما بذلت جهدا كبيرا لترى الامور من منظور سارتر، وذلك بسبب شعورها بانها تدين له بكل شيء، وايضا بسبب انها كانت على قناعة بانها تحبه اكثر مما يحبها. كل شيء تآمر لجعلها تسقط في فخ مفهومه للعشق، ونجدها بعد عشرين عاماً



تخصص في كتابها «الجنس الآخر»، فصلا يدور حول المرأة التي ترى ان الحب هو الخلاص: «تحاول المرأة العاشقة ان ترى بعينيه، تقرأ الكتب التي يقرأها، تفضل الصور والموسيقى التي يفضلها، تهتم فقط بالمناظر التي تراها معه، بالأفكار التي تنبثق منه، تتبنى صداقاته وعداواته ووجهات نظره، وحين تسأل نفسها تحاول ان تسمع اجاباته.. سعادة المرأة العاشقة القصوى هي ان ينظر اليها عشيقها كجزء منه، وحين يقول «نحن» فهذا يعني انها متحدة ومتماهية معه، تشاركه منزلته وتسود معه على سائر الناس، ولا تتعب ابداً من أن تكرر الى حد الافراط هذه الـ نحن المبهجة».

****

اخيراً وقعت في الحُب

منذ البداية وضعا الاتفاق الشهير بينهما، والذي يقضي بان يمارس كل منهما حريته الشخصية بمعزل عن الآخر: «لقد شرح لي سارتر ان ما بيننا هو حب ضروري، وقد يكون من المناسب ان نمر بحب عابر» وقال هو في الكلمات التي تعد سيرة ذاتيه له: «الرجل العظيم عليه ان يحافظ على نفسه حراً». وتخبرنا سيمون دي بوفوار ان سارتر كان دائم التذكير لها، بألا تتصور انه من الممكن ان يتنازل عن حريته لها، ولكن ماذا عن الغرية سألت سيمون، فيُجيب طالب الفلسفة المتفوق: «لن تخطر على البال ما دمنا سنحكي كل شيء».

كانت سيمون دي بوفوار المولودة عام ١٩٠٨، إبنة لعائلة ميسورة الحال، كان والدها حسب تعبيرها في وضع وسط بين الأرستقراطية والبرجوازية، اما والدتها فامرأة كاثوليكية متدينة، أعطت لإبنتها تربية جادة وصارمة وثقافة دينية وشعوراً حاداً بالواجب، لا يعرف المماطلات والتنازلات، كانت لها شقيقة واحدة، وصديقة واحدة ايضا، في البيت لم تجد حولها سوى الملل، فاشتد احساسها بالوحدة وذات يوم قالت



لأمهـا: «هـل يمكن ان تسـير الحيـاة كما تسـير الآن، ملـل ووراءه ملل».
بعد سـنوات تقرأ الجملة المثيرة لفيلسـوف الوجودية الاول كيركجارد:
«علينا ان نعيش حياتنا مهما كانت تعيسـة او مفرحة، لانها محسوبة علينا
»، منـذ تلك اللحظة قررت ان تعيش حياتها، لانها «لن تعيش سـواها »،
واكتشـفت انها تستطيع ايضا ان تصنع حياتها بنفسها، «ان تجرب الحب
كما تنسج اي امرأة شالاً من الحرير».

اخـذت سـيمون دي بوفوار تحلم: «يا لها من متعـة ان يضع احد يده
على كتفك، يدا معروفة معهودة، لا تكاد تحس بثقلها، ولا تحس بالوحدة
بعد ذلك، ويا لها من جملة رائعة (مخلوقان متحدان)». وبدأت سيمون
تشـعر انها تسـتطيع ان تكتـب عن أحاسيسـها هذه، وتسـتطيع ان تصبح
روائية لها كبرياء، وامرأة ذات سـيادة، ذات حرية، لان الحب حرية، ولا
بد ان نستمتع بمحاسن الحرية هذه.

ولكن كيف؟.. بالحب وبالحرية معا، ففي الحب لا بد ان ينشأ صراع
بين الرجل والمرأة، وتروي لنا سـيمون دي بوفوار قصة هذا الصراع في
معظـم كتبهـا، بدءاً مـن روايتها الاولى المدعـوة، ومـرورا بيوميات فتاة
رصينة، والمثقفون وقوة الاشـياء والصور الجميلة، وليس انتهاء بالمرأة
المجربة.

فالحب الذي تريد ان تبشـر به هو اختلاف، ثـم افتراق، ثم التقاء، ثم
شكوك، والشك عندها يُحيي العشق: «لابد ان يتعذب العاشق وان يشك
وان يعـود الـى محبوبـه ليتاكد انه يحبه حقـا، وهذا خير من ان نستسـلم
للوهـم بأننا نحب» . وهي تقول على لسـان سـيمون بطلة رواية يوميات
فتـاة رصينة: «كنت دائما ما اعطي الحب قيمة رفيعة. وإذ كنت في الثالثة
عشرة قرأت في المجلة الاسبوعية «الميلاد» رواية صغيرة بعنوان «نينون
روز» وكانـت تحكي ان الفتاة نينون تحب اندرية، الذي كان يبدلها نفس
الحب، إلا ان ابنة عمها تيرز صارحتها يوما وهي تبكي وشعرها الجميل
مسترسـل فوق قميصها، بانها كانت تشـتعل حباً لأندريه، وضَحت نيون
بنفسـها، ورفضـت ان تمنـح يدهـا لأندريه، الـذي اغتاظ فتـزوج تيريز،



وكوفئت نيون فتزوجت فتى آخر ذا مزايا عظيمه اسمه برنارد، وقد اثارتني هذه القصة، لقد كان من حق بطل رواية ما ان يخطىء في اختيار شريكة او في تقدير عواطفه الشخصية، وقد يمكن لحب حقيقي ان يعقب حباً مزيفا او غير كامنا. ولكن هذا الحب الحقيقي غير قابل لان يستبدل به حبا آخر بمجرد ان يتفتح في قلب ما، وليس ثمة كرم أو كفر بالذات يسمح لي برفض هذا للحب الحقيقي».

****

الحُب الوجودي

تطرح الفلسفة الوجودية تفسيرا للحب، وبحسب سارتر، فالحب يمثل تناقضا معروفا. وطبيعة الحب طبيعة متناقضة، لأنها ترتبط بالنزاع الأبدي والذي لايمكن حله. ففي سعينا إلى اقامة علاقة متبادلة، إلى فهم الإنسان الآخر، والى مبادلته الحب، نريد من حيث الواقع إخضاع حريته المستقلة وجعله مادة لرغباتنا، ولو اقتصر الأمر على مجرد الحيازة الجسدية لما شكل الحب أية مشاكل أو نزاعات، ويضرب سارتر مثل برواية مارسيل بروست «البحث عن الزمن المفقود» فيقول: «ان بطل بروست الذي تسكن محبوبته معه، ويمكنه ان يراها وان يتملكها في اي وقت من الاوقات، وقد تمكن من وضعها في تبعية مادية كاملة له، عليه أن يتحرر من قلقه واضطرابه. غير انه على العكس من ذلك، كما هو معروف، فالهموم تأكله حتى عندما يكون الى جانبها، ولهذا فهو لا يعرف الهدوء والاطمئنان، ما عدا تلك الدقائق التي يراها نائمة».

يستعرض سورين كيركجارد الاب الروحي للفسفة الوجودية في كتابه «خطوات على طريق الحياة» المراحل المختلفة التي يمر بها الحب، تبدأ بومضة العشق وتنتهي بالحب الأسمى الذي شبهه بالأبدي: «المرأة التي أحببتها واثرت بلا شك على حياتي، لذا فان نشاطي ككاتب يشبه الجبل المشيد على شرفها ومجدها، وسأحمله معي في التاريخ، وانا حزين لا



املك سوى رغبة واحدة، ان اسحرها، ولهذا أنصحكم جربوا الحب، فهو مركز الوجود وهو ما يمنح الطبيعة الإنسانية تناغما لا يمحى بالكامل ابداً »، وفي حوار شهير تجريه سيمون دي بوفوار مع سارتر عام ١٩٦٥ وتنشر ترجمته العربية مجلة الهلال المصرية، تسأل دي بوفوار، سارتر عن كيفية الوصول الى الحب فيجيبها: «لا يمكن الوصول الى الحب عن طريق القوة تماما كما لا يمكن امتلاك الآخر، بحرية دون خرقها. وإرادة السلطة والتملك تؤدي الى الخوف، لا الى الحب»، وتسأل بوفوار: والذي يريد ان يكون محبوبا ماذا يفعل؟

سارتر: من يريد ان يكون محبوبا فهو على العكس لا يرغب ابداً باستعباد الكائن الذي يحبه.

سيمون: وماذا عن الغريزة ؟

سارتر: الحب مع الشهوة الميكانيكية المكربة لا يتوافقان، ان المحب لا يريد امتلاك آلة. إنه يريد امتلاك الحرية تماما، من حيث هي حرية.

سيمون: بالرغم من كل شيء، فان النساء يمنحن الكثير من أنفسهن في حالات الحب، لأن معظمهن لا يملكن غيره ليستغرقن فيه.

سارتر: ربما لأنهن، أيضا، اكثر قابلية للتعاطف العميق، الذي يشكل اساس الحب.

ويقول سارتر في الحوار: «أن الحب الذي ننتظره من الآخر، لا يجب ان يطلب اي شيء، فالحب وفاء نقي طاهر من دون مقابل، غير ان هذا مثل هذا الحب بالذات، لايمكن ان يوجد الا على شكل حاجة المحب، واذا ما كان المحب أسير، فهو أسير شيء آخر، الحرية التي من حيث صفتها كحرية، تصر على اغترابها الذاتي».

تلك هي جدلية الحب التي تحافظ على حرية المحب والمحبوب، وبحسب سارتر لا يمكن ابدا في الحب بلوغ المساواة المطلقة، «ان التوازن في الحب مستحيل، وهو دائما غير ثابت ولا يمكن تحقيقه».

بعد سنوات تقول سيمون دي بوفوار لكاتب سيرتها فرانسيس



جانسـون : «لماذا على النســاء ان يلعبن ما لســن عليه حقيقة، ان يلعبن، مثلا، دور المعشوقات المحظيات العظيمات، ان يقمن بتلفيق كينوناتهن الشخصية وتزييفها، النساء يقفن على شفير العصاب، اني اشعر بالشفقة على هذا النوع منهن. انهن يثرن أنتباهي اكثر من ربة البيت المتوازنة جيداً والأم، هنالـك، بالطبع، نسـاء يثرن أنتباهي واهتمامـي اكثر من الجميع، النساء الصادقات والمستقلات، النساء العاملات والمبتكرات».

وحين يسألها جانسـون: ليست هناك واحدة من شخصياتك النسائية منيعة حيال الحب، انت تحبين العنصر الرومانسي؟

تُجيـب وهي تتطلع الى صورة سـارتر: «الحب امتيـاز عظيم، الحب الحقيقـي، الذي هـو نادر، يثري حيـاة الرجال والنســاء الذين ينخرطون فيه».

وتسـأل سـيمون دي بوفـوار فـي روايتها صـور جميلة: كيـف يكون الحب على هذه الارض؟

فيجيـب حبيبها: بالنضـال معا، ونجد في معظم كتابات سـيمون دي بوفـوار القداسـة والتي تضفيهـا على الحـب، وهي تتفق مع سـارتر من ان العاطفـة يمكـن أن تكون اعظم شـيء في الحياة، فسـارتر يقول على لسـان هيلدا في مسرحية الرحمن والشـيطان «حين تموت، سأتمدد الى جوارك، وسابقى الى الابد، دون ان اشرب او آكل. سوف يتحلل جسدك بين ذراعي، وساحب جثتك».

وسـيمون تعلنها صريحة في المثقفون «ليس هناك حب، ما لم نحب في المحبوب كل شيء واي شيء».

وتقول سـيمون دي بوفوار لفرانسـيس جانسـون، انها تتفق تماما مع سـارتر في النظـرة الى الحب. ولكنها مـن وجهة نظر المـرأة، تفضل ان يحفـظ لها الحب، قـدرا من السـيادة، فلا يصبح الحب حمـلاً ثقيلا، او استبداداً من الرجل، وهي لذلك تعترف للرجل بان يكون حامياً وعطوفاً وقويـاً، لكن عليه ايضـا ان يحفظ للمـرأة كرامتها وسـيادتها، وهي تعيد على سـارتر ما كتبتـه في يوميات فتـاة رصينة: «لا ترفع يـدك عن كتفي،



ولكـن لا تجعـل يدك ثقيلـة، فاليـد الثقيلة ترهـق الناس، حتى لـو كانوا عشاقا متيمين».

****

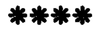
كان سـارتر مدللاً في منزل جده فقـد حظي بالاهتمام الفائق والحب من الام والجدة، في تلك الاسـرة التي تعيش تحت سـيطرة جد متزمت ضامر الجسم ملتحي، كان يعامل الجميع بتعالي، لكن الام احاطت ابنها سـارتر برعاية تامـة واهتمام مبالغ فيـه، كانت تروي له في المسـاء قصة حبها مع والده الذي توفى قبل سنوات، وتعزف له على البيانو مقطوعات رومانسـية ويكتب سـارتر في الكلمـات: «أن كل مـا اردت ان اراه، كان ابـي وهو يضع يده علـى كتف امي، كل ما اردته كان سـماع صوته يقول لهـا: احبك».لكـن ما ان بلـغ الحادية عشـرة من عمرة تفاجئـه امه بقرار زواجهـا، كان ذلـك بمثابة كارثة بالنسـبة للفتى سـارتر، فقد تحطم قلبه. كان الغريب الذي سـرق منه امه يدعى جوزيف مانسـي، مهندسا بحريا، وقد ظل سـارتر يكن له الكراهية إلى يوم وفاته. لكنه يتغلب على مأساته بعد عام، في ذلك اليوم المشـرق يلتقي الفتاة ليزيت، تقف مع مجموعة من صديقاتها، كان علي دراجته.لم يكن واثقاً من نفسه فراح يدور حول المجموعـة، لكنه اخيراً ينتبه الى صوتها وهي تقول له: «هل انتهيت ايها الأحمـق ذي العيـن الحولاء، بنظارتيك وقبعتـك الكبيرة» وقد اثار ذلك ضحكات الجميع.

إن ادراكه بانه غير وسـيم، كان صدمة بالنسـبة اليه، وقد قال لسيمون فيمـا بعد: «كنت اعاني الكآبة بسـبب قبحي، وهـذا ما جعلني أتالـم، كان علـي ان احـرر نفسـي تماما، لان ذلـك ضعف، ينبغي على اي شـخص يعرف قوته ان يكون فرحا، وانا ادعو ذلك صحة معنوية، لأنه حين يكون احدهم في صحة جسـدية ممتازة، فهو يشـعر بالقـوة الكافية لثني أعمدة مصابيح الشارع بيد واحدة».

كانت سـيمون تسـمع الكثير من القـال والقيل عن مغامرات سـارتر



العاطفيـة والتي تنتهي بالفشـل دائما، وكان البعض يقول عليه انه سـكير يعشـق المومسـات، لكنها كانت مفتونه بشيء آخر، بصوته وهو يتحدث بقاعة الدرس ونراها تكتب في يومياتها: «اللقاء مع سـارتر ام مع نفسـي ؟ من هو الشـخص الاخر الذي مارس علي مثل هـذا التاثير العنيف، لم يغمرني هذا اللقاء بالمشاعر، وكأن شيئا حقيقيا حدث لي اخيرا، فجاة لم اعـد وحيدة، حتى ذلك الحيـن كان الرجال الذين تعلقت بهم من فصيلة آخـرى غيري، كانـوا يتصفون بالسـهولة والخفـة في الحركـة والكلام، أميـل الـى التلفت والشـرود، يجنحون قليلٍ من تفـكك، ويتميزون بنوع من الرشـاقة المشـؤومة، كان من المسـتحيلُ التواصل معهم، اما سارتر فقد كان يلبي بالضبط الامنية الخامسـة عشرة من عمريَ، كان هو الكائن الذي وجدت به كل ضروب جنوني، كنت اسـتطيع ان اتقاسـم كل شيء دائمـا معـه، عندما تركت قاعة الدرس بعـد ان تحدث معي، كنت أعرف اكثر من اي وقت مضى انه لن يخرج من حياتي».



الحوار الاخير

منـذ البداية وضـع الإثنان سـارتر وسـيمون الاتفاق الشـهير بينهما، والـذي يقضـي بالحرية في كل شـيء بما فيها الحيـاة العاطفية، من دون الوقوع في فخ الحياة المنزلية، وعندما نقرأكتاب الجنس الآخر لسيمون دي بوفـوار نلاحظ انها لم تكـن متفائلة على الإطلاق ازاء فرص الحرية التـي يمنحهـا الرجال الى المـراة، وتكمن المفارقة التـي تطرحها في انه اذا كفاهـا الحـب فعلياً، ووفـر لها كل ما تتوقعه منـه، وعرفت من خلاله الإندماج الكامل مع عاشق يعتمد عليها كما تعتمد عليه، فلن يعود للحب سببا للوجود عند المراة، كما ان العاشق الذي يبدي رغبة في الاستسلام التام لايوفر لها السبب هو ايضا، اي استعادة الطمانينة التي تبحث عنها، اما الرجل الذي سـيكون تحت سـيطرتها بالكامل فلن يستطيع بعد الان



ان يلطف او يبرر عجزه عن ان يكون معها، وهكذا يكون الحب تراجيديا الضرورة عند المرأة.

رحل سارتر عام ١٩٨٠، وبعد أشهر نشرت الصحافة الفرنسية المحاورة الاخيرة بين سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر، والتي تم تسجيلها قبل وفاة سارتر بوقت قصير، ومن بين الاسئلة التي طرحتها دي بوفوار على سارتر، كان سؤال أزلي متعلق بالحب

دي بوفوار: علام اعتمدت في تفسيرك للحب الدائم بأنه نقيض للحرية ؟

سارتر: بطبيعة الحال لدي اولوية تضع الحرية في المرتبة الاولى وتضع الحب في المرتبة الثانية، لكنني اليوم، اتمنى لو أنني قلبت المعادلة، فالحرية ليست سوى وسيلة توصلنا للحب الدائم. اننا للاسف نستهلك اليوم مفهوم الحب حين نفارنه بالحرية، فنحن لانزال نجهل، كل الجهل ما هو الحب، ان في الحب على نقيض ما في الحرية، شيئاً ممزقاً، لا إشفاق فيه، وهو كذلك دائماً، إن كل استهلاك لمفردة الحب، يعني اننا ندير ظهرنا للمعنى الحقيقي للشيء الجميل ولقيمته الحقيقية، وما قيمته في انه يملأ نفوسنا بالراحة، ويكشف النقاب عن بعض معاني الحياة.



-٤-

الحب وحده بقوته الجبارة يمكنه مجابهة الزمن

في يوم حار من شهر تموز عام ١٩٢٤ ظهر في المنزل الكبير لأسرة ماركيز دي إيجوران، شاب اسمر في الثالثة والعشرين من العمر نحيف الجسم يبتسم كثيرا، ويتحدث بلا توقف، قدّم نفسه للعقيد العجوز بخطاب توصية اعطاه اياه قسيس كان صديقا لذلك العقيد، لقد كان عامل التلغراف الجديد في آركاتاكا، وقد اخفى تحت بشرته البشوشة شاب حالم يهوى الشعر الغرامي وعزف الكمان. كان غابرييل إيليخيو، قد عاش في طفولته وشبابه ظروفاً اقتصادية صعبة، ومع ذلك استطاع ان يحصل على شهادة الثانوية وان يلتحق بالجامعة لدراسة طب الاسنان، لكن الفقر أضطره لترك الدراسة، ليعمل موظفا للبريد يتنقل بين القرى، وكان آخرها آركاتاكا التي شاهد فيها الآنسة لويسا سانتياجا في منزل العقيد، ولم يكن لديه ادنى شك بعد تلك النظرة ان هذه الفتاة ستصبح زوجة له.

ففي عام ١٩٢٥ أفصح لها عن حبه واقترح عليها الزواج في ظل شجرة اللوز بمنزل العقيد ماركيز إيجوران، واكد لها انها كانت سبب أرقه وسهاده، واطلق أمامها واحدة من أقل العبارات رومانسية: «اصغي ياسيتيوريتا ماركيز، كنت ساهراً طوال الليل افكر في انني بحاجة إلى الزواج، وأن المرأة التي سكنت فؤادي هي أنت، ولا أحب اي امرأة اخرى فأخبريني ان كان لديك اية مشاعر روحية تجاهي، لكن لا تظني انكِ مضطرة الى الموافقة، لأنني على وجه التاكيد لا اموت حباً



فيك، وسأمنحك اربعاً وعشرين ساعة للتفكير في الأمر». وبعد اكثر من خمسين عاما سيجلس الكولومبي غابريل غارسيا ماركيز ليستعيد مشهد شجرة اللوز، وهو يكتب الجملة الاولى من روايته الحب في زمن الكوليرا «لا مناص فرائحة اللوز تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية».

كانت لوسيا في التاسعة عشرة من عمرها، مدللة الى حدٍ ما، ويخبرنا ماركيز في مذكراته «عشت لأروي» بأن والدته لم تكن فائقة الجمال، لكنها كانت جذابة، مفعمة بالحيوية، وان أسرة جده كانت ترفض كل الخاطبين الغرباء، ولهذا سرعان ما تم اخبار العقيد عن مناورات موظف التلغراف مع ابنته لوسيا، فقرر ان يرسلها في رحلة طويلة خارج المدينة عند بعض الأقارب، لكن خطته مُنيت بالفشل، فالمحارب القديم الذي خاض معارك عديدة، لم يحسب حساب عامل التلغراف الذي كان يضع خططا أستراتيجية للفوز بقلب لوسيا، في رواية «الحب في زمن الكوليرا »، يقص علينا ماركيز حكاية الرسائل المشفرة التي كان يمررها عمال التلغراف الى لوسيا في كل مكان تصل اليه، وهكذا كانت خطابات ورسائل العاشق تصل الى لوسيا التي كانت تخفيها في ثنايا الموقد حتى لا تصل اليها نظرات والدتها التي رافقتها في رحلة المنفى، وكانت الأم قد ادركت ان خطة العقيد ستفشل، وان البعد لن يستأصل هذا الحب، بل سيساعد على توهجه وتأججه اكثر فاكثر، وبالفعل فما ان نزلت الأم وابنتها من السفينة الشراعية التي عادت بهما الى آراكاتاكا، تنبهت الام الى ان موظف االتلغراف كان اول مَن استقبلهما في الميناء، وهو يرتدي بدلة جديدة ويحمل بيده باقة ورد حمراء. في عام ١٩٢٦ يتلقى العقيد ماركيز رسالة من صديقه القسيس بيدرو إسبيخو يطلب منه ان يوافق على زواج ابنته من عامل التلغراف، لأن الاثنين مغرمان ببعضهما بعضاً، وان الزواج من شانه ان يجنب حدوث «مصائب أسوأ»، ويرق قلب العقيد فيوافق على الزواج، ويخبرنا الروائي الشهير ماريو فارغاس يوسا، نقلا عن صديقه ماركيز ان العقيد أصر على ان يقام حفل الزواج



خارج آراكاتاكا، وهكذا قررا السفر الى مقاطعة ريوهاتشيا، وفي السفينة التـي أقلّت العروسـين أعترف عامل التلغراف لعروسـته انـه ترك وراءه طفليـن غير شـرعيين، وانه أغوى قبلها عددا من النسـاء حتى أُطلق عليه لقب كازانوفا، لكنه منذ لحظة رؤيتها قرر ان يعيش حياة جديدة، يتعرف فيها لاول مرة على معنى الحب الحقيقي.

بعد ثمانية عشـر شـهراً تعود لوسـيا الى بيت العقيد، كانت في الشهر الثامـن من حملها الذي كان السـبب في ذوبان جليـد العلاقة بين معامل التلغراف والعقيد ماركيز، وفي يوم الاحد السـادس عشـر من اذار سـنة ١٩٢٧ وعند السـاعة التاسـعة صباحا، ولِدَ الابن غابريل غارسيا ماركيز وكان ضعيف البنية واقترحت العمة فرانسيسـكا ان يرشـوا عليه الشراب وماء التعميد خشـية حدوث مضاعفات صحية لـه، وأُخبر العقيد بولادة ابنته وكان في الكنيسة فترك القداس وعاد مسرعا، ليحتفل بولادة حفيده، لتصبح قضية زواج ابنته من الماضي، فالحياة ستسـتمر، وسيكرس الجد كل طاقاته لحفيده الذي اطلق عليه لقب «نابوليوني الصغير».

****

انتصار الحب

في عام ١٩٨٤ يعود غابريل غارسيا ماركيز الى آركاتاكا، ذلك المكان الـذي الهـم روايته الاولى عاصفـة الاوراق. أنه يريـد ان يملأ الفجوات المفقـودة في روايتـه الكبيرة «مئة عام من العزلة»، فأديب نوبل اكتشـف انه يعاني من عقدة اوديب التي دفعته لإزاحة أبيه من الاحداث واستبدله بجده العقيد، كان الاب غابريل اليخيو قد عاد ايضا الى آركاتاكا، ليصبح نجـم القرية بعد ان حصل أبنه على جائـزة نوبل، ونراه ينعم وربما للمرة الاولـى بالمجـد الـذي انعكـس عليه لانـه والد أشـهر اديب فـي اميركا اللاتينية.

كان ماركيز ينهض يومياً عند السـاعة السادسة صباحا، يقرأ الصحف



ويهيء نفسه للتخطيط لكتابة روية جديدة، وقد قرر ان يترك الآلة الكاتبة ويستخدم الحاسوب للمرة الاولى في حياته، ولم يكن الحاسوب هو التحول الوحيد في حياته، لكنه قرر ان يعيد النظر بعلاقته بوالده، فعلى مدى سنوات طويلة لم يتكلما الا نادراً، واليوم يعيشان بنفس المكان، فكان لابد ان يتصالح الابن مع أبيه، بما يكفي لأن يذهب بين الحين والآخر ليتكلم معه ومع والدته كل على انفراد يسألهما عن شبابهما وقصة الحب التي عاشاها، والتي كان يسمع بعضاً منها في منزل الجد، كان الدافع وراء ذلك رواية جديدة، لكنه يعترف في حواره الموسع «رائحة الجوافة» مع بيلينيو ميندوثا، بأنه كان يشعر بالذنب تجاه أبيه وكان لابد ان ينظر اليه نظرة اقل قسوة واكثر رأفة.

ورغم ان الامر كان صعبا في بداية الامر، فالأبن لم ينسَ ان غابريل إليخيو هو الرجل الذي اخذ أمه، ثم قرر ان يبعده عن جده المحبوب، وكيف كان يطلق التهديدات ليحافظ على سلطته الابوية، لكنه بالمقابل استطاع ان يحافظ على اسرة كبيرة تأكل وتلبس وتتلقى تعليما جيدا، وكان ماركيز قد صرح لإحدى الصحف الكولمبية بعد فوزه بجائزة نوبل انه ليس اكثر من طفل من الاطفال الستة عشر لعامل تلغراف في آراكاتاكا، الأمر الذي اثار غضب الاب الذي خرج على الصحافة ليقول، انه لم يعمل عامل تلغراف الا مدة قصيرة، وانه الآن طبيبا محترفا وشاعرا وعازف كمان وروائياً ايضاً، كان عامل التلغراف يشعر بالإهانة لان الاضواء سلطت على ذكرى الجد العقيد، فيما الاب غابريل اليخيو لم يُذكر قط، وكان يشعر انه مستبعد عمداً.

في أواخر عام ١٩٨٤ كان ماركيز قد انتهى من كتابة الفصول الثلاثة الاولى من رواية «الحُب في زمن الكوليرا»، وبدت ملامح الرواية تتضح، كان يذهب بين الحين والآخر ليتحدث مع أبويه من اجل الحصول على معلومات دقيقة عن الفترة الزمنية التي شهدت قصة حبهما، وأخذ يكتب دراسة ملخصة عن مفهومه للحب، ويخبر كاتب سيرته جيرالد مارتن انه



تذكر ولعه ايام الشباب بقراءة اعمال شكسبير، وكيف ان عبارة شكسبير «الحب وحده، بقوته الجبارة يمكنه مجابهة الزمن» التي جاءت على لسان اوفيليا في هاملت كانت تسحره. كان شكسبير يتحدث عن قوة الحب تلك القوة التي لا تتغلب عليها اية صراعات وجودية. وتحضر لماركيز من خلال مسرحيات شكسبير التي اعاد قراءتها تحولات الحب، وكيف أن سهم كيوبيد قوي جدا، ويؤكد ماركيز في لقاء اجراه معه داسو سالديبار ونشر في كتاب رحلة الى الجذور، ان شكسبير وخصوصا في روميو وجوليت لم يكتب قصة حب مجردة، وانما قدم الحب الذي يسعى للتغلب على الصراع الاجتماعي، كان شكسبير يريد ان يخضع المجتمع الاقطاعي الى قانون الحب والوفاق الانساني:

الحب.. منارة للسفن

تلجأ اليه في العاصفة والضباب

الحب.. نجم يزرع الأمل في المحيط

«روميو وجوليت»

ويضيف ماركيز: «لو شاهدت نصوص شكسبير التي تعرض صراعات المحبين في مواجهة تسلط المجتمع واستبداده، يمكن ان تعطيها كلها عنوان واحد «انتصار الحب».تحت هذا العنوان يحكي لنا شكسبير كيف ان هؤلاء المحبين يحققون في النهاية ما يريدون. انه انتصار الحب وليس استمراريته.وقد بنيت الاعمال الادبية العظيمة حول استحالة الحب وتراجيديته وفراقه ونهاياته المأساوية، لكن القليل منها يدور حول استمرارية هذا الحب.. كنت دائما افكر في قصة حب على غرار ما كتبه صاموئيل بيكت في «أيتها الايام الجميلة» قصة حب عن عجوزين. في مشهد نرى المرأة تغرق في التراب، لكنها تقول: كم كانت أياماً جميلة انها تقول هذه الجملة لانها على يقين ان الحب مازال موجودا، فالحب هو العنصر الثابت والقوي الذي بنت عليه وجودها



فـي الحيـاة، في هذا النص القصير والمكثف يحكـي لنا بيكت قصة حب عنيـدة في اسـتمراريتها». هكذا قرر ماركيز ان يـروي قصة غرام أبويه من خـلال حكاية رجـل وامرأة أُغرم احدهمـا بالآخر، لكنهما لا يسـتطيعان الـزواج فقد بلغـا الثمانين من العمر بعد ان شـهدا تقلبات الزمن الذي لم يسـتطع القضاء على اسـتمرارية الحب، ويقول ماركيز لجيرالد مارتن ان الحب في زمن الكوليرا بالنسـبة له مغامرة شـيقة، لأنه اسـتخدم فيها كل وسـائل الثقافة الجماهيرية، وكل ما شـاهده في المسلسلات الاجتماعية الميلودرامية وما سـمعه من اغتي البوليرو، فالروايـة التي تبدو متأثرة بما كتبه فلوبير وستندال وبلزاك، تبدأ في جنازة وتنتهي نهاية سعيدة على متن قارب صغير.

بعـد ان انتهـى ماركيز من كتابـة نصف الرواية فـي اواخر عام ١٩٨٤ توفـى والده غابريل اليخيو غارسـيا، بعد الاحتفال بذكـرى ميلاده الثالثة والثمانيـن، كان المـرض قـد داهمه فجأة، وفـي الثالث عشـر من كانون الاول ١٩٨٤ يصـل ماركيز للمشـاركة في دفن ابيه، ونـراه للمرة الاولى يشـعر بفقدان الاب، بعد ان استطاع في السنوات الاخيرة تجديد العلاقة معه، لقد اصبح الأقرب اليه من جميع افراد الاسـرة، وفي مراسـيم الدفن تخبره امه انه اصبح الان مسؤولا عن العائلة، ونجده يسألها عن مشاعرها بعـد وفـاة والده فتجيبـه: كان حبي الاول، وسـوف اكون أمينـة على حبه دائما.

ويخبر ماركيز بصديقه داسـو سـالديبار بانه يشـعر بحالة يُتم وعذاب، وعندما يسـأله عن روايته الجديدة يقول ماركيز: «انها في حالة طفو على السـطح، أعرف مـا الجملة الاخيـرة التي سـأكتبها في الروايـة حتى قبل ان اجلـس لكتابتهـا علـى الـورق، لأننـي لا ازال افكر فيها منذ سـنتين»، ويتحدث سـالديبار عن ان ماركيز اصبح صاحب اسـوأ مزاج هذه الايام، ربمـا بسـبب انتظـار ما سـيقوله القراء عن روايتـه الجديـدة التي تتحدث عـن الحـب والجنس في جو يبعث علـى الغرابة، لكنه يحمـل الكثير من الجاذبية.



عندما نشرت الحب في زمن الكوليرا عام ١٩٨٥ كان الإهداء موجّهاً «الى ميرثيديس طبعاً».

****

المرأة التي أبحث عنها

كانت ميرثيديس هي المرأة التي أختار الإرتباط بها منذ سنوات، وقد شغلت ذهنه منذ ان كانت في التاسعة من عمرها، أبنة صيدلي شاهدها في حفل راقص للطلاب، وقرر وقتها ان يتزوجها بعد الإنتهاء من دراسته، وعندما بلغت الثانية عشرة من عمرها حدثها عن رغبته في خطوبتها، ونجده بعد عشر سنوات يقرر ما اذا كانت ميرثيدس على وعدها له، لقد ظلت طوال اكثر من عقد من الزمان لا تغادر تفكيره، والآن ما الذي سيقوله لها بعد ان قرر مغادرة كولومبيا لينأى بنفسه من تهديدات الحكومة التي قد تعمد الى اتخاذ اجراءات ضده بسبب مواقفه العدائية منها، ولهذا عندما واتته الفرصة للسفر الى اوروبا رحب بها فورا، لكنه الان يخاف ان تضيع المرأة التي احبها، مثلما ستضيع منه بلاده كولومبيا، وبالتالي فانه يريد ان يجد شيئا يربطه بالبلاد، فقد كانت ميرثيديس تنحدر من نفس المدينة التي ولد فيها، وبالتالي فجذورها هي جذوره ايضاً، وسيضمن وجود شخص الى جواره يفهمه بشكل جيد، يقول الكاتب سيرته جيرالد مارتن انه لم يجد فيها مواصفات الجمال الباهرة، بل وجد انها تمثل خياراً أستراتيجيا واقعيا تماماً واتحاداً مثالياً، ويصف احد كتّاب سيرة ماركيز الكولومبي داسو سالديبار، ميرثيديس بأنها «امرأة طويلة وجميلة ذات شعر بني يرتخي على كتفيها، وحفيدة أحد المهاجرين المصريين، وهو ما يبدو جلياً في عظامها العريضة وعيونها الواسعة ذات اللون البني».

هل كانت ميرثيديس اول حب في حياة ماركيز ؟ في مذكراته «عشت لاروي»، يحدثنا صاحب مئة عام من العزلة عن امرأة اخرى اسمها



مارتينا فونسيكا كانت هي حبه الاول، تعرف عليها عندما كان مراهقا في الخامسة عشرة من عمره، وكانت هي متزوجة، طاردها بالرسائل فقررت ان تضع حداً لطيشه خوفاً من الفضيحة، لكنه بعد سنوات عام ١٩٥٤ يسمع صوتها عبر الهاتف ويقابلها في احدى المقاهي، ويفاجأ بملامح تقدم السن الواضحة على وجهها وتسأله ان كان لا يزال يشتاق اليها: «عندئذ فقط اخبرتها بالحقيقة وهي انني لم انسها قط، لكن وداعها كان قاسيا جدا غيَّر من وجودي»، وأخبرته انها كانت تريد ان تطمئن على احواله، ويخبرها بانه كان يشتاق لرؤيتها.

في عام ١٩٥٨ كان ماركيز يعيش في كاركاس عاصمة فنزويلا، صحفي لامع، روايته ليس للكولونيل من يكاتبه نجحت نجاحا كبيرا حتى ان الصحافة الفرنسية اعتبرتها واحدة من انجح الروايات وشبهتها برائعة همنغواي «الشيخ والبحر»، كانت ميرثيديس لاتزال تنتظره في كولومبيا، وفي يوم مشرق قال لصديقه بلينو ميندوثا وهما يجلسان في احدى حانات كاراكاس بعد ان اطال النظر الى ساعته: «تباً ستفوتني الطائرة» فسأله بلينو الى أين سيذهب ؟ فيجيب وهو ينهض : سأتزوج عام ١٩٥٨ تنتقل ميرثيديس الى عالم زوجها الجديد الذي لا تعرف عنه شيئاً، وستمضي سنوات قبل ان تشعر بالاطمئنان الى هذا الرجل الذي يبدو انه منبسط ولكنه كتوم وغامض الى حد بعيد ايضاً.

****

حب والحرية والشيخوخة

تدور أحداث رواية «الحب في زمن الكوليرا» في مدينة كاربيه بين سبعينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين، انها تدور عن الحب والزواج والحرية والشباب والشيخوخة: الطبيب خوفينال اورينو المنتمي الى الطبقة العليا، ويقابله موظف الشحن فلورنتينو اريثا المفتقر الى الجاذبية وثالثهم الحسناء فيرمينا، التي هي مزيج من امه لوسيا



وزوجته ميرثيديس، تبدأ احداث الرواية في يوم احد في ثلاثينيات القرن الماضـي، حيث يلقى خوفينال أوريـنـو مصرعه وهو في العقد الثامن من عمره عندما يسـقط عن سلم أرتقاه في محاولة لإنقاذ ببغاء الاسرة، وفي جنازة اورينو يحاول فلورينتيو محبوب فيرمنا السـابق أن يذكي ذكريات مضى عليها عشـرات السـنين عندما كانا مراهقين، حيث سـيظهر وسط المعزيـن وكانت مسـاعداته الكثيرة لا تقدر بثمن في سـاعة الشـؤم التي يمر بها البيت، ولكن كان ثمة أمران يثيران الشكوك في «عازب متمادٍ في عزوبيته، لقد انفق مالا كثيرا وحيلا واسـعة وتصميما شديدا كي لا تظهر آثار السنوات الست والسبعين التي أتمها وكان مقتنعا في عزلة روحه بأنه أحـب بصمت أكثـر بكثير من أي كان في العالم. وعندما رأته فيرمينا داثا في آخر أيام عزاء زوجها، كانت المرة الأولى التي تراه فيها، ولكن قبل أن تتمكن من شكره لهذه الزيارة، وضع قبعته فوق موضوع القلب وقال لها بصوت مرتعش ووقور.. لقد انتظرت هذه الفرصة لأكثر من نصف قرن، لأكرر لك مرة أخرى قسـم وفائي الأبدي وحبي الدائم». كان فلورينتينو شاباً بريئاً حين تعرف إلى فيرمينا داثا، كانت تعيش مع عمتها وأبيها الذين قدموا للعيش هنا هرباً من انتشـار مرض الكوليرا، أشـتروا لأنفسهم بيت البشـارة ورمموه. وكان ذلك مؤشـراً على أنهم فـي بحبوحة من العيش. كانت الابنة فيرمينا تدرس في مدرسـة ظهور العذراء المقدسـة، وأحبها فلورينتينو منذ رآها وله من العمر ثماني عشـرة سـنة. وكان يكبرها بأربع سـنوات. رسم لها في مخيلته صورة مثالية. وسرعان ما وجد هذا الحب صداه بتبادل المشـاعر، والأحلام. قالت لها عمتها في إشارة لفلورينتينو الـذي يجلس في الحديقـة ليراهما تمران: «لا يمكن إلا أن يكون مريضاً بداء الحب.. ولا بد من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل». وصدقت العمة قبل أن تكون هي واسـطة لنقل رسائله، فضلاً عن أماكن سرية يخبئان فيها رسائلهما التي استمرت لأربع سنوات، ليجداها أحيانا مبللـة بماء المطر. كان فلورينتينو يرسـل لها أبيات شـعر محفورة برأس دبـوس على وريقات زهرة كاميليا. وما إن عرف والد فيرمينا بقصة حب



ابنتـه وبمسـاعدة عمتها لها حتى ثـار وطرد أخته وأجبرهـا على الإبحار بعيداً، ثم حاول إغراء ابنته بكل أنواع التملّـق، وحاول إفهامها أن الحب في سـنها ما هو إلا سـراب، وطلب منها أن تعيد الرسـائل. وأمام رفض فيرمينا لطلب والدها، أجبرها على رحلة النسـيان بعيداً عن هذا المكان، كانت رحلة مجنونة اسـتمرت أحد عشر يوماً ثم مكثا بعيداً طويلاً وحين عادا إلى بيتهما كانت فيرمينا مريضة، وشكوا في أنها تعاني من الكوليرا.

كان علـى الدكتـور خوفينال أوربينـو العازب والعائد مـن باريس أن يعالج فيرمينا. وسرعان ما سقط دون مقاومة أمام مفاتنها رغم أنه يكبرها بعشـر سـنوات. ويقـرر أن يتقـدم لخطبتهـا، والدهـا وجد فرصـة مثالية بالدكتـور خوفينـال. كان فلورينتينو مقتنعاً في عزلـة روحه بأنه قد أحب بصمـت أكثر بكثير من أي كان في هذا العالـم، لكنه لم ييأس فلورينتينو فبدأ بإرسـال الرسالة تلو الأخرى، حتى باتت طقساً يومياً، وكان مستعداً لإخضاع صبره لتجربة أكبر، إلى أن يجد دليلاً قاطعاً على أنه يضيع وقته بهذا الأسـلوب، حتى بلغت رسـائله مئة واثنتين وثلاثين رسالة من دون أن يتلقى أي رد، وانتظر فعلاً دون الإحسـاس بالقلق الذي كان يسـببه له الإنتظار في شبابه.. انتظر بعناد شيخ صلب.

وهكـذا وجـدا نفسـيهما بعـد نصـف قـرن مـن الانتظـار، عجوزين يترصدهمـا المـوت، لا يجمعهمـا سـوى ذكـرى مـاضٍ غابـر. واقتنـع فلورينتينـو بـأن فيرمينـا مـا زالـت على شراسـتها التـي كانـت عليها في شـبابها، لكنهـا تعلمت أن تكون شرسـة برقة، فها هو يقتحـم عليها بيتها من دون موعد، مسـبباً لها صدمة، وطالباً منها موعداً ليشـربا الشاي معاً. ثـم وجـه فلورينتينو دعـوة رسـمية لفيرمينا لتقـوم برحلة اسـتجمام عبر النهـر، وبعـد انطلاق السـفينة عزفت الفرقة الموسـيقية مقطوعة شـعبية دارجة، واسـتمرت الفرقة في العزف حتى منتصف الليل، بقي العاشقان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان إيقاع أنفاس السفينة، مدّ فلورينتينو يـده البـاردة في الظلام وبحث عن اليد الأخـرى. ولكي يظلا أطول فترة ممكنة اقترح فلورينتينو أن يرفعوا على السفينة علم حملها وباء الكوليرا،



لتبحر في النهر جيئة وذهاباً، فقد عاشا معاً ما يكفي، ليعرفا أن الحُب هو أن نحب في أي وقت وفي أي مكان، وأن الحُب يكون أكثر زخماً كلما كان أقرب إلى الموت.

****

فشل اللصوص

فرغ ماركيز من روايته وانهاها بعبارة «مدى الحياة» وارسلها الى ناشره ليقرأها وتسلمت سكرتيرته كارمن بالسليس نسخة من الرواية وقالت انها امضت يومين تبكي فوق المخطوطة. وفي خريف عام ١٩٨٥ سافر الى برشلونة، نزل في فندق الاميرة صوفيا، وفي ذلك الوقت اقتحم لصوص غرفته، وهذا ما كان يخشاه، لم يسرق منه حاجيات لكنه اخبر الصحافة انه لم يكن يتصور ان اللصوص كانوا يريدون الاستيلاء على مخطوطة الحب في زمن الكوليرا التي كانت عبارة ثلاث اقراص معلقة في رقبته.

في الخامس من كانون الاول ١٩٨٥ صدرت الحب في زمن الكوليرا فاثارت دهشة القراء والنقاد في جميع انحاء العالم، لانها قدمت اليهم ماركيز من طراز جديد، رجل يكتب عن الحب والسلطة وتغدو الرواية الأكثر شعبية بين القراء، ويضعها النقاد بمصاف الاعمال الكبرى التي صدرت في القرن التاسع عشر الى جانب آنا كارنينا وكبرياء وهوى والأحمر والاسود ومدام بوفاري ومرتفعات وذرينغ.




مكتبة
الفكر الجديد

-٥-

الحب الضائع.. بين اليأس والرفض والغضب والجنون

صعد التل متجاوزا الكنيسة وجلس في حقل القمح الاصفر، تذكر ما قاله له صديقه غوغان قبل أسابيع: «اذا كان السم موجوداً، فان الترياق موجود». أمسك بفرشاته واخذ يرسم الطيور التي كانت تحلق فوق رأسه، ساعات متواصلة من العمل، وحين تبين له انه فرغ من اللوحة كتب في احد الزوايا «غربان فوق حقل قمح» ثم حمل المسند واللوحة ليعود الى البيت، هناك القى بجسده على السرير، كان يشعر ان هذه هي أيامه الاخيرة بالحياة، فهو منذ ايام مسكون بفكرة الموت، كان فينسنت فان كوخ في السابعة والثلاثين، وقد أكتشف أخيراً ان الأمل بالشفاء من امراض الوسواس فقيرة جدا، وانه بحاجة الى ان يرسم لوحته الاخيرة، نظر الى الحذاء المركون الى جانب السرير، رفعه عن الارض ووضعه برفق فوق كرسيه تأمله لحظة وبدأ يرسمه في حرارة وانفعال كما يفعل مع الاشخاص الذين يحبهم، أنتهى الرسم وضع الى جوار الحذاء ورقة كتب عليها: «أنا أضع قلبي وروحي في عملي هذا، وربما سأفقد عقلي بسبب ذلك»، ولم يكن يدري ان هذا الحذاء العتيق سيثير سجالاً فلسفياً، ففي العام ١٩٣٦، شاهد الفيلسوف الألماني «مارتن هيدجر» اللوحة في معرض بأمستردام. فيقرر ان يكتب عنها دراسة مطولة بعنوان «اصل العمل الفني» حيث نجده يطرح سؤال عن معنى الفن وما حقيقته، ونجد هيدجر يتوصل الى نظرية تقول ان العمل الفني هو اصل الفنان وحقيقته: «أننا نستخدم الأشياء في حياتنا اليومية، ونستطيع أن نعرف



الغـرض من اسـتخدامها، لكنّ جوهرهـا يظلّ مخفيّا أو مغيّبـا عنّا، وهذا الجوهر هو ما يكشف عنه الفنّ»، عندما نظر هيدجر إلى حذاء فان كوخ، توصّل إلى استنتاج مؤدّاه أنه يخصّ امرأة كان لها تأثير على حياة الرسام. ولهذا يؤكد هيدجر ان فان كوخ عندما رسم الحذاء، كان يرسم بورتريها رمزيا لمعاناته مع النسـاء، ويكتب سيجموند فرويد في تحليله لشخصية فان كوخ من ان الرسـام: «كان سيعيش اكثر لو نجح في الحب، أن فشله في العثور على رفقة انثوية ساهم في انهياره».

حدثت اولى حالات الانهيار عندما رفضته عام ١٨٧٤ الفتاة الجميلة اورسـولا لويـر أبنـة صاحبة المنـزل الـذي كان يقيم فيه في لنـدن، فبعد أخفائه لمشاعره طوال شهور اقامته في المنزل، انفجر ذات صباحا معلناً حبه للسـيدة الشـابة قائلا: أمس فكرت حين اويت إلى سـريري في اسم يصلح لك. لقد دعوتك ملاك.

ضحكت من قلبها صائحة: ملاك ينبغي ان اذهب وأروي ذلك لأمي.

نظـر اليها فنسـت، انه نادراً ما اهتـم بامرأة من قبل، لقد نشـأ في بيت متزمت، ولم يحب أمرأة من قبل، ولم يكن اعجابه بارسـولا مجرد نزوة او شهوة، فهو يحب للمرة الاولى.

نظـرت اليه بعينيـن متعجبتين وقالت: ماذا بـك أصبحت، لا افهمك هذه الايام.

فقال لها وهو يرتجف: ما اردت ان اقوله اليك، انني.. اعني

تراجعـت اورسـولا خطوة الى الـوراء: ما الذي تحـاول ان تقوله لي على وجه التحديد.

أحـس مـن خلال صوتها انهـا خائفة، حـاول ان يطمئنها قـال: «انني احاول اخبرك يا أرسـولا شـيئا تعرفينه مقدما وذلـك انني احبك من كل قلبي، ولن اكون سعيدا الا اذا اصبحت زوجتي».

زوجتك! صرخت بصوت عال: «كيف يكون هذا وهو مستحيل».

نظر اليها وهو يرتعش وقال: آخشى الآن انني انا الذي لا..



فقاطعته: انه لأمر غريب ان لا تعرف انني مخطوبة منذ عام.

مر على الاعتراف اسبوعين وذات صباح نزل الى غرفة الاستقبال كانت اورسولا وأمها جالستين تتبادلان النظرات

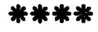
قالت الأم وهي تراه يتجه الى باب الخروج: نحن نرى من الأفضل ان تسكن في مكان آخر.

واستدار لينظر الى اورسولا التي اخفضت وجهها الى الارض، فيما الام تكمل حديثها: لقد كتب الينا خطيب ابنتي قائلا انه يريدك خارج البيت، وانني أرى انه من الخير كل الخير لو أنك لم تأت الى هنا على الاطلاق.

خرج من البيت ليكتب رسالة الى اخيه ماثيو: «ينبغي ان اعثر على امراة تحبني أو ساتجمد واتحول الى حجر».

بدت له هذه التجربة الفاشلة رمزا لمأساة حياته يكتب في احدى رسائله: «امد يدي الى السعادة لأحيا كما يحيا الاخرون، لكنني اجد الابواب موصدة في وجهي».

لم يخمد حبه العنيف لأورسولا، فاخذ يعاني من نوبات عصبية متفرقة ومنهكة، كانت كل منها تصيبه بالتشوش وعدم القدرة على التعبير عن نفسه بشكل مترابط لأيام أو حتى لأسابيع، وبدا اليأس يلازمه، فاصبح خشن الطباع، لا يحب صحبة الناس، يسيء الظن بهم ويضيق بصحبتهم، فقرر في صيف عام ١٨٤٧ مغادرة لندن والعودة الى عائلته في أمستردام.



صاحب الوجه القبيح

استوحى فان كوخ من أورسولا الصورة الأكمل لأمرأة وحاول ان يقدم من خلالها وجوه معظم نسائه اللواتي احبهن فيما بعد. بعد رفض اورسولا له عاش حياة مضطربة، اعتقد فيها ان عدم وسامته



كانت سببا في ابتعاد النساء عنه، وقد كتب في احدى رسائله: «في كل صباح، عندما أنظر إلى المرآة أقول لنفسي، أيها الوجه المكرر، يا وجه فينسان القبيح، لماذا لا تتجدد؟ أبصق في المرآة وأخرج، واليوم قمت بتشكيل وجهي من جديد، لا كما أرادته الطبيعة، بل كما أريده أن يكون: عينان ذئبيتان بلا قرار. وجه أخضر ولحية كألسنة النار. كانت الأذن في اللوحة ناشزة لا حاجة بي إليها. أمسكت الريشة، أقصد موس الحلاقة وأزلتها.. يظهر أن الأمر اختلط علي، بين رأسي خارج اللوحة وداخلها، حسناً ماذا سأفعل بتلك الكتلة اللحمية؟».

كان فان كوخ المولود عام ١٨٥٣ في قرية صغيرة من قرى أمستردام لاب قسيس، عمل منذ الصغر في العديد من المهن، بائعا في احدى المكتبات، ومدرس لغات مقابل الأكل والمآوى، وحارس مدرسة ابتدائية، كان والده يريد ان يهيئه لمهنة القسيس، لكنه قاسى من دراسة اللاهوت، فقرر ان يجرب حظه في الرسم: «لقد قررت أن أتخذ من الرسم حرفة لي» وكان الأب ينظر الى ما يفعله ابنه باستخفاف، وعندما يشاهده وهو يكرر رسم امراة نفسها اكثر من مرة، يقول له معاتبا: لماذا لاتتحول الى عمل تتمكن من اجادته

-لن اتحول الى عمل آخر يا ابي لقد قررت مصيري

- ولكني اراك تعيد الرسم الواحد عشر مرات، ويبدو لي لو انك كنت على قدر من الموهبة لتمكنت من رسم ما تريد من اول مرة

- ان الطبيعة تبدأ بمقاومة الفنان يا أبي، ولكن هذه المقاومة يجب ان لاتثنيني عن عزمي، بل العكس يجب ان تشحذ همتي حتى اتفوق على الصعاب

* لا يابني ان الفنان الفاشل عليه ان يكف عن المضي في طريقه، ولا يضيع وقته سدى

- ولكنني أجد سعادة اكبر في ان احول الرسم الفاشل الى رسم ناجح



ان الرسم يريحني من الهموم ويضيء حتى ليل الظلمة.

بعدها ايقن الاب ان ابنه اتجه اهتمامه للفن، فقد كان يرسم طوال عشر ساعات في اليوم على مدى تسعة اشهر، وفي بيتهم الريفي بحث عن سلوى جديدة، لكن لم يكن يدري ان الاقدار تخبيء له حكاية حب جديدة. كانت الحبيبة هذه المرة احدى بنات خاله اسمها كاي سترايكر، جذابة الى درجة كبيرة ذات شعر اشقر وعينين زرقاوتين واسعتين، تفيض قسمات وجهها بمسحة من الحزن، جاءت الى بيت عمتها مع ابنها الصغير لتستريح بعض الوقت بعد وفاة زوجها، ما ان راها حتى اخبرها بانه سيرسمها:

- ان رامبرانت لو كان موجوداً لقرر ان يرسمك فورا

- وهل رامبرانت كان يهوى رسم النساء الدميمات.

- بل يرسم النساء الجميلات اللاتي فيهن مسحة من الحزن يصهر ارواحهن.

وذات يوم شكا لأمه صد ابنة خاله له، كان في ذهنه يرسم لها صورة المرأة التي احبها في اورسولا، لقد فكر ان كل ما يريده كان حباً تمتلئ به حياته الموحشة: «الحب زحمة وسط العزلة «عندئذ قال لكاي: «حين رأيتك فقدت توازني».

اجابت بحدة: لا اريد ان تكون حياتي رهنا لهوى آخر»

- لكن صاعقة الحب اكثر حيوية وعنفا قال لها ثم أضاف: سوف نبدأ حياة جديدة بعيدا عن هنا تحت سماء اكثر زرقة

- كلا، فانا جربت الحب مرة واحدة وكاد ان يقتلني وسواء كنت سارتبط برجل اخر، ام سأموت هكذا، فانني لا افكر فيك زوجاً.

كانت هذه الكلمات اشبه بضربة قاضية وجهتها الى رجل مذهول.

واخيرا قررت كاي ان تهرب من مطارداته لها، فعادت الى بيت ابيها في امستردام، لكنه ظل يلاحقها بخطاباته الملتهبة: «ما معنى ان يفكر انسان بشخص اخر، معنى هذا ان لاينساه، اذ لا حياة ممكنة مع النسيان



ثمة اشياء كثيرة تعيد صورتك الي والتفكير فيك، لايفيد شيئا اخر غير ان اراك.انا ببساطة لا استطيع العيش دون ان افكر فيك».

ويقرر أخيرا ان يذهب في اثرها ويستقبله خاله القس ستريكر بجفاء:

- والآن يافنست انك تسبب الكثير من المتاعب لابنتي

- دعني اراها ولو لمرة واحدة

- انها لاتريد ان تكلمك

- اصغ الي أرجوك انني احبها بجنون، لاتكن بالغ القسوة علي، انا أعرف انني لم اوفق في حياتي، لكن دعها ان تمنحني فرصة واحدة، سأنجح حتما، فرصة واحدة فقط هذا كل ما اطلبه

- يالك من ضعيف قال له الخال

- عندئذ قفز فان كوخ ومد ذراعه الى الشمعدان المشتعل على المنضدة وبسط يده على اللهب المتقد وقال للخال: سأريك كيف انني لست ضعيفا، هذه يدي لن ارفعها عن اللهب حتى أرى كاي

- ما العمل قال له الخال الى متى سيدوم هذا البؤس ؟

يكتب ايرفنج ستون في كتابه الممتع عن حياة فان كوخ: «لم يكن يعتريه شك انه طوال السنوات السبع التي اعقبت فقده اورسولا يعيش في وحدة لاتطاق، بل انه طوال حياته لم يسمع أمراة تقول له كلمة ملاطفة واحدة او تنظر اليه بعينين غائمتين بالعاطفة الرقيقة، لا أمراة احبته يوما، ولم تكن حياته حياة، وانما موت، ولم يكن حاله سيئا عندما احب اورسولا، فانذاك كان مراهقا، أما الآن فان حبه لكاي يريد به ان يسد جوعا الى العاطفة»



الحب على طريقة بلزاك

كان فان كوخ انذاك يقرا بلزاك واغرم بروايت الكبيرة «الاب غوريو»، وسحرته عبارة في الرواية تقول: «ينبغي لك، لكي تصبح رجلا ان تحب



امـراة». قال له والـده يوماً ان: «الخطأ كله هو خطأ هذه الكتب الفرنسـية التـي تقراها، وعندها تواظب على مصاحبة المجانين، فكيف لانسـان ان ينتظر منك تصرف الابن العاقل» .

- وهل تسمي فكتور هيجو وبلزاك مجانين قال فان كوخ

- ان كتبهم مليئة بالشر، وهي التي دمرتك

كان فـان كـوخ يضع روايـة الاب غوريو بالقرب من رأسـه وقال يوما لابيـه: «هنـاك طريقة واحـدة لاقناعك وحسـبك ان تقرأ صفحـات قليلة وسوف تعرف الحقيقة

قال الاب وهو يصرخ غضبا: لست في حاجة الى قراءته، لقد كان لي اخ عظيم، ابتلى بقراءة الكتب الفرنسية، فقادته الى الجنون.

لـم يكـن فـان كـوخ مغرمـاً بجمـال كاي فقـط، وانمـا بوجودهـا وخصائصها، بمشيتها، وهو الآن يريدها وقد احس ان حب كاي سيجعل منه شخصاً مختلفاً، ولهذا لم يتوقف عن كتابة الرسائل العاطفية لها حتى بعد ان طرده ابيها، وفي نفس الوقت يكتب رسـائل شـبه يومية الى شقيقه ثيو، موضع سـره، الذي كتب اليه يحاول ان يهدئه: «انها مسـالة ميؤوس منها تماما يا فنيست، ان العم ستريكر يقول انه حتى على افتراض ان كاي تحبك، فهو لن يوافق على الزواج ما لم يكن دخلك السنوي ألف فرنك، وانت تعلم ان هذا الأمر مسـتحيل الآن» ويكتب الى ماثيو يرجوه ان يقرأ ما كتبه بلزاك في الاب غوريو وكيف ان الحب سينتصر في النهاية.

كان بلـزاك وهو يكتب الاب غوريـو يعيش قصة حب عنيفة، ظن فيها بلـزاك انه انتصـر اخيراً، بعد سلسـلة من قصص الحب الفاشـلة، وابتهج لذلـك وطلـب مـن محبوبتـه إيفليـن هانسـكا ان يتزوجـا، لكنهـا كانت لاتحـب ان يجبرها احـد على شـيء. كتبت اليه انها عزمت على السـفر، وانه سـتتزوجه حالما تعود، لكنها فضلت عليه رساماً مغمورا وفي رسالة كتبتها له انها لاتريد ان تجعل منه انسان شقي بسبب ارتباطه بها.

فـي رواية بلزاك الأب غوريو نلتقي للمرة الاولى بشـخصيية فورترين الشـاب الـذي يتمتع بذهن صـاف وإرادة قويـة وحيوية، انه مـرح وكريم



وقـوي البنية واثق من نفسـه، كان يسـحر النسـاء من اول نظـرة، ويكتب هارولـد بلـوم فـي مقالتـه كيـف نقـرأ بلـزاك ؟، ان فورترين هـو الصورة المتخيلـة لبلـزاك «الذي كان يطارد النسـاء ويحاول الايقـاع بهن»، وهي الشـخصية نفسـها التي سـحرت فـان كـوخ فكتب الـى اخيه ماثيـو: «انا مجنـون حباً، لا لانني اسـحر النسـاء مثل ابطال بلزاك، بـل لانني اريد ان اجعـل من صورتـي صورتين، صورة احمق في نظر نفسـي، وسـاحر في نظر الاخرين».

****

لقاء عاصف مع غوغان

في العام ١٨٨٨ يلتقي في احد مقاهي باريس بالرسـام «بول غوغان» ليرتبطا بصداقة ويعيشاً سوياً في مرسم غوغان، كان مرسما رثاً على احد الأسـطح ولـم يكن به من الاثاث سـوى سـرير نحاسـي ومنضدة ومقعد وحامل لوحات

وقال غوغان لفان كوخ: «انني اقتنع بالقليل من المادة تكفي لارضاء مطالب جسـدي، امـا روحي فلا يقيدها قيد»، واخرج من تحت السـرير عـدداً مـن لوحاته ليعرضها امـام فان كـوخ الذي وقف مشـدوها يتطلع اليهـا وقد تملكتـه الحيرة، فقد رأى خليطاً مـن المناظر الغارقة في ضياء الشـمس المتوهجـة واشـجار وحيوانات ورجـال لايمكـن ان يخلقهم سـوى رسـام عبقري وتمم فان كوخ: «انك ياغوغـان تكره الموجودات من كل قلبك».

مضـى فـان كوخ فـي صحبـة غوغان يرسـم فـي اندفاع وفـي خلال العشـرين اسـبوعاً رسـم ما يزيد على مئتـي لوحة عرض بعـض منها في محال اللوحات الى جانب اعمال مونيه، لكنها لـم تسـتهوي عشاق الفن التشكيلي.

وذات يـوم قال لاخيه ثيو: «انني لسـت رسـام مدينة بل رسـام طبيعة



واريـد ان اعـود الى الحقول اود ان اجد شمسـا ملتهبة تحـرق كل ما فيّ سـوى الرغبة فـي الحب» وفي صباح احد الايام وجـد ثيو خطابا صغيرا على المنضدة يقول فيه: «عزيزي ثيو لقد رحلت الى آرال وساكتب اليك بمجرد وصولي الى هناك..اخوك الذي لاينسى فضائلك فينست».

****

الحب يطارده في كل مكان

بعد أشـهر من اقامته في آرال، ارسل الى غوغان للاقامه معه في بيته، كان الرسـام الفرنسي قد خرج من السـجن محطماً مريضا مفلسا، وصل غوغـان الـى آرال عـام ١٨٨٨ ، وهيأ فان كـوخ لصديقه اسـباب الراحة، ولكن ما ان حل غوغان حتى بدات المناوشات الحامية بينهما، في البداية كانـت تدور حول الفـن، وكان غوغان ينتقد اعمال فان كوخ ويحاول ان يقلل من قيمتها، ثم راحت هذه المناقشـات تدور حول النسـاء، في تلك السنة كان فان كوخ قد تعرف على راشيل في احد الملاهي، والتي كانت السبب في ان يستيقظ غوغان في الثالث والعشرين من كانون الاول عام ١٨٨٨ ، ليجد فان كوخ يحمل سكينا، كانت المشادات تكثر فيما بينهما، لكن لـم يتوقع ان يصل الامر الى اسـتخدام السلاح، وعندما كان غوغان يتهيـا لصـد ضربة فان كوخ، تحول مسـار السـكين ليقطع بهـا فان كوخ شـحمة اذنـه اليمنى، كان الاثنـان قد دخلا قبل يوم فـي نقاش حاد حول راشـيل، وهـل هي تحب فان كـوخ حقا، ولـم يكن امامه سـوى ان يقطع اذنه ليقدمها هدية لها، والتي ما ان راتها حتى فقدت وعيها.

بعد حادثة شحمة الأذن المروعة تم إدخال فنسنت فان كوخ لمصحة عقلية في ولاية سـان ريمي. وخلال اقامتـه في المصح، أنتج كمية كبيرة من اللوحات من ضمنها لوحته الشهيرة «ليلة مضيئة بالنجوم».

في السـابع والعشـرين من تموز عام ١٨٩٠ ، خرج فينسنت فان كوخ إلى حقلٍ للقمح، خلف بيت ريفي ضخم، في قرية أوفير شيرواز الفرنسية



الواقعة شـمال باريس، وهنـاك؛ أطلق النار على صـدره، وذلك بعد ١٨ شـهراً من معاناته من اضطرابات نفسـية وعقلية، كان ينتابه شعورٌ متزايد بالوحدة والقلق، وبات على قناعة بأن حياته ليسـت سـوى فشـل. ذات يـوم نجح في الحصول على مسـدس صغير الحجـم، يعود إلى صاحب المنـزل الـذي كان يقيم فيه. وكان هو المسـدس الذي أخـذه معه حينما توجـه إلى الحقول، غير أنه لم يكن سـوى مسـدس جيبٍ صغير الحجم للغاية، ذي قوة نيرانية محدودة، ولذا فعندما ضغط فان كوخ على الزناد، انطلقت رصاصة سـرعان ما ارتدت إثر اصطدامها بأحد ضلوعه دون أن تخترق قلبه. رغم ذلك، فقد فان كوخ الوعي وانهار على الأرض.

وعندما حل المسـاء، عاد أدراجه وبحث عن المسدس ثانية للإجهاز على نفسـه، وبعدما فشل في العثور عليه، عاد مترنحاً إلى الملهى يبحث عن راشـيل، هناك تم اسـتدعاء طبيب لفحصه، كما استُدعيّ شقيقه ثيو، الذي الذي وصل في اليوم التالي.

كان ثيو يتوقع إن شقيقه سيسترد قواه. لكن في النهاية لم يتسن له فعل شيء، ليموت فان كوخ متاثرا بجراحه.

ويكتـب شـقيقه تفاصيل اللحظـات الأخيرة فـي عمر شـقيقه قائلا: «ظللت إلى جواره حتى انتهى كل شـيء. كان مـن بين أخر ما قاله «هذه هي النهاية التي اردت ان امضي اليها».



-٦-

من أين تأتي شرارة الحب الملتهبة؟

كان على فراش موته في بيته الريفي قرب باريس في الرابع من ايلول عام ١٨٨٣، حين تذكر ما قاله له ذات يوم ليف تولستوي: «هل عشت حياة تعيسة ام سعيدة؟». لا تناقض بين التعاسة والسعادة بالنسبة اليه، لكن ايفان تورغنيف تساءل في تلك اللحظة القصوى ما إذا كان في حياته إنسان سعيد. الآن هو يشرف على الموت ويقول إنه كان سعيداً جداً.

يتذكر انه قبل ثلاث سنوات نزل ضيفا على تولستوي، وبينما كان يجلس لتناول طعام العشاء معه، سأله تولستوي: لِمَ لم تكتب شيئا منذ زمن طويل، في تلك اللحظة أدار تورغنيف وجهه وهو يقول: «حسناً سأخبرك، انا ما صرفت بالي إلى كتابة شي، إلا وكانت حمى الحب تهزني!، كانت لي قصة غرام منذ أيام، هل تصدق اني وجدتها مملة» فصاح تولستوي: «وآه ليتني كنت كذلك».

تذكر انه في شبابه كتب مسرحية «شهر في الريف» وفيها نجد البطل بيلياف وهو شاب يتخيل الحب سعادة عظيمة فيجيبه راكيتين وهو رجل في الثلاثين

راكيتين: «أدام الله عليك هذا الاعتقاد السار، انني أومن يا ألكس نيكولاتيش بان الحب بكل انواعه، سعيد كان او غير سعيد، هو مصيبة كبرى، إذا استسلمت له استسلاماً تاماً. .انتظر قليلا ستعرف اي كراهية مشتعلة تكمن تحت أشد الغرام! ستذكرني عندما تحن الى السلام، أشد



ما يكون السلام ركودا وتفاهة، كما يحن الرجل المريض إلى الصحة، عندما تحسد كل رجل حر خالي القلب».

لكنه بعد هذه المسرحية بثلاثة أعوام، قادته قدماه الى دار الاوبرا الإيطالية في باريس، ليشاهد مسرحية غادة الكاميليا، في صحبة صديقه الأديب الفرنسي الشهير «الفونس دوديه»، كان قد قرأ منذ سنوات رواية دوماس الابن «غادة الكاميليا»، وقد التقى المؤلف يوما في بيت غوستاف فلوبير، فحدثه عن بطلة روايته الفتاة مرغريت غوتييه، التي كانت تأمل أن يعطيها الحب طهراً تتوق إليه. وكانت في منامها تتخيل أن الحب يدوم إلى الأبد، لكنها لم تتصور انها ستضحي في النهاية بنفسها وبحبها من أجل سعادة وسمعة ومستقبل محبوبها الشاب الغني «آرمان».

أعاد تورغنيف في ذهنه أحداث رواية دوماس الشهيرة، قبل ان تفتح ستارة المسرح، ثم بدأت الموسيقى تعزف وما هي لحظات حتى ظهرت على المسرح بولين فياردو، كانت في الثلاثين من عمرها، فتاة خارقة الجمال، قلما يستطيع رواد المسرح مقاومة فتنتها الساحرة، كان وجهها جذاباً، أما عيناها فتلمعان بنظرات لاسعة كالسياط.

سيكتب تورغنيف عن تلك الليلة في يومياته: «رأيت بولين على المسرح لأول مرة، أجمل وأروع امرأة في الوجود، أحسب أنني لن أنظر إلى أي امرأة بعدها».

ظل تورغنيف محتلاً مقعده الأمامي في دار الأوبرا، حتى بعد ان اطفأت انوار المسرح وغادر المتفرجون، كان ماخوذاً، انتبه الفونس دوديه لصديقه الروسي، فوجده صامتا وكأنه مسحور: «كنا نجلس في قاعة الاوبرا وكان صوت مغنية الاوبرا بولين يتردد في اجواء المسرح ووجدتني التفت الى تورغنيف فأجده ساهما فقلت له

- وانت ياتورغنيف ماذا تقول عن هذه الاوبرا؟

- انا لا أفكر في موضوع غادة الكاميليا..ان احداث الرواية تترأى لي من بعيد ملفوفة بظلال بولين وهي تسحر كل من نظر اليها».



وحين طلب منه الفونس ان يذهبا للسلام على بولين والإشادة بادائها، رفض الاقتراب منها، وقرر ان يعود الى غرفته في الفندق ليكتب السطور الاولى من روايته «الحب الاول»:

- هناك على بُعد خطوات من موقفي، عند منفسح بين شجيرات توت أخضر، كانت تقف فتاة سامقة القدّ، رشيقة اللفتة، في فستان وردي مخطط، ومنديل أبيض على رأسها... وكنت أنظر إليها من جانب، وأراها تنطوي على قدر من الجلال والحنوّ والجاذبية، وعلى شيء من السلطان والسخرية، أكاد فيه أصرخ من الإعجاب والرضى، كنت على استعداد لأنْ أُعطيها العالم.. انزلق سلاحي على العشب، وأنا ذاهل عن كل شيء، سوى النظر إلى هذا القوام الأهيف، وهذا الخصر الهضيم، وهذا العنق المستقيم، وهاتين الذراعين الجميلتين، وهذا الشعر الأشقر، تطل ذوائبه من ثنيات منديلها الأبيض، وهاتين العينين الذكيتين الناعستين، تظللهما رموشها الوطف، وهذا الخد الأسيل تحت تلك الرموش الطويلة.. أيها الشاب. ارتفع صوتٌ على قُربي. أَمِن المباح أن تُحملق على هذا النحو في فتيات لم تتعرف إليهن؟ فانتفضت بالمفاجأة، ولم أحر جوابًا. كان ثمة رجل ذو شعر أسود قصير، يقف قريبًا مني وراء السياج، ويرمقني بنظرة ساخرة، وتلفتت الفتاة في اللحظة ذاتها نحوي، فرأيت العينين الرماديتين الكبيرتين في وجهها الطلق الممراح، وترتعش قسمات هذا الوجه فجأة بالضحك، فتتلألأ أسنانها البيضاء، ويرف حاجباها. فاحمررتُ وأخذت سلاحي من الأرض، وانطلقت إلى غرفتي، تصخب ورائي ضحكات كثيرة، ولكنها بريئة من السوء. ارتميت على السرير مُخفيًا وجهي بكفيَّ، وقلبي في صدري، وشعور بالخجل والمرح في آن يملأ نفسي، وانفعالاتٌ ما عهدتُ مثلها من قبل تضطرب في أعماقي».

بعد أيام زاره صديقه الفونس دوديه ليخبره انهم سيزورون الممثلة بولين:- دع عنك ياعزيزي هذا الحياء مادمت معجب بها كل هذا الاعجاب، لماذا لا تذهب اليها وتبدي لها أعجابك؟



قال تورغنيف مترددا: يا عزيزي الفونس لقد خُلقت شـديد الخجل، ولا أستطيع ان أقدِم على مثل هذه الخطوة.

- هل تحب أن ادعوها لبيتي لتتعرف عليها جيدا؟
- كيف، قال تورغنيف بحيرة؟
- أقيم حفلاً على شرفها أدعو إليه عددا من الفنانين والكُتاب.
- كيف أتمكن في حفل كهذا أن أظهر لها مدى اعجابي؟
- هي قرأت لك بعض القصص، وقالت انها أثرت فيها كثيراً.

كانـت بوليـن متزوجـة من مديـر دار الاوبـرا، وكانت تحـب زوجها وتحترمـه، ولهذا أدرك تورغنيف منذ البداية ان حبه لهذه الفاتنة سـيبقى عقيمـاً، لا أمـل فيه، لكنه أصر ان يمضي في حبه لها حتى، وإن لم يخرج هذا العشق عن حدود العاطفة البريئة.

قـرر تورغنيف ان تكون باريس موطنـه، مادامت هي موطن محبوبته بولين، فانتهى به الأمر ان اشترى بيتا قريبا من منزل اسرة فيياردو ليتمكن من تتبع خطى محبوبته.

بعـد اسـابيع يلتقـي تورغنيـف ببولين وجهـاً لوجه فتفاجئـه بالقول: قـرأت بعض قصصك، إن عاطفتك فيما كتبت عاطفة نبيلة بدون شـك، لكـن اتمنـى أن يداعبك الأمل في ان أصبح واحـدة من ابطال قصصك. إنني سيدة متزوجة، وفوق كل شيء فأنا أحب زوجي.

وبعد يومين ارسلت له بيد الفونس دوديه، رسالة ترجوه فيها ان يقبل دعوتها للعشـاء فـي بيتها، وكانت الدعـوة مختومة باسـم زوجها لويس فياردو. وبعـد العشـاء قالت له بوليـن وهي تقدم له النبيـذ: بعد أن قرأت قصتـك الاخيرة «المغنيـان» أعتقد أنك صرت كاتبي المفضل، لاسـيما أننـي عكفت علـى قراءة معظـم قصصك، ثـم نظرت اليـه وهي تلاحظ احمرار وجهه واضافت: لكن عليك ان لاتفرح كثيرا، فهذا لا يعني أنني أحبك يا عزيزي تورغنيف.

- من غير المجدي أن أقول لك إني أحبك أكثر من نفسي



- لماذا لا تعتبرني صديقة لك؟
- ماذا افعل بروح الفنان التي تجدك أهم امرأة مرّت في حياته.
- أنت يا عزيزي تورغنيف شديد العاطفة.

****

الحب في وقت لا تتوقعه

بعد هذا اللقاء يجلس تورغنيف ليكمل روايته الحب الاول يكتب: «كانت بكل وضوح حالة حب من النظرة الاولى، فهاهي تسبح نحو القادم الجديد تلاطفه، تدفعها مشاعر رقيقة».

سيقدح زناد الحب في وقت لاتتوقعه، هكذا قال له صديقه غوستاف فلوبير الذي يصف بولين بانها كانت تبدو مثل تمثال من الخزف الصيني وقد احتفظ وجهها الفاتن بنظرة العذراء المروعة، كانت بولين تهز مشاعر الرجال بصراحتها وباندفاعاتها وبذوقها وبقوة شخصيتها، وفوق ذلك بسحرها وهي تمثل على المسرح.

يكتب غي دي موباسان: «ثلاثين عاما من الحب كانت تربط تورغنيف بالسيدة فيادرو الممثلة العظيمة، وقد عاش تورغنيف العازب سنين طويلة في خدمة هذه السيدة حتى انه قرر في الخامس من تشرين الاول عام ١٨٧٤ ان يشتري قصرا كبيراً يجعل الطابق الارضي سكناً لعائلة فيادور التي ارتبط معها برباط لم ينته حتى اللحظة الاخيرة من حياته».

يصف موبسان تورغنيف بانه طويل القامة، ضخم الرأس، منتفخ الشفتين، يرتدي أفخر الثياب ويتوكأ على عصا، واذا نظرت في وجهه المهيب بلحيته ونظارته وقبعته المستديرة، حسبته قاضياً، لكنه كان لا يرى إلا في احدى المسارح، لايجلس الا في الصفوف الامامية، طوال الوقت عيناه تترصد حركة الممثلين على المسرح، لايكف عن القلق حتى تظهر بولين على المسرح.. ولد العام ١٨١٨ في منطقة الاورال



وسط روسيا. وقد درس في جامعات موسكو وسان بطرسبورغ. وبدأ حياته الأدبية بنشر الأشعار في العام ١٨٣٨، ثم توجه ليكمل دراسته في برلين، قد فقد ابوه عندما كان في السادسة عشرة من العمر، وكان أبوه شخصا أنيقا لكنه مسلوب الإرادة امام النساء، أما والدته فقد كانت امرأة ثرية لكنها مزاجية، وكان تورغنيف أحب إخوته إلى أمه، ولكنه كان متأرجحاً بين الحقيقة والخيال، ووظل متعثراً في حياته الواقعية طوال عمره بالرغم انه نال نجاحا في الأجواء الرومانسية.

****

الآباء والبنون

حين كتب تورغنيف «الحب الأول» كان في الثانية والأربعين من عمره كما كان في قمة غرامه للممثلة بولين، وايضا في قمة مجده الادبي، فقد كان أول كاتب روسي كبير يعرف المجد في الغرب خلال حياته.

والحب الاول تروى من خلال بطلها الشاب فلاديمير بتروفتش مسترجعاً شريط حياته: «كنت وقتها في السادسة عشرة وقد حدث ذلك في صيف ١٨٣٣، كنت اعيش مع أبوي وقد استاجرا منزلاً ريفيا لقضاء الصيف، وكنت استعد لدخول الجامعة ولكنني لم اكن أعمل كثيرا، ولم اكن استعجل شيئا، ولم يتدخل أحد في حريتي»، ويروي لنا الفتى بتروفيش قصة غرامه للفاتنة زينايدي.: «وهذه الفتاة الحسناء كانت في ذلك الحين أجمل بنات المنطقة... وكانت مدركة كم تملك من جمال وفتنة. لذلك راحت تجمع من حولها المعجبين والعشاق، تذلّهم، رافعة اياهم خافضة اياهم على هواها، ومن دون ان يرف لها جفن. فهي، في نهاية الأمر، لعوب ماكرة... هوايتها ان يجتمع المعجبون في دارها يبثون لها أشواقهم وحبّهم، ثم تسخر هي منهم بجعلهم يقترفون الحماقات المضحكة ما يسري عنها. و بتروفتش الشاب لا يكون استثناء بالنسبة اليها. فهو ما إن يقع في هواها، حتى ينضم الى فرقة المتحلقين من حولها



صاغـراً راضياً» وإن كان تورغنيف يؤكد لنا ان حب هذا الشـاب صادق، علـى عكـس حـب الآخرين الـذي هـو مزيج مـن الإشـتهاء والإعجاب والرغبة في الامتلاك.

وفـي مشـهد من أشـد مناظـر تورغنيف اثـارة للعطـف نقـرأ: واخيراً سالتني زينايدا: تحبني كثيرا؟ أليس كذلك

فام أجب، وهل كانت ثمة حاجة إلى جواب

فـرددت وهـي تنظر إليَ كما كانـت تنظر من قبل أجـل ومضت تقول «نفس العينين وغرقت في التفكير، وأخفت وجهها بين يديها وهمسـت: كل شـيء صـار كريهـاً إلى نفسـي. ليتني ذهبت إلـى آخر الدنيـا، قبل ان يحدث ذلك، انني لا أسـتطيع احتماله، لا اسـتطيع التغلب عليه، رباه اني تعيسة، رباه كم انا تعيسة و تطلب منه ان يقرأ لها شعرا، وضغطت زينايدا علـى يدي، فالتقـت عيناي وعيناهـا، وأحمر وجهها قليـلا، رأيت حمرة الخجـل في وجهها، فشـعرت ببـرودة الفزع، لقد جربـت الغيرة من قبل، لكـن فكرة انها تحب شـخصا آخر لم تخطر على بالـي إلا تلك اللحظة، رباه إنها تحب».

وكان الحـب هـذه المرة من حيث لم يكن ليتوقع أبـداً: من لدن أبيه. فالأب رجل وسـيم ذو شخصية استثنائية، كما يصفه تورغنيف لا يمكن أي امـرأة ان تقاوم إغـواءه. وإذ تلتقي زينايدي بوالـد بتروفيش تقع على الفور في غرامه، وتكتشف انه لا يمكن ان يكون مثل الآخرين ألعوبة بين يديها. وسـرعان ما يكتشـف الابن بتروفيش العلاقة التي تجمع بين أبيه ومحبوبته، ويعرف ان الاثنان قد هاما ببعضهما: «بدأت أراقب وأصخت السـمع كان والدي يصر على أمر ما وزينايدا تمانعه، لكأني أرى وجهها حزينا، جادا، جميلا، عليه سـيماء لايمكن وصفها من التفاني، والأسى، والحـب، ونوع مـن القنوط، وكانـت تنطق بكلمـات أحاديـة المقاطع، دون أن ترفـع عينيهـا، إلا انهـا كانت تبتسـم في خضـوع، ولكن دون ان تسـتجيب. بتلك البسمة وحدها كنت استطيع ان اعرف زينايدا القديمة، وهـز ابي كتفيه، وأحكم وضع قبعته على رأسـه»، بعد هذا المشـهد يقع



الفتى بتروفيش صريع المرض واليأس، فقد اكتشف الحقيقة المؤلمة، ويعود الى البيت وقد خيّل اليه انه ميت لا محالة لفرط ما به من جنون الحب وألم الخيبة.

لكن سرعان ما تمضي الايام، ويشفى بتروفيش من مرض الحب، ويعود ليلتقي بأصحابه. ونكتشف معه ان حكاية «الحب الأول» قد مضت بأقل قدر ممكن من الخسائر، ولكن بالنسبة اليه لا بالنسبة الى العاشقين. ذلك انه إذ تنتهي حكاية بتروفيش على تلك الشاكلة، يكون مصير الأب وزينايدا مأسوياً، إذ سرعان ما يقضي الأب صريع مرض مميت، تاركاً لابنه رسالة ينصحه فيها بألا يقع في الغرام أبداً. ويصف لنا تورغنيف مشهد اللقاء الاخير، أما زينايدا التي كانت في تلك الأثناء قد تزوجت، فإنها بدورها تموت وهي تضع طفلها الأول... وهكذا فقط تنتهي الحكاية، بهذا الشكل المأسوي.

****

ماذا قال تولستوي؟

عندما حمل تورغنيف مسودات «الحب الاول» الى تولستوي ليقرأها، قال له بعد ايام: «ليس ثمة قصة اكثر امتلاء بالعواطف منها» ويضيف تولستوي انها رواية حب تكشف عن الطبيعة البشرية وغرائزها لقد بكيت وانا أقرأ السطور الاخيرة: «اذكر انني بعد ايام من سماعي نبأ موت زينايدا، دفعني شعور غريب لا يقاوم إلى عيادة عجوز مسكينة مشرفة على الموت، كانت تعيش في البناية التي نسكن فيها..كانت تقاسي من احتضارها مر العذاب. لقد تصرمت حياتها جميعا في صراع شديد من اجل القوت، فما رأت قبسا من السعادة، ولا تذوقت قطرة من عسل الحظ، وأذكر انني شعرت انذاك، عند فراش العجوز المحتضرة، بالجزع من اجل زينايدا، وتمنيت ان أصلي لها، ولابي، ولنفسي».

ويخبره تولستوي انه وجد في الرواية تحليل لشخصية المرأة



واستحضار لرائحتها وملمسها وحضورها، وكونها هي إياها، وبرغم رأي تولستوي في الحب الاول إلا انها اعتبرت أكثر روايات تورغنيف سوداوية. إذ فيها نرى الحب في جانبه الأكثر مأسوية، يصوره الكاتب بصفته مرضاً لا أكثر، وفوضى تضرب البشر بطرق مختلفة، وعليهم تفاديها بأي حال من الأحوال. وذلك ما تقوله على أي حال رسالة الوالد الى الى ابنه بتروفيش، وهي رسالة من الواضح ان تورغنيف شديد التعاطف معها.: «اقول لك ايها الشاب، انك طليق لا تبالي بشيء، فكأنك تملك كنوز الدنيا، بل حتى الاحزان تزدهيك وتليق بوجهك، انك تقول وانت واثق بنفسك معتد بها: انظروا إلي فأنا فقط من يعيش، على حين تمضي أيامك ثم تتلاشى، فلا أثر ولا ثمر ويختفي كل مافيك كما الشمع في وهج الشمس، وكما الثلج»

وتورغنيف في الحب الاول يدرس مثل طبيب نفسي مرض الحب بتفاصيله السيكولوجية. وهذا ما خفف من شأن الصراع بين الحب والرفض، وهو صراع تركه تورغنيف في عهدة روايته الاخرى «ليزا» التي تروي لنا قصة الفتاة الجميلة «ليزا» وهي تعيش بانتظار العاشق الذي يملأ حياتها، وحين يبدأ الرجال يظهرون في حياتها، واحد بعد الآخر، نجدها تتعلق بالشاب انساروف صاحب الوجه الشاحب والكلمات القليلة الحاسمة والكبرياء التي تختلط بالحزن والاسى، لقد احبته، ويوما بعد آخر كانت حرارة الحب ترتفع وتزداد حتى ملأت حياتها واصبح كل شيء فيها ملكا لهذا الشاب لكنه يطلب منها ان تتركه وتجد رجلا مناسبا: «ياحبيبتي انا رجل فقير جدا ولا املك شيئا وصحتي منهارة، ومستقبلي مهدد، لانني مصمم ان اشارك في الثورة، فماذا يمكنني ان أقدم اليك، انني لن اتنازل عن واجبي تجاه بلدي، ولن اتردد في القاء نفسي في نار المعركة الحاسمة من اجل الحرية.لكنها تقرر ان لاتتركه واتفقا على السفر معا وتركت ليزا اسرتها، لقد اختارت حبها واندفعت الى مصيرها المجهول مع الحبيب الثائر، إلا أن المرض يتغلب عليه ويموت بالسل، فتقرر ليزا مواصلة مسيرته وتكتب رسالة



الـى اهلهـا انها لن تعود، وانها سـتواصل عمل «أنسـاروف» الى النهاية، فهذه هي الطريقة الوحيدة لكي يعيش حبها الى الأبد.

****

اللحظات الأخيرة

عاش تورغنيف معظم حياته صديقاً لعائلة فيادرو، ولـم يفارق المراة التـي احبها، وقال لغوسـتاف فلوبير: «لو خيرت بيـن ان آمرين ان اصبح اعظم عبقري في العالم، شرط ان احرم من رؤية بولين، او ان اصبح بوابا امـام بيتها في بقعة نائية من اطـراف العالم، لأثرت ان اكون بوابا على ان اكون عبقريا».

وكتب مرة لبولين: «في استطاعتي ان اؤكد لك ان العاطفة التي اشعر بهـا نحـوك، عاطفة لـم يعرفها العالم الى الان، ولـم يشـعر احـد بمثلها» وكان المقربون منه يسخرون من حبه الصامت وكان هو يسخر من الذين لايعرفون معنى الحب الصادق: «الاتفهمون ان للحب مقراً في النفوس، ومقـراً آخر في الجسـد، وحين يلتقيا لايسـتطيع احد ان يفـرق بينهما».، وبسـبب هذا الحب الافلاطوني، أمتنع تورغنيف عن الزواج قائلا لاخيه الاصغـر انه يؤثر على الـزواج والابناء والعائلة حبـه الروحي واخلاصه لمدام فياردو.

وعندمـا اوشـك على الموت، قـال لاحد المقربين منـه: «ان الموت يريد ان يسـطو على كل شـيء جميل في حياتي، انه يريد ان ياخذني من بولين»

وفي لحظات احتظاره دخلت عليه بولين الى الغرفة، فنظر اليها نظرة أخيرة ورفع راسـه وارتسـمت على فمه ابتسـامة الرضا والارتياح وتمتم قائلاً: «هذه ملكتي تلقي النظرة الاخيرة على احد رعاياها، ما اكثر الخير الذي صنعتِه في هذا العالم»، احتضنته بولين ولـم يسـتطع احد ان يقنعها



بـان تتركه لانها لم تكن تصدق ان الرجل الذي اخلص لها طوال اربعين عاما، وكان مثل ظلها، سيرحل ويتركها وحيدة، وما ان ذهبت الى البيت حتى دخلت غرفتها ولم تخرج منها ابدا، ورفضت لقاء اي شخص حتى زوجهـا، وبعد اشـهر تم نقلها ألى المستشـفى حيث اكتشـف الاطباء ان وفاتها كانت بسبب تناولها نوعا من السم البطيء.




مكتبة
الفكر الجديد

-٧-

صباح الخير أيها الحب، حتى ولو كنت وهماً

في صيف عام ١٩٥٣ أخبرت عائلتها انها تريد السفر الى باريس، فالحياة في الريف تشعرها بالضجر، كانت قد فشلت في امتحان البكلوريا، قالت لها امها ان قراءة الشعر والرواية ستجعل منك فتاة بلهاء، كتبت ذات يوم في دفترها المدرسي: «انا لا انتمي الى هذا العالم المتزمت بالمرة، لا احب ان اكون ابنة عائلة غنية، لكنني أتوق بشدة الى زمن أستطيع فيه ان اجرؤ على العيش في وفاق مع نفسي ومع مشاعري وبالتالي مع الحياة».

كانت قد قرأت مثل هذه العبارة في اعترافات جان جاك روسو التي حذرها والدها التاجر الكبير من الاستمرار في مطالعة مثل هذه الترهات التي لاتليق بفتاة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها، كان الاب قد لاحظ منذ مدة ان ابنته قد تغيرت كثيرا في الايام الاخيرة، تبدو مشتتة الذهن دائما، تغلق عليها باب غرفتها كثيرا وهي تقول: «انني بحاجة للوحدة»، انه الغرام هذا ما قاله الاب الذي قرر ان يحقق رغبة ابنته ويأخذها الى باريس، فقد كان يأمل ان تمضي اوقاتا ممتعة في صالات الرقص، وتذهب بصحبته الى المسارح، او تلتقي بصديقاتها.

في باريس التي وصلتها فرانسو ساغان يوم السابع من حزيران عام ١٩٥٣ ذهبت مباشرة الى شارع المكتبات، كانت متلهفة لشراء مؤلفات ستندال واندريه جيد والبحث عن رواية مارسيل بروست، في رف من رفوف احدى المكتبات عثرت على ديوان الشاعر الفرنسي بول إيلوار،



كانـت قد قرأت له من قبل قصائد قليلة، اختطفت الديوان وبدأت تقلب الصفحات لتقرأ بصوت عال:

«وداعا ايها الحزن
صباح الخير ايها الحزن
اتركني ايها الحزن
عد اليَّ ايها الحزن
أنت مكتوب في ثنايا احلامي
أنت مكتوب في عيني الذي احب
أنت لست البؤس الاخير»

كان بول إيلوار المولود عام ١٨٩٥، والذي رحل عن العالم في نهاية عام ١٩٥٢، قد عاش أشـهر اسـطورة حب في القرن العشرين مع حبيبته الروسية غالا، التي أهداها معظم قصائده، وأعترف لها برسالة بانه ما كان ليكتـب ما كتب لولاها: «أنـتِ التي أمليتِ علـيّ كل قصائدي».، وقصة الحب الشـهيرة هـذه قد بدأت عندما تعرف شـاب اسـمه «بـول اوجين غرينـدال» سـيعرف فيمـا بعد بـ«بـول إيلوار» الـى فتاة هـي «ديميتريفنا دياكونوفـا» والتـي سـتحمل اسـم غـالا، كان اللقـاء الاول فـي مصـح للامـراض الصدرية في مدينة كلافاديل الفرنسـية عام ١٩١٢ حيث كانا يتعالجان من اصابة بالسـل، غالا فتاة جميلة في السابعة عشر من عمرها و إيلـوار لـم يتجـاوز الثامنة عشـر، بعد شـفائها من المرض عـادت الى روسـيا، ويذهب إيلوار الى جبهة القتـال، وقبل ان تنتهي الحرب يلتقيان ثانية ليقررا الزواج، وتكتب غالا الى شقيقتها: «لقد وجدت الرجل الذي من طينتي»، وسيظل إيلوار يناديها بزوجتي مدى الدهر، كتب من وحيها معظم قصائـده وعاش في دوامتها، ولـم يقتصر تأثيرها علىٰ شـخصه بل طال معظم انتاجه الشعري، ويعترف لصديقه اراغون من انه لايعتد بكل النقد ما لـم يكن من غالا. يكتب لها: «ان اراك، ان ألمسـك، ان أتاملك، أن أمدحـك، ان اقبلـك، ان اتحـدث إليـك. أن احبك وحـدك، وفي كل



النســاء، لا أرى غيرك، ياصغيرتي غالا أحبـك بلا حد. لا أؤمن بالحياة، لا أؤمن إلا بك.هذا العالـم لا استطيع ان ادخله إلا برفقتك».

كان إيلوار مخلصاً لغالا، يعشـقها حد الجنون. لكن غالا كانت امرأة غريبة الاطوار، تحب إيلوار وتعشقه، لكن خيالاتها أكبر، واستمر حبهما حتـى اخـر لحظة في حياة إيلوار، وقد يبدو غريباً في هذه العلاقة أن نرى غالا ترتبط بعلاقة مع شخص آخر هو الرسام سالفادور دالي الذي ما ان رآها في الســهرة، حتى توقف عن الكلام، يكتب دالي في مذكراته: «كل شــيء ابتدأ من الباب، في أحد الأيام دخلـت الغرفة وكان الباب مفتوحاً ورأيتها، تفجر الحب في داخلي، ومنذ تلك اللحظة قررت أن تكون هذه المرأة لوحدي». وسيظهر هذا الحب في العديد من لوحاته إلى درجة أنه كان يوقع على بعض لوحاته باسمه واسم غالا معاً.

وحيـن تقرر غـالا الانفصال مـن إيلـوار والالتحاق بسـلفادور دالي تكتب الـى إيلوار: يازوجي مدى الدهر، حتى وان خف حبك لي، فانك ستبقى معي الى الابد».

وفـي عـام ١٩٥٢ وقبـل وفاتـه باشـهر يكتب إيلـوار اشـهر قصائده ويهديها الى غالا :

أحبّك

لأجل كل النساء اللواتي لم أعرفهن أحبك

لأجل كل الأزمنة التي لم أعشها أحبك

لأجل رائحة البحر الواسع ومذاق الخبز الساخن

لأجل الثلج الذي يذوب لأجل الزهور الأولى

لأجل الحيوانات الطاهرة التي لا يفزعها الإنسان

أحبك لأجل الحب

لأجل كل النساء اللواتي لم أحبهن قط أحبك

من يجسدني..إن لم تكوني أنت لا أرى نفسي إلا قليلا

بدونك لا أرى شيئا في امتداد الصحراء المقفرة



مابين الأمس واليوم
حيث كل الموتى الذين تخطيتهم يرقدون فوق التبن
لم أقو على ثقب جدار مرآتي
يتحتم عليّ حفظ مفردات الحياة كلمة إثر كلمة
مثلما يلفنا النسيان
لأجل حكمتك التي لا أتحلى بها أحبك
لأجل الصحة
ضد كل ما هو وهم أحبك
لأجل هذا القلب الخالد الذي لا أملكه
تخالين أنك الشك وأنت لست سوى اليقين
أنت الشمس الكبيرة التي تشرق في الرأس
حين أكون واثقاً من نفسي.

****

صباح الخير أيها الحزن

أحضرت آلتها الكاتبة، وقررت ان تكتب شيئا شبيها بقصيدة إيلوار «صباح الخير ايها الحزن» وسألت نفسها ماذا تكتب؟، شعر، انها لاتجيد كتابة القصيدة، وقد اخبرتها المعلمة ذات يوم ان لغتها ركيكة، لكنها قررت كتابة الجملة الاولى: «هذا الشعور المجهول حيث الملل والنعومة فيه تسيطران عليّ، أتراجع عن تسميته، عن إعطائه الإسم الجميل والقاسي ألا وهو الحزن. انه شعور متكامل وأناني الى درجة أنه يشعرني بالخجل، غير أن الحزن يبدو لي مشرفاً. لم أكن أعرفه هو، لكنني عرفت الملل والأسف وبكمية أقل الندم. اليوم، شيء ما تماماً مثل حرير ناعم ومزعج ينطوي عليّ ويجعلني أنفصل عن الآخرين».

في الاخير أقنعت نفسها انها تستطيع كتابة رواية، عن الفتاة المدللة،



التي كانت تستيقظ آخر النهار، تشعر الآن بان هناك اشياء في حياتها يجب ان يعرفها الناس، اغلقت الآلة الكاتبة، وبدأت تكتب بقلم رفيع على احد دفاترها المدرسية، تكتب كل ما كانت تخاف ان تبوح به. تجاربها البسيطة في الحياة، معاناتها مع اب يُغير العشيقات كل شهر، عن الأم التي تهمل ابنائها، الكتابة ستكون بصيغة «الانا» البطلة فتاة مراهقة اسمها سيسيل سيأخذها والدها الى باريس: «لم أُجرب الكثير، هو سيريني باريس، والترف والحياة بجوانبها الضعيفة والجميلة معا» ارادت الفتاة فرانسو ساغان ان تكشف مخزونها للناس: «لقد ادركت ان حياة الناس تشكل احدى الوسائل الضرورية التي توفر امكانية تحقيق الذات، لقد تذوقت المتعة بزج نفسي بين الحشود، اشرب واجلس مع انسان، استرق النظر اليه، وآخذ بيديه خارجة من هذا الحشد البشري، لقد وجدت المتعة، في طعم القبلة».

ستدور احداث الرواية في مقاطعة سانت تروبيز، حيث استأجر والدة الفتاة سيسيل قصراً كبيرا ليقضي فيه عطلة الصيف مع صديقته «الزا »، انها رفيقة مريحة وجذابة ومتحررة، كما اصطحب معه ابنته سيسيل التي تخبرنا انها: «في ذلك الصيف، كنت قد بلغت السابعة عشرة وكنت في غاية السعادة. أما «الآخرون» فكانوا أبي و «الزا»، عشيقته. عليّ أن أشرح وبسرعة هذا الوضع لأنه قد يبدو على شيء من الخطأ للوهلة الأولى. كان والدي في الأربعين، وكان قد ترمّل قبل خمسة عشر عاماً. كان رجلاً شاباً، مليئاً بالحيوية، وبالإحتمالات، ولدى خروجي من المدرسة الداخلية، قبل عامين، لم يكن بإمكاني عدم تفهّم أنه يعيش مع امرأة. لكنني تقبّلت وبصعوبة كبرى فكرة أنه يغيّر عشيقته كل ستة أشهر! لكن سرعان ما تأقلمت مع جاذبيته ومع حياته الجديدة والسهلة. كان رجلاً خفيفاً، صادقاً في أعماله، دائم الفضولية وسريع العطب ويروق كثيراً النساء».

في تلك الاثناء تتعرف سيسيل على الشاب سيريل، وهذه المرة الاولى التي تجد من يهتم بها، لانها كانت تجد الرجال عنيفين ومزهويين



بقوتهم، لكن سيريل شخص مختلف، لقد أثار اعجابها. ولأن الأب عاشق للنساء فقد قرر ان يستضيف مصممة الازياء آنا لارسن، وهي امرأة مختلفة بثقافتها وأناقتها عن النساء اللواتي اعتادت عليهن سيسيل فنراها تبدي اعجاباً شديداً بآن، وسرعان ما تستحوذ «آن »على سيسيل وتقرر ان تجد لها عملا، فهي لم تنجح في امتحان البكالوريا في ذلك العام. و «آن» تنظر بعين ناقدة إلى مغامرات سيسيل مع سيريل، وهو طالب يقضي عطلته في تلك المنطقة. الاب يبدأ بالتخلي رويدا رويدا عن ألزا ويصبح متعلقا بـ «آن». وقرر أن يتزوج منها، ولذلك تتخوف سيسيل من فقدان حريتها لأن حضور هذه المرأة الذكية والهادئة سيزعزع وجودها الى جانب ابيها. لذلك بدأت تعمل، بسبب غيرتها على دفع صديقها سيريل إلى أن يخوض مغامرة غرامية مع ألزا لإثارة مشاعر أبيها. وهذا ما سبب استفزازا كبيرا له بحيث لم يعد يتحمل هذا الاستفزاز. وينزعج كثيرا من مغامرة ألزا مع شاب مراهق أكبر من أبنته قليلا، حيث سرعان ما يعود إلى أحضان حبيبته القديمة. تفاجئهما «آن» عن طريق الصدفة. فتقرر الانتحار لتلقى حتفها في حادث سير. سيسيل وأبوها يعودان إلى حياتهما العادية الهادئة لكن الفتاة المراهقة تكتشف مشاعر جديدة وهي: الحزن. تقول في الرواية: «عندما أكون وحيدة في سريري، في الفجر، مع الصوت الوحيد لصخب السيارات في باريس، تخونني ذكرياتي، ويعود الصيف ومعه جميع ذكرياتي. آن... آن ! أقوم بتكرار هذا الاسم بصوت منخفض مع نفسي في ظلام الليل. شيء ما يصعد في أعماقي وأنا استقبل هذا الاسم مغمضة العينين: «صباح الخير.. أيها الحزن». وعلى الغلاف الأخير للرواية كتب الناشر التعليق التالي «كان في صيف ١٩٥٤. سمعنا لأول مرة الصوت الجاف والسريع لهذه «الطفلة الصغيرة الساحرة». التي ستح، كل ذلك من نسيج خيال فتاة لم تمر بتجارب حياتية من قبل، فتاة اسمها فرانسوا كواريه، عام ١٩٣٥. وكان والدها مهندسا يدير شركة للكهرباء. أمّا والدتها فقد كانت امرأة مرحة، عاشقة للحياة، ومقبلة



علـى ملذّاتها بلا تحفّـظ. لذا لـم تكن تهتـمّ بالشـؤون المنزلية وبتربية أطفالها.

عندمـا انتهـت مـن الروايـة بعـد أسـبوعين تعرضهـا علـى صديقتها فلورنـس ابنـة الكاتب المعـروف اندريه مالرو، وكانت في قرارة نفسـها تجد ان ما كتبته رديء جدا، لكن الصديقة وجدت الرواية ممتعة فتقنعها بان يذهبا الى احدى دور النشـر، لتجـد الفتاة الصغيرة امام صاحب أحد دور النشـر الذي اسـتغرب من وجود فتاة مراهقة امامـه تقول انها كتبت رواية عن الحب، شـرع بالقراءة على امل أن ينتهي منها سـريعا، لكنه ما ان اكمل الجزء الاول حتى صرخ «انها قنبلة »، لكن عندما سـمع والدها بذلك طلب منها ان لا تضع اسـم العائلة على غلاف الرواية، فقررت ان تستعير اسم احدى شـخصيات مارسيل بروست الدوقة ساغان، فكتبت على الغلاف صباح الخير ايها الحزن تاليف فرانسو ساغان

بعد شـهر من صدور الرواية حققت مبيعـات مذهلة، إذ بيعت مليون نسـخة فقـط في الولايـات المتحـدة، وقد فتح ذلـك الابواب لشـهرتها التـي لـم تأفل ابداً. لكنها ملـت من هذا النصر حيث قالـت: «لقد أصبح عندي الكثير من تلك النجاحات الصغيرة ذات الوقع الأبدي». ان البنت الصغيرة التي اختارت اسـماً مسـتعاراً، قد ربحت الرهـان اخيرا.لتصبح الكاتبة الفرنسية الأكثر مبيعاً خلال نصف قرن، ظلت خلاله ترسم الحياة المشـاعرية لبرجوازيـة عاطلة، تبحث عن الشـاعرية الدافئة وعن الحب الذي ضاع وسط هموم الحياة اليومية.

****

حياة عاطفية مضطربة

تعترف فراسـوا سـاغان بانها عاشـت حياة عاطفية مضطربـة وهي تقول فـي حوار صحفـي: «الحب.. مثل المال لابد من صرفـه»، والحب المفرط للحياة تسـبب لها في خيبات عاطفية كثيرة خرجـت منها متألمة مجروحة..



مهزومـة ومع ذلك فهي لم تستسـلم وأصرت على التأكيـد بانها تعلمت» ان تركب الفشـل. لتسـير فوقه في اتجاه السـعادة›› مؤكدة: «انها عاشت الحياة اكثر مما كتبتها» مضيفة «أن العذاب والألم والشقاء لا تعلمنا شيئاً.. ولذلك ارتميت في أحضان الحب.. حتى ولو كان وهماً».

كانـت اول تجاربها في الحب حين ارتبطت بالناشـر غاي شـولار الذي كان يكبرها سـنّا، غير أنه كان يتمتع بجاذبيّة تفتن النسـاء. معه كانت تتعامل كما لو أنه والدها. ثم لم تلبث أن انفصلت عنه لتتزوج من النحّات الأميركي جون غرواي الذي سرعان ما توفي بسبب المرض. ورغـم حياتها المضطربة والمتقلبّـة ظلت فرانسـوا سـاغان تكتب بحمـاس عن نمـوذج الحب الذي تنتظـره: «الحب ياتي كمـا ياتي اللص، ياتي على حيـن غفلة، دون ان يكون لـه اي اثـر في حياتنـا اليومية التي لايجـري عليها أي تعديـل» وتقول لكاتبة سـيرتها: «حين نحب تتجاذبنا الكثير من المشـاعر والاحاسـيس المتناقضة والمختلفة، هذه المشـاعر التي تتغلغل، هي الحـب المعروف للناس، حب يحـاول الواحد من خلاله ان يسـتولي على الآخر، الحـب المعروف للناس يتكـون من الغيرة، ومن الرغبة في التملك، هذا الحب كالحرب تماما يخلق ضحيته، واحد يحب وآخر يتألم».

وتضيف سـاغان: «اما الحـب الذي ادعو اليه فهـو رقة تجعلك تقبل الآخر، رقة هي الثقة لا الاستسلام» وعندما سُألت من اين جاءت بفكرة الحـب هذه، قالت من احلام يقظتي، من حنينـي، من خيالاتي، انا ادرك ان الوصول الى الحب شـيء مسـتحيل، فالحب المطلـق لامكان له في هـذه الحياة، فنحن حين نحب نبدأ بالتسـاؤل: ماذا حـدث لنا، ولماذا ؟ وحين نقترب ممن نحب نتساءل ايضا اين هو ومن يكون ؟

وعندما تجاوزت سنّ الأربعين بدأت فرانسو ساغان تتعب من الحياة المضطربة والعاصفة التي كانت تعيشـها، وأصبحت تنفر من السّـهرات ومـن النـوادي الليليّة. وكانت تقـول لأصدقائها بأنها تفضّـل العودة الى حياة الروايات الرومانسية، الحياة البسيطة المليئة بالحب.

وفي السنوات الأخيرة من حياتها ازدادت متاعبها الصحية والنفسيّة.



والذيـن زاروها وجدوا أنفســهم أمام امرأة محطّمة تسـير بصعوبه وببطأ وتصـر علـى الحديث عـن الحب المفقـود، واتفقت مع ناشـر ان تعطيه كتـاب عن فلسـفة الحب كما تفهمها، وعندما يهبـط الليل كانت تواصل الكلام من دون أن تشعل الضوء. وظلت على هذه الحالة إلى أن توفيت في الرابع والعشـرين من أيلول ٢٠٠٤، تاركة وراءها ديونا بلغت مليون يورو، ومخطوطة كتاب بعنوان «احاديث عن الحب الذي لم اعشه».





-٨-

هناك يا عزيزتي ما هو أفضل من الموت.. أن نموت حباً!!

في آذار عام ١٩١٨ رست سفينة حربية في ميناء بوردو الفرنسي، كان على متنها خليط من الجنود، تطوّع معظمهم للقتال الى جانب فرنسا في حربها ضد المانيا، كانوا من جنسيات مختلفة، بريطانيون واميركان واستراليون والبعض جاء من كندا، وبين هؤلاء الجنود كان هناك فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، قال للضابط وهو يسأله لماذا تطوعت للقتال: أريد ان أمارس اللعب ضد الفريق الالماني الخصم.

كان قد تطوّع للعمل سائق سيارة إسعاف، أمضى ليلته الاولى في الميناء الفرنسي ليجد نفسه في اليوم التالي بالقرب من خنادق المعركة، ولم يمض سوى ثلاثة ايام في عمله حتى انفجرت بالقرب منه قذيفة قتلت وجرحت العديد من الجنود، كان نصيبه منها عشرات الشظايا التي استقرت في ظهره وساقه اليسرى، وقد أصر وهو مصاب ان يحمل احد الجنود الجرحى، مما أدى الى اصابته بوابل من الرصاص استقرت احداها في ركبته.

في المستشفى الذي نقل اليه سائق الاسعاف ارنست ميلر همنغواي أصبح محط اعجاب الجميع، فهذا الفتى الأشقر الوسيم كان دائم الإنشغال بالقراءة والكتابة، لم تفارقه رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد، هذه الرواية بالنسبة اليه تلخص هدفه من الحياة: «الاخلاص المدقق لحقيقة احاسيسنا العاطفية».



ذات يوم اقتربت منه ممرضة شابة سمراء مشرقة الوجه، تعلق بها معظم المرضى، لكنها أغرمت بالفتى الاميركي الأشقر

- ألا تكف عن القراءة ايها الفتى ؟ قالت له وهي تبتسم

- أحب القراءة، هذه العادة أخذتها عن امي التي كانت تحمل معها الكتاب أينما ذهبت، وانا ايضا أدس الكتب في جيبي لأقرأ في أي مكان وفي أي وقت، وأطمح لأن اصبح كاتبا.. لكن يبدو أنني لن اتمكن من ذلك.. بالأمس كتبت مجموعة من الاوراق، مشروع لقصة طويلة اتمنى ان تطلعي عليها.

مد يده الى تحت الوسادة، ثم أخرج رزمة من الورق، وبدا قلقاً كأنما يمر بإمتحان، قال للممرضة الجميلة أنييس فون كوروسكي: أريدك ان تقرأي شيئا، قد يكون مملاً، لقد قرأها أحد الجنود المرضى وقال لي إن شعر جلده انتصب من فرط الأثارة، وآمل ألا يكون الحمق قد بلغ بي حداً اتصور ان كلام هذا الجندي يدل على انني كتبت شيئا جيدا لأن أحداً قد أعجِب بها.

تناولت منه الاوراق وذهبت الى غرفتها اضاءت المصباح، قلّبت الاوراق كان العنوان مكتوباً بالحبر الازرق «حب في الحرب»، كانت حشرات البعوض تتطاير على المصباح وأصوات انين الجرحى تترامى الى سمعها، ولكنها شعرت وهي تقرأ الصفحات الاولى انها تعيش على مقربة من جبهات القتال، وان بطل هذه الحكاية يشبه كثيرا الفتى الوسيم صاحب هذه الاوراق، فالملازم هنري شاب اميركي يقود سيارة اسعاف. وهذه الصفحات المكتوبة بخط دقيق تحكي عن علاقة الحب التي تربطه بالفتاة كاثرين باركلي التي تعمل ممرضة في مستشفى الصليب الأحمر. وتبدأ بينهما علاقة رومانسية.

تتوقف أنييس عن القراءة، قالت لنفسها: هل يعقل ان هذا الاميركي قد احبني فعلا؟، انها تشاهد ملامحها في شخصية بطلة الرواية كاثرين، تنتبه الى صوت يناديها، تترك الأوراق على المكتب تذهب باتجاه



الصوت، كان ارنسست مايزال مستيقظا اقتربت منه وهي تقول: يبدو انك خالي الفكر.. الموت يطاردنا في كل لحظة وانت تكتب قصصاً عن الحب.

يضحك بصوت عال وهو يقول: «لم تسلبني الحرب سعادتي، لقناعتي أن الحياة نفسها تراجيديا ونهايتها واحدة. لكنني ادراك أن بإمكان الإنسان إختلاق شيء ما، والإبداع بما يكفي من المصداقية، كفيل بجعلك سعيداً لدى قراءته، لأعيش سعادة لم أعرف مثلها من قبل. وإزاؤها تغيب معاني التفاصيل».

- أتعرف.. إذا لم نضحك في هذه الأيام الدموية.. سنموت كمداً بدلاً من أن نموت برصاص الألمان..

- هناك يا عزيزتي ما هو أفضل من الموت!!.. أن نموت حباً!!..

- ألم أقُل لك أنك خالي القلب يافتى.

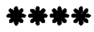
منذ أن دخل المستشفى كانت أنييس كورفيسكي، تهتم به بشكل خاص ويكتب في احدى رسائله لشقيقته الصغرى: أحبها.. وأظنها ستكون حبي الأول والأخير.. سأتزوجها إذا قبلت ذلك.. ولماذا لا تقبل.. وهي معي كل الوقت ؟!.. بل هي كثيراً ما تقضي جزءاً من الليل على مقعدٍ بجوار فراشي!!».

كان عليه ان يجري عملية جراحية ثانية من اجل اخراج ما تبقى من شظايا القنبلة التي اخترقت جسده، ولهذا كان يشعر بالاسى لانه لايستطيع الخروج مع أنييس وكتب ثانية الى شقيقته: سأفاتحها بالامر فأنا لا استطيع العيش من دونها.

وذات صباح يفاجئها بالسؤال: هل تقبلين ان تتزوجيني

- سأتزوجك عندما تنتهي الحرب يا فتى. ولكن يجب أن تعرف انني أكبر منك بتسع سنوات.

- بل أنتِ أجمل وأصغر فتاة شاهدتها في حياتي يا آغي هكذا كان يناديها.





حب وحرب

ما الذي جرى بينهما، لمعرفة الأمر علينا ان نقرأ رواية وداعا للسلاح تلك الرواية التي تعد واحدة من اجمل روايات الحب:

- خبرني هل أحببت في يوم من الايام.

- لا

وسرنا خطوات داخل الحديقة وجلسنا على احد المقاعد وقلت لها

-ان شعرك جميل

- وهل اعجبك

- كثيرا

- لقد كنت على وشك قصة

- ما أظنك تفعلين.. اني أحبك فلا تبعدي عني

- سأظل الى جانبك

ونظرت اليها وكنت أشعر انني لن أحب أحداً غيرها

أنتبه الى أنييس وهي تحدثه: يجب عليك يافتى أن تعطي فارق السن اهتماماً أكبر فأنا في الثامنة والعشرين وأنت في التاسعة عشرة

- سنتزوج حتى لو كان الفرق بين عمرينا مئة عام.

-لكني لست المرأة الكاملة التي تحلم بها.

على ان هذا للحب واجه مشكلة كبيرة فد نُقلت أنييس فجأةً إلى مستشفى فلورنسا، حيث انتشر وباء التيفوئيد، ومن هناك كتبت اليه: «ستتلقى مني الرسائل اكثر مما تستطيع الاجابة عنها ايها الفتى الوسيم، انت بعيد جدا، كل الحنان أرسله مضاعفا اليك مرتين..حبيبتك الى الابد»

بعد أيام يتلقى منها رسالة جديدة تطلب منه ان لايدع احد غيرها يقرا روايته التي يواصل الكتابة فيها.

كان همنغواي قد تفرغ للكتابة: «أنني اعيش خلال كتابتي لهذه الرواية أسعد أوقات حياتي، أعيش في الكتاب وأصنع أحداثه كل يوم. أحاول



ان أشكل الناس والأشياء التي حدثت. في كل يوم أقرأ ما كتبت منذ البداية وحتى اللحظة التي يتوجب عليّ متابعة الكتابة. لكني في حالة معنوية غير جيدة، بسبب غيابك ولا أعرف ما الذي سيحدث لاحقاً».

ظل يكتب إليها كل يوم رسالة.، دون أن ينتظر رداً منها، المهم أن يكتب لها بصفةٍ مستمرة.، ويبدأ كل رسائله بهذه الكلمات: يا صغيرتي الجميلة. يا حبي الأول والاخير.

وفجاة توقفت رسائل آنييس!!.. يكتب الى شقيقته: «سأبحث عنها في كل مكان وساتزوجها.. لا أصدق ما سمعت عن أنها سافرت إلى لندن.. لماذا؟!.. هل حقا ستتزوج من شخص آخر ؟!».

أرسل رسالة اخرى الى زميلتها زيلدا قال فيها: إنها لم تحب احداً غيري، ارجوك ان تخبريني، لماذا اختفت فجأةً ولم تخبر أحداً عن مكانها؟!!.

وذات نهار يتلقى رسالة من أنييس: «ليلة سعيدة ياصغيري، كم اريد ان اعرف احوالك هذه الايام، الا انني اشعر انك في حالة جيدة، الى اللقاء ايها العزيز.. الخبيثة آنييس»، لم يدم فرحه طويلا برسالة الحب هذه، فبعد ايام تصله منها برقية تخبره فيها بانها: «لست المخلوقة الكاملة التي تتخيلها، لقد كنت دائما ما أنا عليه الآن، على ان الاحساس بذلك بدأ ينجلي، انني اشعر بانني خبيثة جدا هذا المساء».

ولم يعرف الفتى ارنست ان أنييس ستتزوج من ثري ايطالي، وتكشف له في رسالة مؤرخة في اذار عام ١٩١٩ عن حقيقة مشاعرها تجاهه، فهي تحبه، بل تعشقه، لكنها تخاف عليه، ففرقُ العمر بينهما لايسمح له بالزواج منها، وهي تريد له ان يرتبط بفتاة صغيرة.

وعرف عن طريق صديقتها زيلدا ان أنييس تعيش في ميلانو فيقرر السفر اليها وهناك يلتقي بأمها التي تترجاه ان يتركها وشأنها: «بحق السماء.. دعها في سلام يا عزيزي.، إنها متزوجة من فتىً طيباً، يحبها حباً كبيراً

- من هو؟!



- دوقٌ إيطالي اسمه دومينيكو كراتشيوللو

استقبله الدوق بحفاوة، وبادره بالقول:

- إنها لم تخف عني شيئاً عن علاقتكما السابقة ايها الشاب الطيب.. وصدقني إذا قلت لك إنني مثلها شديد الإعجاب بشخصيتك!!.. ولكن لي رجاءٌ عندك.. دع حبنا في سلام.. وأتمنى أن تعدني بذلك!..

- هل تسمح لي بمقابلتها؟!..

- بالطبع.. أنت ضيفي وغداً سأقيم حفلاً على شرفك.. وإنه ليُشرّفني حقاً أن أستقبل في بيتي كاتباً موهوبا.

كان حفلاً رائعاً.. همنغواي مع أنييس في قاعة الموسيقى بالقصر.. بينما كان الدوق مع أصدقائه في حديقة القصر..

فجأةً دوى طلقٌ ناري!!.. توقفت على إثره الفرقة الموسيقى عن العزف وبعد أن سادت الفوضى في الحفل.. شاهدوا همنغواي مقبلاً يعدو من الباب المؤدي إلى الحديقة، وهو يصرخ:

- لماذا؟!.. لماذا؟!.. ؟!.

وجدوا في رأس أنييس رصاصةً قتلتها.. ولم يجدوا المسدس!.. ومن الغريب أن الزوج خوفا من الفضيحة استطاع بنفوذه أن يوقف التحقيق الذي بدأته الشرطة الايطالية، وتم تشييع أنييس وبعد الجنازة.. عاد أرنست همنغواي إلى نيويورك

****

البحث عن حب قديم

بعد ثماني سنوات من اللقاء الاول بأنييس سوف يعيد همنغواي كتابة روايته «حب في الحرب» هذه المرة سيقرر ان يغير العنوان، كان في نيته ان يسميها وداعا للحب، لكنه وجد العنوان ساذجا، قال لصديقه سكوت فيتزجرالد: «لدي أوراق مهمة لرواية عن الحرب والحب، وفي رأسي تدور افكار وصور وحكايات عن الحياة التي عشتها بين الخنادق ووسط



الموتى وعلى سـرير المـرض» كان قد بلغ الثامنة والعشـرين من عمره، حقق نجاحا في عمله الصحفي، و نشر العديد من القصص القصيرة عن تجربته في الحرب وكتب مقالا يقول فيه: «ان أية تجربة يمر بها الانسان في الحرب، لاتعادل تجربة واحدة مع امرأة جميلة».

كان عليه ان يعيد ترتيب الأوراق التي كتبها، وسيبقى عليه البحث عن منزل رخيص يقضي فيها لياليه، لكنه يعاني من عادة سـيئة هي الإفلاس. فكان يطلب من صاحبة المنزل، ان تصبر عليه حتى يتسلم مبلغ التحقيق الصحفي الذي أرسله الى إحدى الصحف.

فـي تلك الايام كان قد تزوج من هادلي ردسـون، وكانت ايضا تكبرة بسـبع سـنوات، وقد شـعر انه مشـدود اليها، امراة طويلة القامة، ملامح وجهها دقيقة جدا، كانت عندما ترى أرنسـت تشـعر بالخجل وتصمت، حدثهـا عـن قصة حبـه الاول، كانت سـعيدة عندما يرونهمـا الناس معا، طويلـي القامـة، جميلين، يكتشـفان كل منهما الآخـر ليتحابا، لكن قصة الحب هذه لم تجعل النسيان يطوي حكاية أنييس.

في باريس التي غادر اليها كان يعمل كثيرا، يستيقظ في الصباح، يغلي زجاجات الرضاعة لطفله المولود حديثا، ثم يجلس على منضدة الطعام ليواصل الكتابة في «وداعا للسـلاح» هذا هو الاسـم الذي سيضعه على غلاف الرواية.

كان يعـزّي نفسـه بالنجـاح، لايريد ان يتنـازل عن احلامـه او يتخلى عنهـا، هل من الكثير عليـه أن يرى كتبه تتصدر واجهـات المكتبات، انه يتأمـل كثيـرا، صحيـح ان الكتابة أمر شـاق، وهذه الروايـة الثانية له، بعد الشـمس تشـرق ايضا، التي قال عنها المحرر الأدبي للواشـنطن بوست انهـا أسـوأ روايـة قرأها خـلال سـنوات طويلة. لكنـه تعلم الـدرس من جيميس جويس، ان لا يأخذ اراء النقاد على محمل الجد.

صفحـات الرواية تتضخم يومـا بعد آخر، بدأت ملامح الحب تتضح فيها، يريد ان يرسـم صورة رائعـة لأول امرأة في حياته، صحيح انه تعلق بعـدد من الفتيـات في مراهقته، لكنه سـرعان ما كان يبتعد عنهن بسـبب



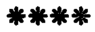
اصـرار امـه على ان تعامله كفتاة، فقد كانت تسـرح شـعره مثل تسـريحة الفتيـات الصغيـرات، ويتذكـر انـه فـي طفولته فرضـت عليـه ان يرتدي ملابس البنات

كان فـي الرابعـة من عمره حين تمرد على قرار امـه التيكانت تبذل ما في وسـعها لنقل افكارها عن الحياة الى ابنائها الصغار، كانت امرأة قوية شديدة التدين، ذات يوم ترسل له رسالة: «ان لم تثب الى رشدك وتكف عن مغامراتك السـيئة وبحثك عن الملذات واسـتغلال وجهك الوسـيم لاغواء الفتيات البريئات وإهمال واجبك نحو الله، لن يكون في انتظارك سـوى الافلاس». كانت هذه الرسالة كافية لأن يتخذ موقفا عدائيا، لانها تريد انه تصيغه على طريقتها الخاصة.

تذكر العبارة التي قالتها له اليه والدته: انت فاشـل، وهو يرسل وداعا للسـلاح الى الناشر، في أحد الايام يصله طرد بريدي من نيويورك يعلمه أصحاب دار النشـر التي طبعت روايته وداعا للسـلاح، ان القراء تدافعوا بالمئات للحصول نسخة منها

يتذكـر ان روايتـه الاولى لم تلـق النجاح المطلوب، وعليه ان يسـدد ثمن الخسارة للناشر، لكن بعد نجاح وداعا للسلاح حيث وضعت على قائمـة الكتـب المفضلة فبيع منها عـام ١٩٣٠ اكثر من ٢٥ ألف نسـخة، أخذ يؤمن بان الانتصار سيكون حليفه، قال لصديقه سكوت فيتزجرالد: «ليتنـي أتمكـن من كتابة رواية كل شـهر، هناك افـكار وصور وحكايات تعشـعش في رأسـي» بعدها باعـوام يتذكر حركاته الصبيانيـة هذه فيقول لهوتشـنر: «لـم اكـن أعـرف انـذاك كيف تكتـب الروايـة الجيـدة، كنت استعجل النجاح، لذا لازلت أعتقد ان ما كتبته في بداية حياتي عبارة عن كومة من الاوراق السيئة».

عاد الى البيت وهويضحك.. قال لزوجته: انتهى زمن التشرد.





الرصاصة الأخيرة

تـزوج بعد هادلـي ثلاث زيجات، بولـيـن، ومارثا جلهـورن، وماري لويـز. لكنه اضافـة الى ذلك عـرف بصداقاته الكثيرة مع نســاء من ميول واهتمامات وأعمار مختلفة، ويرى كتاب سـيرته أن عشقه لوجود النساء حواليه، كان بسـبب خسـارته لأنييس، التي لم يستطع الزواج بها، ونجد الناقـد أنتوني برجس في كتابه عن همنغواي يتسـاءل: «لماذا كان يحتاج إلى وجود كل هذا العدد من النساء في حياته؟» لم يجد بيرجس الجواب ألا في الرسـائل التي نشرتها الممثلة الشـهيرة مارلين ديتريش والتي كان همنغواي يرسـلها اليها كل يوم حيث يكتب في مقدمة الرسـالة صغيرتي ثـم يواصل، وفي احدى الرسـائل يخبرها بان ان أفضل شـيء في الحياة هو فرص كسـب معارك الحب ولكن الانسـان المسـكين يترك كل هذه المتعـة ونجده يهتم ؟ بالصحة، والعمل، والأكل والشـرب، الاسـتمتاع بلذة الحب، ليس عندي شيء من هذا، لاشيء منه». كان يشعر انه السبب في النهاية الماساوية لأنييس، وذات صباح تسلّل بهدوء من فراشه، لبس رداءه القصير تناول البندقية وفجّر دماغه. تذكر والدته التي كانت تخشى عليه من النسـاء. عندما هرعت زوجته ماري وهي تسـمع صوت اطلاق الرصاص وجدته نائماً على مائدة الطعام والى جواره ورقة مكتوبة بخط جميل: «لـم أعد أحتمل.. إنها تلاحقني ليل نهار.. في عينيها الجميلتين نظرة عتاب مروعة!!.. لم تكن خائفةً مني!!.. كم كنت نذلاً!!.. لم أكن أقصد يـا أنيس!!.. أنتِ تعرفين أنني لم أكن أقصد ان تنتهي حياتك بهذا الشكل المروع».




مكتبة
الفكر الجديد

-٩-

كل شيء في الوجود يختصر بعنوان واحد هو المرأة

المرة الاولى التي رآها فيها تجلس بالقرب من شقيقتها زوجة الشاعر الروسي المشاغب مايكوفسكي، وجدها متكبرة، لم تعجبه كثيراً، طريقة لبسها للثوب غريبة، ما كان ليختار هذه الألوان، كانت له أفكار عن اناقة المرأة، كان شـعرها متناثرا على كتفيها، التفت الى صديقه اندريه بريتون ليسأله هل هي شقراء أم شديدة البياض ؟ فهو لم يمعن النظر فيها كثيرا، نبهه بريتون على انها تتابعه بنظراتها، فتساءل مع نفسه: لماذا ؟

كانـت أقـرب الى الطـول، وجهها متـورد، ولو كان اسـمها ماري او مادليـن لما عاد ففكر فيها في اليوم التالي، اما إلزا، ياله من اسـم غريب، هذا هو بعينه ما كان يدفعه للسؤال عنها.

هناك مقطع من قصيدة لبول فاليري ذكرته بالحالة التي هو بها.

«جسدك يلاحقني

آه من يديك المليئتين يا جان

آه من الأفكار التي يعود اليها صمتكِ وصوتكِ

ما أن أتركك، لتصيري افكاري»

كان لويـس آراغون في الثلاثين من عمره حين التقى إلزا ترولیه وهي برفقـة شـقيقتها ليليـا وزوج شـقيقتها مايكوفسـكي، وتصف ألـزا اللقاء الاول: «كنـا في الحفل الذي أقيم بمناسـبة معرض الفنـون التزينية، كان هنـاك كثير من الناس، وفيمـا كنا نتحدث عن اللوحـات الفنية مع بعض



الاصدقـاء، كان هنـاك رجلان ينظـران إلينا بامعـان، الاول أعرفه اندريه بريتـون السـريالي الذي يريـد تغيير العالـم من خلال الاحـلام، والثاني قيـل لي فيما بعد انه شـاعر وسـريالي ايضـا، كان طويـل القامة يضحك بإسـتمرار، عيونه تراقبنا بـلا كلل، وعندما نظر اليه مايكوفيسـكي، تقدم نحونا ليقدم نفسـه بصوت مملوء مرحـاً: لويس آراغون «الذي قال ذات يوم حيث سئل عن حياته: «حياتي. الجميع أنهم يعرفونها.وذلك مايثير فيّ احيانا عاصفة من الضحك»

في اليوم الثالث من تشـرين الأول سنة ١٨٩٧ ولد لويس آراغون في باريس، لام تدعى مارغريت توكاس، وخلال سنوات طويلة أوهموه بان أمـه هي أخته، ولـم يخبروه بقصة والده الذي هرب قبل ولادته، الطفولة كانـت لهـا أكبر الأثر في حياة آراغون الذي وجد نفسـه وسـط عائلة من النسـاء أمـه وخالاتـه وقريباتـه وجميلات الحـي من صديقـات العائلة، حيـث عرف طعم الحنـان الانثوي، وفي هـذا الجو المفـع بالانوثة كان يقضي أوقات فراغه بقراءة المسـرحيات، فيما امه تقص عليه الحكايات الشـعبية، وقـد طبعـت هذه المرحلـة الممتلئـة بالوجود الانثـوي روحه وجعلته لاحقاً يضع للمرأة مكانة خاصة شـبهها بالمستقبل الجميل.كان اراغون يشاهد امه التي انصرفت إلى قصص العشق تعيشها بشغف كبير. وقد اورثت ابنها ذلك الشـغف بالرومانسية، وعندما اخبرها ذات يوم انه يحب ابنة الجيران قالت له بكل جدية: «عليك ان تدرك ان الحب، ليس نزوة موقتة، انه شرارة تظل مشتعلة فينا طوال الحياة».

اضافة الى الام، كانت هناك خالتاه اللتان شكلّن مع امه عالم طفولته، ولسـوف يكتشـف في منـزل الحريم هذا صـور وروايات سـيحبها يوما بعـد آخر، فلدى كل واحدة من هذه النسـوة قصة تتفـاوت في خيالاتها، ومـن ناحية ثانيـة فان هذه الأحلام والقصص النسـوية الحميمة سـتقدم لآراغون مادة ثرية يستخدمها في أشعاره ورواياته، وسنجده يهيم عشقا بجارته الفتاة التي جاءت عائلتها من جورجيا لتسكن احد احياء باريس، حيـث جعلته يقرأ في صباه روايات تولسـتوي ودستويفسـكي، ويذرف



الدموع على نهاية آنا كارنينا، بعد سنوات سيكتب: «كانت آنا كارنينا هي الكتاب الذي كنت أبحث عنه منذ البداية، او منذ ما قبل البداية، كان بالنسبة لي التوازن المثالي بين الأدب والحياة، او بتعبير أصح وحدة واحدة لا يمكن فصلها، عندما انتهيت من قراءة الرواية في المرة الاولى اكتشفت بانني يمكن ان اصبح كاتبا يغوص في اعماق الناس، فانا منذ الصغر كانت لدي موهبة الكلام، وقد اكتشفت انه يمكن تدوين هذا الكلام ليتحول الى حكايات من نسج الخيال».

في الثانية عشرة من عمره يكتشف باريس من خلال روايات بلزاك: «كانت قراءة كتبه بالنسبة لي، إشراقة شمس قوية، ولا أبالغ إذا ما قلت انها حددت مسار حياتي، وهو اعجاب لن يخمد نحو باريس باعثة الفوضوية والطريق الى صداقات رائعة».

كانت واحدة من هذه الصداقات لقاءه باندريه بريتون الذي التقاه في كلية الطب، ثم قررا سوية ترك الجامعة والتوجه صوب الشعر والحياة، وسيصبح بريتون فيما بعد مكتشف السوريالية ومنظرها الأبرز الذي نشر البيان الاول لحركته عام ١٩٢٤، التي تألفت من اراغون وبول ايلور وسلفادور دالي و رينيه ماغريت وماكس إرنست وأنطونين أرتو، كان أراغون يسعى انذاك الى اكتشاف ذاته ويولي اهتماما بالتجارب الادبية والفنية الحديثة، وما إنفك يزداد اعجابه بالشاعر رامبو وحياته الغريبة : «ذات صباح حزين قرأت اشراقات رامبو، فإذا بوجه الحياة الكالح أمامي». وقد ترك لنا اراغون صورة لاتنسى لصديقه بريتون اذ رسم قسماته في واحدة من رواياته الشهيرة «اوريليان» ترجمها للعربية صياح الجهيم، واصفا بريتون بانه العبقري الذي يدير الاحداث: «لقد كنا افضل صديقين في الدنيا، ويجب لأدراك حقيقة هامة بشكل جيد، وهي ان الأساسي بيننا لم يكن قط أدبيا وكانت أمور حياتنا تختلط حسب أذواقنا وأفكارنا، كانت لنا حماستنا، كما قمنا ببعض الاكتشافات، لقد كانت حياتنا حياة اكتشافات». أما بريتون فانه يتحدث عن اراغون في رسائله: «انه ودود الى اقصى الحدود، يهب ذاته في الصداقة دون



تحفظ، والخطر الوحيد الذي يتعرض أليه هو رومانسيته الزائدة عن الحد».

هذه الرومانسية التي تحولت الى ثورية، فيما بعد عندما قرر هو وبريتون الإنضمام الى الحزب الشيوعي الفرنسي، لانه كما كتب بريتون: «إن تغيير العالم، كما قال ماركس، وتغيير الحياة كما قال رامبو، قضيتان ليستا سوى قضية واحدة من وجهة نظرنا». لكن سرعان ما انسحب بريتون من الحزب الشيوعي، فيما واصل آراغون طريقه، وفي تلك الايام التقى للمرة الثانية بإلزا ترووليه في بار لاكوبول، وسيكون لإلزا أقوى تأثير على الشاعر الذي كتب يقول لها:

لقد انتزعت اليأس من جسدي، كما تُنتزع الأشواك
ومنحتني حباً جديدا للغةٍ لها وضوح الظهيرة
وغيّرت قلبي وأعادته إلى صدري.

ولسوف تدور اعماله الشعرية فيما بعد على هذا اللقاء الذي غير حياته: «ان يولد المرء وهو في سن الثلاثين ولادة جديدة، فهذه هي المعجزة».

كان اللقاء الثاني مختلفا، لقد حاول ان يقول لها انه لم يكن ينظر اليها جيدا في المرة السابقة، خاصة ان إلزا هذه تختلف كثيرا عن تلك التي كانت بصحبة مايكوفسكي، أحس هذه المرة برعشة خفيفة، وتمتم بكلمات غير مفهومة، كان اليوم يوما من ايام تشرين الثاني المشمسة، ورغبة في ان كسر جو الصمت قالت إلزا: «يبدو انك تراني للمرة الاولى»

- لن اقول لك غير هذا، نعم انها المرة الاولى

كان وجهها متوردا، وتلك الضفيرة التي تبرز الوجه ذو الوجنتين البارزتين، العينان زوقاوتان خلف أهداب سوداء كان الفم مدهشا، والأنف نحيفا، وفي نظر آرغون فان هذه القسمات المجتمعة لاتخص سوى امرأة واحدة اسمها إلزا.

لقد بدأت حياتي حقا



يوم التقيت بكِ
أنت يامن شقت يداها
الطريق الصعبة أمام جنوني
لقد ولدت حقا من شفتيك
انت يامن تبدأ حياتي بك.

****

عيون إلزا

في المقدمة التي وضعها اراغون لديوانه عيون إلزا يكشف لنا عن إشارات مهمة لحياته قبل ان يلتقي ألإزا:

لقد اضعّت، ولست ادري كيف تماما،

سني شبابي.

كاد رفض آراغون للعالم ان يؤدي به الى الموت، وحسب سيرته الذاتية التي صدرت بعد وفاته، فانه قبل لقاءه بإلزا بشهور فكر في الانتحار، ويخبرنا ان إلزا كان يجب ان تكون بجانبه، لكي يعود الى الحقيقة، وتكون لديه الشجاعة لمواجهة مضايقات الحياة، : «إلزا التي جعلت واقعي في هذا الصيف اللامتناهي، هو قضايا الانسانية»

دخل اراغون الحياة السياسية من باب الحب، بعد ان خبرته الحياة، فكانت بالنسبة اليه مشروعا انسانياً متمثلاً في مملكة الحب، فالحب عند آراغون يمثل محرك الحياة النابض، هذا الحب النابض الذي جربه منذ طفولته المبكرة، حيث عرف الدفء العاطفي وذاق طعم الحنان الانثوي، ولهذا نجد المرأة بالنسبة لآراغون هي مصدر الحياة، اذ بدون وجودها لايمكن تصور الوجود الانساني: «ان في العشق الخالص تكمن فكرة إعادة الخلق والولادة من طرف المعشوق، وهذا يعني ان العاشق يولد من عشقه الموجه الى معشوقته، ولايدرك وجوده الخاص إلا عندما يبلغ كعاشق التوحّد المطلق بمعشوقته وتتحقق بينهما فكرة الروح الواحدة،



وبهـذا المعنى التعبيـري الخالق تتحقق إعادة الخلـق». هذه الفكرة التي استـمدها آراغون مـن قراءته الصوفية والفلسـفية، وخصوصـا تأثره في بداية حياته الادبية بفيلسوف الوجودية كيركغارد الذي كان يصر على ان التفرغ للحب هو تفرغ إيماني، فالحب وحده يعطي الوسائل التي تمكننا مـن التحقـق في الخلـود، : «ان ما يتحقق فـي الحب ليـس معنويا وإنما إلهيـا» وكمـا قال نيتشـه «كي نحب انسـانا لابد ان نحبّـه الحب الالهي» ويكتب كيركغارد: «ان ما يجعل العاشـق يعتقد انه يلاقي سـكينة النفس اذا احال هذه العلاقة الى السمو الالهي الأبدي»،

انتي الطائر الالهي الذي زعمو ان لاوجود له

ان ارحل اليك، ما أعمق البحر

لن تعرف الناس غير اسمك

في اليوم الاول لما بين اسنان آدم

وضع الله كلمات كل شيء

ظل اسمك على لسانه ينتظرني

كما ينتظر الشتاء ولادة وردة

هكذا يحاول اراغون ان يتوصل الى اكتشـاف خالقه «ألزا» ويعترف بقدسـيتها كآلهـة قادرة على إعـادة خلقه من جديد، كانت إلزا كل شـيء في حياة آراغـون، فأجمل القصائد كتبت من اجلها، واجمل الابتهالات قدمهـا لروحهـا: «لقد آن الاوان كـي نرجع الاعتبار لقدسـية المرأة التي تم تكريسـها للرب عهود طويلـة» وإلزا المرأة الخالقـة اعطت لآراغون ديـوان عيـون إلزا ومجنـون إلزا، بـل ان كل بطـلات رواياته التـي كتبها بعد علاقته بإلزا يحاولن ان يكن ألزا ذاتها التي يعشـقها الشـاعر، يكتب غارودي في دراسته عن آراغون: «ان كل هذه البطلات صرن لاحقا اكثر من مـرآة، حيث حاول اراغـون من خلالها تملك الوجـه الحقيقي لإلزا ترولـيـه». ويقول آراغون: «خلال اثنين واربعين عاماً بحثت عن إلزا وها انا ما زلت في طريق البحث عنها، ان الذي أبحث عنه هو كل شـيء، ان



إلزا لم يعرفها احد بشكل صحيح، لقد كنت ظلها دائما، وكل اشعاري ورواياتي مقدمات، ومقدمات لمحاولة معرفة ما لم اعرفه، وما لم افهمه، وهي مقدمات ايضا لمعرفة ما بحثت عنه، وما أبحث عنه الآن».

سأفضي اليك بسر عظيم، أخافك

أخاف من يصحبك مساء عند النوافذ

أخاف الزمن المسرع المبطئ، أخافك

سأفضي اليك بسر عظيم، اغلقي الأبواب

الموت أهون من الحب

لذا اتكبد عناء الحياة

ياحبي

****

ولادة إنسان جديد

كانت ولادة آراغون الجديدة بعد لقاءه بإلزا، تمثل كما اخبرنا في معظم قصائده، عودة من بلاد الموتى، فقد انقذته إلزا من يأسه ومنحته الشجاعة، اذ غيرت قلبه ليعيد ويحيا بين الآخرين، يناضل معهم ضد الظلم الإنساني، والدناءة الإجتماعية، حيث يتحول الحب الى كفاح لخدمة الناس

«اذهبوا وقصوا على الجميع، هذا النوع من الولادة

اذهبوا وحدثوا، كيف يولد الانسان في منتصف العمر»

انها ولادة انسان جديد هكذا يخبرنا روجيه غاودي، إنسان أستعاد طعم الحياة ومذاق الحب، فقد كتب قبل لقاءه بإلزا انه يزحف نحو الشيخوخة قبل آوانها، في حين ان إلزا منحته وهو في سن الثلاثين، شباباً متجدداً باستمرار من خلال اتحاده بالحب.

كان آراغون الى جانبها مثل مراهق صغير، لم يشعر بأي خجل زائف



في ان يصف خفقات الحب والغيرة والرغبة التي تستيقظ لمجرد وجود المـرأة المحبوبة الى جانبك، لمجرد ملامسـة ثوبها، لمجرد شـم رائحة عطرها التي تذكّره بمذاق الحب الذي يتجدد كل يوم:

ألمسك، ويبدأ كل شيء من جديد

ويستعيد كل شيء ابعاده

وبريقه وعنفوانه

ويستعيد كل شيء قيمته ومعناه

إن ذراعي قوية قوية بما يكفي لتضم ركبتيك

فلا تعتمدي عليّ إذا أردت ان ينتهي هذا العناق

****

بين الحب والموت

منـذ عـام ١٩٢٨ وهو العـام الذي التقى فيه إلـزا وأحبها، وحتى عام ١٩٨٢ الذي غادر فيه الحياة اشـتهر آراغون باعتباره شاعر الحب الاول في القرن العشـرين، لكنه ايضا شاعر المرأة بامتياز، فالموضوع الرئيسي فـي معظـم اعماله هـو تحديـد مكانة المـرأة الحقيقيـة في الحيـاة، وقد حـاول ان يقدم مفهوماً للادب يصلح لكل الناس، حيث تُقدم المشـاعر الانسـانية كلها عبر النقاء الذي يمثله الحـب، وكان آراغون يؤكد انه كي نحب جميع الناس، يجب ان نكون قد احببنا امرأة واحدة، وتخلصنا من انانيتنـا: «المرأة وحدها هي التي تسـتطيع ان تعطي الحيـاة معنى» وكان آراغون يردد دائما ان كل شيء فيه يختصر بعنوان واحد هو آلزا:

ياموسيقى حياتي، ياعطري، يازوجتي

تملكيني حتى أعماق روحي

كل شـيء لك، انـي بكاملي منزلك ولن يبقى مني بعـد موتي أبداً الا كيانك

لان رفاتي ستحمل عطر روحك.



ويخبرنا ارغون باستحالة وجوده من دون إلزا: «عندما تخرجين اصبح شقياً مثل مرآتك» فهو لايرى العالم إلا من خلالها، ومن هنا جاء اصراره على تسمية ديوانه «عيون إلزا» فمن خلال عيون محبوبته يصبح للعالم وجود حقيقي، وهو يرى الحقيقة من خلال هاتين العينين:

«لئن اغمضت عينيك لاصبحت عيناي يتيمتين

إني اعيش بك، ولئن هجرتني

لسقطت وضعّت واختفيت وقتلت نفسي

والعالم ليس ما تراه ألزا فقط، بل هو ما يتشكل في خيالها ايضا

تحلمين، وعيناك مفتوحتان واسعا

ما الذي يحدث اذاً وأجهله انا

امامك في الخيال

في مملكتك انت، بلاد بلا ابواب

وامامي انا بدون جواز سفر»

****

فيلسوف الحب

«سوف يخمد كل ما يتعارض مع الحب» هكذا يكتب آراغون في روايته الشهيرة اجراس بال، ونجده منذ بداية قصه الحب مع إلزا يكرس لهذا الحب طقوسا خاصة، حيث يعطي للحب المكانة الاولى في التطور الاخلاقي للإنسان، في مجتمع عادل، لذلك نراه يعلن انه عندما ستحل عصور الحب على الارض، سيصل الانسان الى غاية وجوده، هي السعادة التي يمثلها العاشقان:

ذات يوم يإلزا، ستصعد اشعاري الى شفاه

لن تبلى بمرض زماننا الغريب

ولسوف يوقظ اطفالا ينبضون بالحياة



اذ يعلمون ان الحب ليس سوى حمى
وان هزيمة العمر الأكيدة ليست حقيقة
وان الحب والحياة سواء حتى النهاية.

كانت تلك نبوءة العاشق الذي ظل حتى آخر يوم في حياته يبشر بعصور إلزا مقتنعا انه بقدر ما يكون اشراق البشريةاكبر، سوف تبرز شروط الحب الحقيقية.

وفلسفة الحب عند أراغون تمثل في شكلين من اشكال الاخلاص للحب الاول لإلزا، والثاني لفرنسا، وهو يكتب في مقدمة عيون إلزا : «على اولئك الذين يرون في هذا النشيد لإلزا امراً ليس في مكانه والوطن يتعرض للحرب، فانهم لايعرفون اننا نرى الوطن من خلال عيون المحبوبة، وهي التي تجعلنا نحس بالعالم، وتمنحنا معنى المشاعر الانسانية»

ونرى آراغون وهو في جبهة القتال يدافع عن فرنسا ضد الغزو الهتلري، كيف يراوده طيف إلزا ويساعده على الصمود امام الهلع والرعب، ليجد عزاءه في الحب الذي يتعلق به، كي يرفض الموت:

«ساصرخ، ياعيوني التي احب ان تكونين
انت، انت ياقبرتي
ساصرخ، اصرخ اعلى من دوي المدافع
من اولئك الذين جرحوا او الذين ماتوا
ساصرخ، اصرخ، شفتك هي الكأس التي
شربت فيها الحب المديد، كما النبيذ الاحمر
وبياض ذراعيك يشدني الى هذا العالم
فلا يمكنني ان اموت، فذلك الذي يموت ينسى».



-١٠-

سعادة واحدة في هذه الحياة.. هي أن تُحِب وتُحَب

في الثانية عشرة من عمره أدرك الحب لاول مرة، فقرر ان تكون هديته الاولى الى حبيبته الصغيرة قطعة موسيقية من تاليفه، كان فريدريك شوبان المولود في الاول من آذار عام ١٨١٠، يسبق سنه وعصره، لكنه في المقابل كان اكثر افراد عائلته ميلاً إلى الحب، ولعل النصيب الضئيل من الاهتمام والحنان الذي منحته اياه امه، دفعه الى الإرتماء في احضان أخته الكبيرة لودفيكا، التي قالت يوما لابيه: «ارجوك اتركه يعشق كما يريد، انه يبتعد عن تقاليدنا، لانه ليس انسانا عادياً»،

كان دائم البحث عن الحب والحنان وكان قلبه يخفق في عنف حين يرى فتاة جميلة، ولم تكن حكاية غرامه في سن المراهقة إلا بداية طريق طويل، اذ اعجب بعدها بجارتهم التي لم تتجاوز الخامسة عشر من، عمرها فكتب لها رسالة يعلن فيها انها ملأت حياته بهجة، وترك الرسالة أمام باب غرفتها، وعاد الى البيت وهو يأمل ان تصبح «اميليا» ابنة الخامسة عشرة وصديقة اخته إيزابيلا، أمل حياته، لكنه سرعان ما اصيب بخيبة امل وتعرض الى نكسة صحية حين عرف بنبأ خطبيتها، ونراه ينصرف الى الموسيقى، يجلس على البيانو الأسود يدرب اصابعه التي ستأخذه فيما بعد الى طريق المجد والعبقرية، وهو يتذكر ان تحت اقدام هذا البيانو الكبير كان يستمع الى امه وهي تعزف، وعندما تستريح كان يستلق الكرسي ليجلس مكانها يعيد نفس المقطوعات التي عزفتها، انذاك لم يتجاوز السادسة من عمره حين



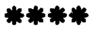
اعلـن صديق والـده «زارونـي» ان هذا الطفـل الصغير يمتلـك موهبة فريدة.

يواجـه الجمهور لأول مرة ولـم يتجاوز عمره الثماني سـنوات حيث يعزف احدى مقطوعات موزارت، ووسـط انبهـار الجمهور كتب الناقد الفني لصحيفة «وارسـو» «ان فريدريك شوبان الطفل عبقرية حقيقية في عالم الموسيقى..ولو كان قد ولد في فرنسا او المانيا لكان اليوم مشهورا في العالم».

في التاسـعة عشرة من عمره تعرف على كونستانس، كانت قد جاءت هي وشـقيقتها «جينـي» من احدى ضواحي وارسـو لتتعلـم البيانو على يـد فريدريك، وتـردد لحظات إيهما يحب، لكن قلبه اختار كونسـتانيس المرحـة، وقد إنشـدت هي ايضا الـى وجهه الحالم، وعيناه الواسـعتان، ووجد شـوبان نفسـه منجذبا الـى صوتها، فقـد كانت فـي الأصل تجيد الغنـاء الاوبرالـي، ويخبر شـقيقته الكبرى أنه يحب كونسـتانيس بعنف: «لقد اكتشـفت الفتاة المثالية.. ولعله من سـوء حظي» وتنصحه شـقيقته بان يحاول التركيز على الموسيقى، فيخبرها ان طريق الهروب من الحب اصبح غير ممكنا، لأن وجود كونسـتانيس في حياته أصبح له معنى فنيا: «لقد كتبت الحاني، وانا أفكر فيها».

في تلك الايام يقرر شوبان ان يترك بلدته وارسو، بسبب الاضطرابات السياسـية، التي حدثت بعد العصيان المسـلح الذي قام به عدد من ضباط الجيـش البولندي ضد ضد حكم الإمبراطورية الروسـية لبلادهـم، ويخبر شـوبان كونسـتانيس عـن رغبته في السـفر الى باريـس، لم تسـتطع الفتاة ان تقـاوم دموعهـا وهي تهديه شـريط الحرير الذي كانت تعقد به شـعرها وتقول له.

- عندما سأتزوج ذات يوم وانجب اولاد سآتي بهم الى هذا المكان، واخبرهم عن الانسان الذي لم أحب احد سواه».





فالس الوداع

في صباح يوم الخامس من تشـرين الثاني عـام ١٨٣٠، وقف تلامذة المعهد الموسيقى البولوني يعزفون لحن الوداع لزميلهم فريدريك وهم يقولون له: «فريدريك العزيز لاتنسى بولندا، وتذكر اصدقاءك الفخورين بك، والذين ينتظرون ان تحقق المجد لهذه البلاد، »

وصـل شـوبان الى باريـس يحمل موسـيقاه، وآمالـه واحلامه يكتب الموسـيقار المجـري فرانز ليسـت الذي كان اول من التقـاه في باريس : «كان كاحد امراء عالـم مجهول، نظراته حالمة، شـفتاه رقيقتان، ابتسـامته خجوله لكنها تخفي في طياتها مرارة كبيرة».

في باريس، المدينة الضاجة اكتشف ان وظيفته الأهم ان يصبح عاشقا كبيراً، لم يكن سـوى شـخص ضعيف البنية. نرجسـياً متفاخـراً بقدراته الفنية، اعتبر ان الفوز بامرأة مثل الإنتصار في معركة عسـكرية. قال يوما للكاتبـة جورج صاند «ان النسـاء مثل المقطوعة الموسـيقية، لايريد لها العـازف ان تنتهي»، يلتقي بماري دووتسـكا، صديقـة قديمة لعائلته، إلا أنـه يراهـا نمت كزهـرة تتفجر انوثة طاغيـة، حاول من خلالها ان ينسـى حبه لكونسـتانيس، ترافقه ماري لزيارة المتاحـف ودور الاوبرا ويتفقان على الـزواج ويهديها فريدريك ارق الحانه واجملها «فالس الوداع» بعد ان اخبرتـه انهـا مضطـرة للعودة الى بولنـدا، يصاب من ورائهـا باليأس، يكتـب لها رسـالة يقول فيهـا : «كنت وما أزال أحبك، ولكني سـأتعذب عذابا كبيرا إذا أنا حاولت نسيان كونستانيس، لقد كنت ومازلت ذا ميول عاطفية عنيفة، إنني على اسـتعداد للقيام بأي شيء من إجل إسعاد المراة التي أحبها».

وتصله اولى رسـائلها، التي تخبره فيها باسـتحالة مواصلة الحب معـه، لقد أدركـت ان حياتها مختلفـة عن حياته، كل منهما يسـير في طريـق مختلـف، بالإضافـة الـى انه انسـان مصـاب بامـراض عديدة واهمها أمراضِ الحب القديم.

كان شـوبان خجولاً في الحياة، جريئا في الحب، تتملكه مشـاعر



عاطفية عندما يقترب من امراة جميلة، لكنه لايحتفظ طويلا بحبه، فقد كان يعتقد ان هناك حباً كبيراً ينتظره، وقد اعجب بفلسفة النمساوي باروخ سبينوزا عن الحب، فنراه يكتب في يومياته: «انتهيت من قراءة كتاب الاخلاق لسبينوزا، وفيه تعرفت على تفسير جديد للحب، فالحب لذة ناتجة عن سبب خارجي» كان سبينوزا يعتقد ان الحب ينشأ نتيجة انفعال قوي، سرعان ما يتحول الى نوع من انواع الغيرة «فالغيرة ليست شيئا آخر سوى زيادة في انفعالات الحب»، ولهذا يعتقد اسبينوزا ان الحب يولد وينشأ من انفعالات، وهو يقارن الحب بالشبح او الطيف، فالجميع يتحدثون عن الحب، لكن قلة هم من رآه. كان هذا المفهوم للحب يستهوي شوبان، فهو احب اكثر من مرة، لكنه لم يرى الحب الحقيقي حتى هذه اللحظة، صحيح ان قصة غرامة لكونستانيس ماتزال تهيمن على حياته، لكنها لم تتحول الى عشق عنيف مثلما كان يتمنى وينبغي ونحن نتحدث عن مفهوم شوبان للحب ان ندرك حقيقة مهمة وهي ارتباط حياة شوبان الفنية بحكايات غرامه المتعددة، ان ابتسامة امراة جميلة تحرك مواهبه الفنية، كما تحرك احاسيسه العاطفية، فقد كان يقول لفرانز ليست انه يريد ان يواصل العشق حتى يتمكن من الإبداع، ولهذا يتعذر ادراك قيمة اعمال شوبان الفنية دون معرفة حياته العاطفية، وهو يعترف في يومياته من ان: «الحب وحده هو الذي يمنحنا السعادة وايضا المزيد من الموسيقى». ويكتب الى شقيقته: «لست في حاجة إلا لشيء واحد هو الحب، لاشيء يجعلني أرضى عن الوجود سوى احساسي بأن هناك امراة تحبني».

وكتب مرة لفرانز ليست: «لم احس قط بمثل هذا الانسجام الداخلي الذي أحسه اليوم امام البناء الموسيقي لمعزوفاتي، ان وجود صاند الى جانبي، جعل ألحاني تتفجر برقة في روحي». هكذا يكشف لنا شوبان من ان لا معنى لحياته من دون الحب، وان هناك حاجة دائمة الى حنان امراة تلهمه، وهو حين ينشد الحب لايبغي من ذلك سوى الراحة النفسية



التي تساعده على الابداع والخلق، لتترك موسيقاه اثراً أقوى من أثر قصائد الغزل.

****

اللقاء الأول

عندما شاهدها للمرة الاولى قال لفرانز ليست الذي أخذه ليعرفه على واحدة من اديبات فرنسا المعروفات: «يا لها من أمراة ثقيلة الظل، هذه الـ(جورج صاند)، هل هي حقاً أمراة، أنني أشك في ذلك».

ويبدو ان مظهرها الرجولي وعيناها الشبيهتان بعيني فيلسوف لم ترق له، كانت أورورا دويان التي أطلقت على نفسها فيما بعد اسم جورج صاند في السابعة والعشرين من عمرها عندما وصلت باريس، حيث راحت تبحث لنفسها عن مورد مالي تعيش منه، هناك تعرفت على جول صاند وكان يشغل منصب أمين مكتبة، يهتم بالادب وجرب حظه في كتابة الرواية، تزوجته ونشرا معا اول اعمالهما بعنوان «الوردة البيضاء»، قبل هذا التاريخ كانت قد جربت الزواج مرتين الاولى وهي في الثامنة عشر من عمرها من فرانسو ديفان الذي كان عضوا بالمحكمة العليا، لكن الزيجة لم تدم طويلا إذ سرعان ما تعرضت للانهيار رغم إنجابهما طفلين، بعدها ارتبطت بستيفان جراندساني أحد نبلاء فرنسا، الذي تركته لتتزوج من جول صاند، في تلك الفترة كانت جورج صاند تتخذ مظهر الرجل في ثيابها وطريقتها في العيش، فارتدت البنطلون، وراحت تدخن السيجار مما أثار الرأي العام ضدها، وقد حاولت ان تقيم علاقة مع فكتور هيجو لكنها فشلت، وارتبطت بعلاقة قصيرة مع بلزاك، كانت صاند تؤمن بأن المرأة التي تتهالك على الرجل لا تفوز به أبدا، لذلك كانت تجعل الرجال هم الذين يتهالكون عليها. من خلال الادب تعرفت على الفريد دي موسيه أحد اشهر كتاب فرنسا انذاك، وسرعان ما وقع في هواها، إلا ان المرض لم يمهله طويلا حيث اصيب



بمـرض في القلـب، فتقرر ان تتركه، لكنها تكتـب رواية عن قصة حبهما اسمتها «الصديق الحميم».

بعدهـا واصلـت الكتابـة ليتجاوز عدد كتبهـا المئة، وقـد قالت وهي تعلق على كثرة مؤلفاتها: «ليس في جميع اعمالي سـوى موضوع واحد هـو القدرة على الحـب»، فمعظم كتبهـا تحمل قوة العاطفـة التي كانت تمتلكها والتي ألهمتها هذا العدد الكبير من الاعمال الروائية التي جعلت روائيا بحجم فولتير يدعوها «أستاذتي في الحب».

كانـت جورج صاند عندما تعرف عليها شـوبان تكبره بسـبعة اعوام، رأت فيه منذ اللقاء الاول شاباً رائع الجمال ونجدها تكتب لفرانز ليست تطلـب منه ان يقنع صديقه البولوني لزيارتها ثانية وتكتب في الرسـالة: « صاحبـك هذا برغم ثقته بنفسـه، لكنه يبدو شـخصا غامضـاً، حتى يخيل لمن لايعرفه بأن هذا الشـاب الاشـقر، أمير منفي، او ملك اعتزل عرشـه بعد حادث سياسي خطير».

ولـن تمر ايام حتى يجد شـوبان نفسـه من جديد فـي مواجهة جورج صانـد، هذه المرة كان يجلس امام البيانو ليعزف احدى مقطوعاته، بينما جلست صاند مثل طفلة تحت البيانو تستمع لساعات طويلة لهذا الشاب الذي تتخذ موسيقاه شـكل الآهات الذاتية، وتمتلىء بالتساؤلات القلقة، وكانت صاند تفهم هذه النجوى كأنها موجهة اليها دون غيرها من النساء ولهـذا نراها تكتب بعـد اللقاء الثاني: «عندما جلس شـوبان الـى البيانو، وتحركت أنامله لـم اشعر سوى بخطوط غامضة متماوجة تجتمع لتشكل صـورة قلقة ضائعة الابعاد، فوجدت نفسـي وقد امتلأت بالرنات العذبة، بعدها انطلق بي شوبان، فاذا بي أجد نفسي أعيش في ظلال سماء زرقاء، حيت تتخذ غيوم اللحن الشفافة كل مشاعر الجمال، وتتغير احجامها كما يشـاء لها الريح والأنسـام التي تتجمع ببطء حول القمـر لتوقظ فيه اللون وتبعث الحياة..كنت اسـتمع الى هذه الموسـيقى الآلهية..انها من أحلام شوبان وتصوراته».

ونجد شوبان يغير رأيه في صاند ويكتشف ان وراء المظهر الرجولي،



قلب امرأة، وجسد انثى تجيد فن العشق، خبرت الحب وتدرك قيمته.. وبدون ان يدري يجد نفسه يذهب مرة ثالثة الى بيت صاند ويكتب في يومياته: «زرتها للمرة الثالثة، وحَدقت طويلا في عيني، اثناء عزفي على البيانو لحنا يتشح بالفرح، واحسست ان قلبي يراقص قلبها، ونظرت في عينيها وتساءلت ماذا تقول هاتين العينان السوداوان اذ تحدقان في عيني فتحملان الى اعماق روحي رعشات غريبة محمومة، كانت تتكئ على البيانو وتحرقني بنظراتها اللاهبة، وتغمرني بالنشوة الحمراء، ثم تنظر الى الازهار حولها، قلبي يهتف باسمها انه لها.. تحبني..اورورا، اي اسم هو هذا، ما أعذبه وما احلى وقعه في أذني».

وتنظر صاند اليه باعتباره الابن والحبيب الذي دخل الى قلبها وتكتب في دفتر يومياتها : «بتحفظه، وباندفاعي.. لا اطلب سوى ان يحطم «صغيري» قيوده التي مازالت الى الآن تربطه، ومع ذلك اعتقد ان حبنا لايستمر سوى في الظروف التي ولد فيها، حيث ستقودنا الرياح الطيبة احدنا الى الآخر، ونسافر معا الى النجوم ثم نفترق لنعود مرة اخرى لنمشي على الارض، لاننا لا مفر ابناء الحياة، ولان الله لم يأذن لنا ان نكمل هروبنا جنبا الى جنب، في السماء علينا فقط ان نلتقي، في قلب واحد يستطيع ان يحتوي على حبيبن معاً، ستكون هناك أجمل الايام التي نشتعل فيها بنار الحب المقدسة».

كانت صاند تفكر بصوت عال وهي تكتب عن الرجل الذي وقعت في حبه، فتكتب الروايات التي تروي فيها قصة الحب الجديد هذا، وتخبر بلزاك انها تريد ان تكتب عن حكايات الحب التي عاشها شوبان قبل ان يتعرف عليها، لكنها تخشى من رفضه، كان شوبان في هذه المرحلة قد أخذ يشعر بالهدوء وهو الى جانب صاند، وانعكس هدوئه هذا على اعماله الموسيقية، فيما كانت شخصيات صاند في الروايات تأخذ الكثير من ملامح شوبان، وسامته، شحوبه، وايضا بعض ملامحه النفسية، لكن هذه السعادة لم تدم طويلا فسرعان ما أخذت الامراض تغزو جسد شوبان الذي كان يعاني من نوبات سعال شديدة، ويخبرها الدكتور الذي



يعالجه ان هذه النوبات غير مطمئنة، وانه في حاجة الى رعاية شديدة لأن الألتهاب الذي اكتشفه في الرئة، قد يفسد صدر الموسيقي الشاب.

قـررت جـورج صانـد ان تتخذ من نفسـها ممرضة لـه، فتحيطه بعناية خاصـة، وتمنـع الجميع مـن مضايقته، تشـرف على طعامـه، وتأخذه في نزهـات بيـن الاشـجار ليملأصدره بالهـواء النقـي، وحاولت ان تشـغله عـن العـزف الـذي يرهقـه فاحاطته بعـدد مـن الاصدقـاء، وكان ابرزهم الرسـام ديلاكروا، الذي اصبح أقرب الأصدقاء اليـه، يتلازمان ليل نهار، واصبحت جلساتهما تستمر لساعات في حديث عن الرسم والموسيقى.

وفي يوم من الايام يشـعر شـوبان برغبة شـديدة للعزف، كانت صاند تكتب بالقرب منه، بينما نهض ديلاكروا ليحضر الوانه وفرشـه، ويسـتمر شوبان في العزف ليؤلف واحدة من اشهر مقطوعاته «ضوء القمر» ونجد ديلاكروا في نفس الوقت ينتهي من رسم لوحة تجمع صاند بشوبان، كان ذلك عام ١٨٤٢.



النهاية الحزينة

يكتب شـوبان فـي يومياته: «يقولـون ان صحتي في تحسـن، نوبات السعال والالآم زالت، ولكنني اشعر بالمرارة في اعماقي لان عينا اورورا غائمتـان، لايلتمعـان إلا حيـن اللهو وامـرح، عندها تنقلب كآبـة العالم حولي فرحاً، آه ياحبيبتي اورورا في سبيلك افعل كل شيء «لكن المرض يشـتد على شـوبان، وكانت صاند ترى الموت في عينيه فقررت أن توثق جزء حكايتهما في رواية وان حاولت ان تغير في الاسـماء والأماكن، إلا ان شـوبان شعر بان الأمر اشبه بالخديعة، فما ان قرأ رواية المركيزة حتى كتب لها رسالة عتاب ذيلها بجملة «إلى اللقاء يا صديقتي».

فهمـت صاند ان شـوبان اشـتد عليـه المـرض ولا يريد لهـا ان تتاثر بموتـه، وحيـن حاولت ان تسـترضيه وجدته قد سـافر الـى لندن، حيث



فضل ان يصارع الموت هناك، لكنه في اللحظة الأخيرة قرر ان يعود الى باريس ليمت فيها، فهي وطنه الثاني، ولم يكن يتوقع ان صاند ستكون في انتظاره: «لقد جاءت وحدثتني، لكني لا املك القوة للرد، كل شيء يبتعد عني».

كانت صاند وشقيقته الى جواره تسالان

– ما الذي نستطيع ان نعطيه لك

– السلام لروحي

– عندما انحت صاند لتقبل وجنته اكتشف من خلال عينيها الشبه الكبير مع حبيبته الاولى كونستانيس، وامتلات عينيه بالدموع، ليتوفى شوبان في الخامس عشر من تشرين الاول عام ١٨٤٩

في يومياتها تكتب صاند «أن النظرة التي كنت القيها على شوبان، ذات نمط أخلاقي، فأنا مرتبطة به منذ سنوات والخلاصة هي أنني سعيدة بأن أقول بأنه يتوجب الثناء عليه من دون تحفظ، لأنه لا شيء في حياة الرجل أدنى من المهمة التي أنجزها (الفنان) بشكل واسع».

وفي واحدة من رسائلها، نقرأ: «أين هو، في هذه الساعة، العزيز فريدريك ؟ الغياب والموت لا يختلفان كثيرا، إذنْ فنحن لم نفترقْ، بل توارى أحدنا فقط عن ناظري الآخر، ولكننا نعرف بأننا سوف نلتقي في أيّ مكان... إذنْ لن أقول أبداً وداعاً بمعنى أن الله يفرق بيننا، ولكن بمعنى أننا نتوادع على هذه الأرض أو على أرض أخرى».




مكتبة
الفكر الجديد

-١١-

عندما لايوجد حب حقيقي، يعيش الناس على السراب

في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٨٩ تسلمت الأنسة فلورا رسالة تحتوى على خمس كلمات من شقيقتها الكبرى: «تعالي فوراً، كاتبك المفضل عندنا». كانت في العشرين من عمرها، متزوجة من شخص ظنت انها تحبه وتغار عليه، إلا ان أملها خاب فيه بعد ان تركها وصرف اهتمامه لتجارته، وقد علمتها هذه التجربة ان لاتستسلم لكلمات الحب، وان تتفرغ لهوايتها الكتابة، كان كل طموحها ان تصبح كاتبة معروفة، نظمت شعراً، ودونت في دفترها الصغير عدداً من القصص القصيرة، إلا انها لم تحظ بالاهتمام، تقرأ كثيراً، ويسحرها عدد من الكتاب في مقدمتهم الطبيب انطوان تشيخوف، كانت قصصه تثير احاسيسها، فكم ذرفت الدموع على «أيونا» سائق العربة الذي اراد ان يُشرك حصانه باحزانه، لأن لا احد غيره يصغي اليه، لقد مات ابنه، وكان وحيدا، مات ولم يهتم به أحد، لماذا، ينبغي ان يروي كيف مرض أبنه، وكيف تعذب، وماذا قال قبل وفاته، وكيف مات، ينبغي ان يصف جنازته وذهابه الى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم، ويسأل أيونا فرسه عندما يرى عينيها البراقتين

- تمضغين؟ حسنا، امضغي، امضغي، ما دمنا لم نكسب حق الشعير، فسنأكل التبن، نعم انا كبرت على العمل، كان المفترض ان يعمل ابني لا انا، كان حوذياً اصيلاً، لو انه عاش فقط.

ويصمت أيونا بعض الوقت ثم يواصل

- هكذا يا أختي الفرس، لم يعد كوزما أيونيتش موجوداً، رحل عنا،



فجـأة مات، خسـارة، فلنفترض مثلا عنـدك مهرا، وانـت ام لهذا المهر، ولنفترض ان هذا المهر رحل فجأة، أليس مؤسفاً؟

وتمضـغ الفرس وتنصـت وتزفر على يـدي صاحبهـا، ويندمج أيونا فيحكي لها كل شيء.

ظلت قلورا تقرأ هذا المقطع لأسابيع وفي كل مرة تنهمر منها الدموع بغـزارة. انتبهت الى ان الضيف يسـير نحو الغرفة التـي تجلس فيها، قال زوج شقيقتها عندما رأه يتقدم نحوهـم: «آه انطوان بافلوفيتش، اسمح لي ان أقدم لك الانسة فلورا، انها تحت وصايتي».

تصف ليديا افيلونا في مذكراتها التي نشرت بعد وفاة تشيخوف اللقاء الاول بينهـا وبين كاتبها المفضل: «تحرك تشـيخوف الى الامام بسـرعة وبابتسـامته هادئـة، أخذ يـدي بيده ونظر كلانـا في عينـي الآخر، وخيل إلي انه دهش بعض الشـيء، قد يكون ذلك من الاسـم فلورا، لقد دعاني زوج شـقيقتي هكذا بسبب تورد خديّ وغزارة شعري الذي كنت أصففه احيانا على شكل ظفيرتين طويلتين، قال زوج شقيقتي: انها تحفظ جميع قصصـك عـن ظهر قلب، ولاشـك انهـا كتبت اليك رسـائل، انهـا تلتزم الصمت، ولاتريد البوح بها. لاحظت ان عَيني تشيخوف ضاقتا قليلا من طرفيها، وبدأت ابتسامته الساحرة تظهر من بين شفتيه».

كان تشـيخوف قد قدم الى بطرسـبورغ لعرض مسـرحيته «ايفانوف» وقـال لايفانوفا وهو يجلـس الى جانبها على مائدة الطعام، انه يشـعر ان المسـرحية ستفشـل، وانه قلق ومتضايق، وأكثر من هذا فهو لايحب جو بطرسبورغ، انه يرغب ان ينتهي كل شيء بأسرع وقت ويرجع الى بيته.

لاحظت ليديا انه يطيل النظر الى وجهها، شـعرت بالإحراج، فهمس لها وهو يشـير الى شـعرها: لم اشـاهد مثـل هذه الظفائر مـن قبل، قالت لـه انها تكتب قصصـا أيضا، ولديها شـيء ما، تريد البوح به، وابتسـمت بخجـل، تذكر ابتسـامة موظفة في صحيفـة «الزمان الجديد» التي ينشـر فيهـا قصصه، كان في تلك اللحظة يفكر فـي رؤيتها ثانية، انه يعترف بأن لديـه ضعفـا ازاء الفتيـات الجميلات، يقـول لزملائـه ان صديقات اخته



ماري يشكلن حوله «باقة من الصبايا الجميلات» وهو يسعد برؤيتهن، والحديث معهن حتى انه فكر بالزواج من احداهن، فتاة من عائلة غنية اسمها دونيا إيفروس، فتنه ذكاؤها وحيويتها، وذات يوم عرض عليها الزواج، وكتب الى شقيقه: «سأقفز من الموقد إلى النار». وبعد خمسة عشر يوما من التفكير، أعاد السؤال امام الفتاة التي كانت مترددة، ونراه بعد اسابيع يكتب رسالة جديدة الى شقيقه: «لقد ابتعدت عنها انها متهورة وعنيدة، او بالأحرى هي التي قطعت العلاقة، لن أعود الى الحديث عنها ابدا، ربما كنت على حق عندما قلت بانني لم انضج بعد للزواج».

أستدار نحو ليديا ليسألها: هل ستحضرين عرض ايفانوف يا آنسة فلورا.

ضحكت وهي تقول له: أود ان أخبرك باني لست شابة، ولا آنسة، تصور أني متزوجة ولدي طفل.

انحنى تشيخوف وحدق في عينيها وقال: عندك ابن حقاً، ما أروع هذا، ثم نهض من المائدة وهو يقول لها: سأتي الى هنا مرة ثانية، وأتمنى ان أراك، هات لي كل ما كتبت، سأقرأه جميعاً بكل عناية.

****

لا أعرف كيف أفعل هذا؟

يتذكر أنطون بافلوفيتش تشيخوف المولود في كانون الثاني من عام ١٨٦٠، انه عاش العشرين السنة الاولى من حياته في وحدة قاسية: «لقد عوملت في غير ما شفقة وانا طفل، حتى انني كنت أرى الحنان شيئا غير طبيعي، انني أحب ان أكون محبوبا ومحباً للناس، لكنني لا اعرف كيف افعل هذا». ولهذا ما ان بلغ الثامنة عشرة من عمره حتى راح يبحث عن صحبة الفتيات، يحاول ان ينخرط في قصة حب جدية مع احداهن، وكانت لايكا الجميلة التي كان يمطرها بوابل من رسائل الحب الملتهبة يكتب في احداهن: «تعالي الي ايتها الشقراء الجميلة،



سنثرثر ونتشاجر ثم نتصالح، قومي ايتها الجميلة لايكا، وغني، إذا كنت عاشقة لأحد لا تنسيني، ولا تسخري على الاقل مني» وقد أدركت لايكا ان احاديث تشيخوف الفاتنة، تخفي دائما نية ألا يتزوج منها، وحتى تستثيره تظاهرت بانها ارتبطت بشاب آخر، إلا ان تشيخوف لم يبد إية غيرة، وتكتب له ذات يوم: «ثمة انسان وحيد في العالم يمكن ان ينقذني من هذا الوضع البائس، لكن هذا الانسان لايهتم بي مطلقاً »، كان تشيخوف في تلك السنة قد استدار نحو أمرأة اخرى صادفها في موسكو، ممثلة شابة ذات صوت ناعم، وجمال مغري، هي ايجليا يافوريسكا، وجدها مملوءة بالفتنة، وكان يشعر بانجذاب شديد لها، ولم تلبث علاقتهم ان اصبحت حديث الاوساط الفنية في موسكو، ووعد ان يكتب لها مسرحية خصيصا. كانت من جانبها ترسل اليه رسائل رقيقة تنتهي بهذه الكلمات: «أقبلك وأحبك».

وأدركت لايكا ان منافستها لن تلبث ان تستحوذ على قلب تشيخوف فكتبت رسالة امرأة تشعر بالهجر: «قضت السيدة يافوريسكا السهرة معنا وقالت ان تشيخوف يريد الزواج منها بأي ثمن، وطلبت مساعدتي، ووعدت ان ابذل الممكن من اجل راحتكما المشتركة، أكتب بعض الكلمات تقول اذا ما كنت تحب يافوريسكا، اكتب إلي طبعا، لا اليها. الى اللقاء، ياجلاد روحي، أكتب إلي، أرجوك».

وأعجب تشيخوف بمناورة لايكا، فكتب لها خمسة اسطر داعيا اياها بالسمراء لايكا العزيزة، دون ان يعطيها دليلاً على عواطفه نحو الممثلة.

ما كان يشغل تشيخوف هو هذا العدد الكبير من الصبايا الفاتنات، كان يقول لشقيقه انهن يؤلفن أسطوله، وانه الاميرال قائد الاسطول، ونراه يؤكد في رسائله ان الغريزة الجنسية اساس الحب، وينشر في تلك الفترة مقالاً عن الحب في مجلة الرسول الروسي يشرح فيه العلاقة القوية بين شوق الحب والرغبة في العلاقة مع المرأة، لكنه يرفض الفكرة القائلة بان الحب مجرد غريزة، فالحب في رأي تشيخوف ذو طابع فريد بصورة استثنائية، ان الحب هو القوة الوحيدة، القادرة على لجم الأنانية الفطرية،



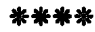
دون ان يحذف السمات الفردية، بل على العكس يؤكدها ويتفهمها، ولهذا فإن مغزى الحب هو تبرير وحماية النزعة الفردية، لانه من خلال الحب، نحن نؤكد الأهمية المطلقة لفرد آخر، والحب هو الغاء كامل للأنانية، انه نقل اهتمامنا من الذات الى الآخر، ومن هنا تأتي قوة الحب التي تلغي الأنانية، وتبعث الفرد وتسمو به نحو نوعية روحية جديدة، ويرى تشيخوف ان الحب الجنسي يحافظ على المساواة بين المحب والحبيب، ومع اعترافه بالحب الجنسي، فان تشيخوف يرى ان الجنس اذا كان فقط هو هدف الحب، فانه يقتل كل المشاعر الجميلة.

في هذه المقالة نرى تأثير افكار افلاطون على تشيخوف الذي كان معجبا بالفيلسوف اليوناني، وكثيراً ما خاض نقاش عنه مع تولستوي، فالحب عند افلاطون هو صعود وهبوط، أو حسب قوله في محاورة الجمهورية هو افروديت السماوية وأفروديت الارضية، وفي نهاية الامر ينبعث في الحب المبدأ المثالي، المرتبط بصورة «الانثى الخالدة» وهذا بالذات ما يكسب الحب دفقات سعادة غير مألوفة، وهو ايضا ما يفسر آلام الحب المرتبطة برغبة الانسان بالتمسك بصورة الحبيب المثالي.

وقد حاول تشيخوف ان يشرح هذا المبدأ من خلال بطل مسرحيته ايفانوف، فنحن ازاء، مثقف روسي شاب اختل توازنه ذات يوم، ونراه يعاني من شعور دائم بالإخفاق ولهذا هو يرفض ان يجرب أي شيء يبعد عنه ذلك الإخفاق. ان كبرياءه وعزة نفسه هما ما يجعلانه يقبل الإخفاق ويواكبه من دون اي تطلّع حقيقي الى اية مقاومة. فهو الذي كان أول الامر قد بدأ حياته رجلاً ناجحاً وتزوج امرأة حسناء اختطفها خطفاً من اهلها الذين لم يكونوا ليريدوا لابنتهم ان تتزوج من غير طبقتها الاجتماعية، وبدأ يشق طريقه. غير انه سيحدث له ذات لحظة ان يتوقف فجأة ليمعن التفكير في ما اذا كان كل ما فعله او يفعله الآن عبثاً في عبث. وفي الحقيقة ان هذا التساؤل الوجودي ظهر لديه متزامناً مع موت زوجته حيث يرى ايفانوف ان كل ما حوله ليس اكثر من دمار وخراب. وهكذا، على حين غرة ومن دون سابق انذار ايضاً، يتخذ



الماضي - لا الحاضر ولا المستقبل - بالنسبة اليه سمات براقة زاهية، وأملاً لا يمكن الوصول اليه. ان الأمل صار وراءه لا أمامه. وهو، اذ يبدو في لحظات تجليه وهدوئه، متحدثاً بارعاً، يحدث ان تغرم به، الحسناء ساشا.. ويخيل اليه للحظة انه يمكن ان يبادلها هذا الحب، كما يمكن الحب ان ينفخ فيه روحاً جديدة وثابتة. لكن الحب، بدلاً من ان ينمي لديه مثل هذا الشعور ويغدو بالنسبة اليه اشبه ببارقة أمل، نراه يرفض هذا كله... في لحظة يبدو الاختيار امامه ممكناً: فموت زوجته ووصوله الى لحظة انعطافية في حياته، وضعه امام اختيارات عدة واهمها الحب الجديد والانفتاح على الحياة. لكنه يرفض هذا كله، ويختار بدلاً من ذلك ان ينهي حياته في اللحظة نفسها التي يكون فيها قادراً على البدء بحياة جديدة. ان ساشا ظنت أن للحب الجديد الذي سيعيشه ايفانوف قوة تستطيع إنقاذه من الوضع الذي غرق فيه، لكنها لم تدرك ان ايفانوف كان يعيش عقدة الحب المثالي الذي لايستطيع التخلص منه.



الحب في مكان آخر

قرر تشيخوف ان تمثل يافوريسكا الحسناء دور ساشا في المسرحية، وكان كمن يعرف ان دربه لن تقوده الى يافوريسكا التي أُغرمت به ورغبت في ان تعبر له، عن حب حقيقي، لكنه مثل بطل مسرحيته ايفانوف يعتقد ان الحب في مكان آخر.

المكان الآخر كان ليديا افيلونا التي مر على لقائهم الاول ثلاث سنوات، ففي كانون الثاني عام ١٨٩٢ كان مدعوا الى حفل في موسكو، بمناسبة نجاح مسرحيته «اليوبيل»، كان يشعر بالسأم من أحاديث بعض الضيوف، ولكن فجأة شاهد في المرآة وجه ليديا الفاتن، كانت ترفع يدها اليمنى وتزيح خصلة من شعرها الى الخلف، وبينما اخذ ينظر اليها في المرآة تذكر اول لقاء بينهما وسأل نفسه: هل ستتذكرني، هل ستقوم



بيننـا تلك الصلة الحميمية التي قامت قبل ثلاثة اعوام ؟ وفجأة وجد يده تمتد اليها سحبها بشوق وهو يقول

- ما كنت أتوقع ان أراك

- لكني توقعت ان أراك قالت له.

- هـل تعرفين ماذا سـنفعل، سـنجلس معا مرة اخـرى، كما فعلنا من قبل

- لا فائدة قالت وهي تبتسم، سيجلسونك انت مع كبار المدعويين

- سنهرب ونجلس في مكان بعيد.

- جميل جدا وسيقولون هرب مع امرأة متزوجة

- ألا يبـدو لـك اننـا حين التقينا منـذ ثلاث سـنوات، وبالرغم اننا لم نكن نعرف بعضنا البعض، كأن الأمر كما لو اننا وجدنا بعضنا بعد افتراق طويل

- اجابته وهي تنظر اليه اجل.. اجل.

- اجـل طبعـا، اعرف ان شـعوراً كهـذا لايمكن ان يكون إلا شـعورا متبادلا

- لكني اخاف ان اجرب هذا الشعور، ففي النهاية لا أمل لنا

ثم سألها من غير توقع

- كم عمرك

- ثمانية وعشرون

- وانـا فـي الثانية والثلاثيـن، وحين تفارقنا كنا أصغـر مما نحن الآن بثلاث سنوات..كنا شباباً

- زوجـي كان يذكرني دائما بانني لـم أعد شـابة، ويضيف الى عمري بعض السنين، ثم نهضت وهي تقول له: سنلتقي مرة اخرى حتما

- سآتي من أجلك

ما ان وصل تشـيخوف الى البيت حتى كتب لها رسـالة: «ايتها الفاتنة الغاضبـة، أحـب كثيـراً ان اراك مـرة آخـرى، كثيرا جدا، حتـى ولو كنت



غضبي عليَ، فانت تتمنين لي الخير، على كل حال سأكون بعد شهر في موسكو، هل بوسعك ان تكوني رحيمة ونتناول معا عشاء او غداء، سيكون ذلك جميلا حقا، ولن أخذلك، لن يبقيني في البيت خلال الايام الماضية سوى المرض، اشد على يديك، وأبعث بأحر الاحترامات».

كان تشيخوف يندفع باتجاه ليديا، فلأول مرة يبدو له الأمر انها المرأة التي يمكن ان تدفعه دفعا الى التمسك بالحياة، وكتب لشقيقه ميخائيل انه يتمنى ان يجد في قلب ليديا مكاناً خاليا لرجل حزين وبائس، لكنها كانت تعلم انها لاتستطيع ان تمنحه هذا المكان، فهي أمراة متزوجة وام لطفل، وعرف تشيخوف ان هذا الحب يمكن ان يقتله، فقرر ان يبتعد عنه، فقام برحلة طويلة الى جزيرة سخالين في سيبيريا والتي كانت مكانا لتنفيذ الاحكام على المجرمين، وكتب تشيخوف عن ظروف حياته وعن المساجين، لكن طيف ليديا لم يكن يفارقه.

من هناك يكتب لها رسالة: «هل تتذكرين لقاءاتنا الاولى، هل تعلمين انني كنت ولازلت مولها بك، وان الامر جديا، انا احبك، ويخيل الي انه ليس في وسعي ان احب امراة في الدنيا بهذا الشكل، انت جميلة ومثيرة، وفيك طراوة وفتنة تدير الراس، إلا انني اعرف انك ستهجرينني في يوم من الايام، ان الحب الذي احبك اياه يجب ان يكون نقياً ومقدساً، وان يدوم طيلة الحياة، كنت اخشى ان المسك، كنت اخاف ان اجرحك».



السيدة صاحبة الكلب

في العام ١٨٩٧ سيتذكر تشيخوف ليديا من جديد وسيقول على لسان ايفان فوينيتسكي في مسرحيته الشهيرة الخال فانيا

فوينيتسكي: منذ سنوات قابلتها، كانت انذاك في العشرين من عمرها، وكنت في الثلاثين، كان ممكنا ان تصبح زوجتي، نعم كنا استيقظنا الآن معا بسبب العاصفة، هي خائفة من الرعد، وانا اضمها إلى



صدري، وأهمس لاتخافي انا هنا، اوه، يالها من افكار مدهشـة، ما اروع ذلك، لقد خدعت.

أستروف: انت هنا وحدك، لاسـيدات، لن تجد ركنا للنوم، العاصفة ايقضتني ياله من مطر، فوينيتسـكي: عندما لايوجد حب حقيقي، يعيش الناس على السراب، لكنه في النهاية حال افضل من لاشيء.

ويعود تشـيخوف إلى حكاية ليديا في قصته الشهيرة «السيدة صاحبة الكلـب» أنها قصـة تحكي عن لقاء تحول إلى علاقة تحولت إلى هوس. فلمـاذا حدث هـذا؟ الظاهر أن تشـيخوف أيضا لا يعـرف. ولا هو حتى حاول أن يشرح حياة ليديا ومعاناتها

«كنت في العشرين من عمري عندما تزوجته، وكان الفضول يؤرقني، وكنت اتوق الى شـيء أفضل، كنت اقول لنفسـي هناك حياة اخرى حقا، كنت اريد ان اعيش واعيش».

وفـي مـكان اخر من القصة يكتـب «أحبا هو وآنا سـيرجيفنا بعضهما كشـخصين قريبيـن، كأهل، كـزوج وزوجـة، كصديقيـن رقيقيـن، وبدا لهمـا أن القدر نفسـه قد هيأهما الواحـد للآخر، ولم يكـن مفهوما لماذا هـو متزوج وهـي متزوجة، وكأنما كانـا طائرين مهاجريـن، ذكرا وأنثى، أمسكوا بهما وأجبروهما على العيش في قفصين منفردين».

كانـت بطلـة السـيدة صاحبـة الكلب ليديـا افيلوفـا التي جلبـت إليه مخطوطـة أول قصـة قصيرة لها، ووقعـت على الفور فـي غرامه. بعدها ادركـت أنـه ما من فرصة لها، وحين نشـرت «السـيدة صاحبـة الكلب»، افترقا، ولم يراها ابداً، فقد عرف الجميع من هي السـيدة التي في الرواية القصيرة.




مكتبة
الفكر الجديد

-١٢-

الذين يحبون حقاً لايتزوجون

حدث الأمر معي في بداية السـبعينيات، كان عبد الرحمن السامرائي «ابو عوف» يتخذ من دكان صغير في بداية سـوق السراي مقرا له، أذهب اليه كلما زرت شـارع المتنبي، وكانت العربة التي يسـتخدمها في عرض الكتـب وفي التنقل مصفوف عليها كتب من كل شـكل ولون، وانا أنبش فيها بحثاً عن رواية او كتاب في المسرح، لمحت صورتها على الغلاف، امـراة جميلة تبدو على ملامحها الحيرة، قـرأت العنوان «بين القصرين» وقبل ان اعرف اسم المؤلف قلت لابو عوف.

- هل هذا كتاب جديد؟

- قال لي: ألم تقرأ من قبل لنجيب محفوظ

- قلت: أتذكر انني شاهدت له أفلاماً

- أجابني هذا الكتاب هو الجزء الاول من ثلاثيته وهي موجودة لدي كاملة.

ناولني الاجزاء الباقية من الكتاب، ومضيت الى أقرب مقهى جلست وفتحت بين القصرين.

كنت أتعرف على نجيب محفوظ اول مرة، لم أعرفه من قبل، عرفت طه حسين والعقاد وشغفت برواية توفيق الحكيم عودة الروح.

أخـذت أقلب صفحات بين قصرين، فوجدت نفسـي وانا أسـافر في رحلـة ممتعة الى شـوارع مصر القديمة، لتنفتح امـام عيني مدينة القاهرة



بكل سحرها، وشعرت وانا الشاب المراهق بفتنة اكتشاف شيء جديد، أتذكر ان الوقت مضى سريعا، كانت شخصيات الرواية تنطوي ملامحها على ذلك الجمال الأخاذ الذي يراود أحلام فتى مراهق مثلي، وكانت سطور نجيب محفوظ تؤكد لي ان الحلم يحرر الانسان، وان الحب مرادف للمعرفة.

****

حب من طرف واحد

بدأت علاقته بالمرأة في سن مبكرة، ففي سنوات طفولته التي أمضاها في حي الجمالية، وهو احد احياء القاهرة القديمة، في ذلك الجو عاش اول قصة حب حقيقية في حياته، ويروي لرجاء النقاش في صفحات من مذكراته انه: «كان على اعتاب مرحلة المراهقة عندما شدته تلك الفتاة، وجه ساحر يطل من شرفة أحد البيوت»، لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره فيما كانت هي تقترب من العشرين، فتاة جميلة من أسرة معروفة، لها وجه اشبه بلوحة «الموناليزا»، ظل حبه لها من بعيد ومن طرف واحد، لم يجرؤ يوماً على محادثتها او الاقتراب منها، او حتى لفت اهتمامها، كان حباً صامتاً، يكتفي صاحبه بمجرد النظر الى هذه اللوحة الجميلة التي تطل عليه بين الحين والآخر: «وعرفت كيف يغيب الانسان وهو حاضر، ويصحو وهو نائم، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم». قصة الحب الاولى هذه سنجد ملامحها واضحة من خلال شخصية كمال عبد الجواد في الثلاثية.

يذهب كمال عبد الجواد الى قصر آل شداد لمقابلة اصدقاء المدرسة ومنهم ابن صاحب القصر حسين، هناك يشاهد عايدة: «كنت وحسين وإسماعيل منهمكين في شتى الاحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخيم محّييا، التفت وانا من الذهول في غاية.. من تكون القادمة؟



كيف لفتاة ان تقتحم على غرباء مجلسهم؟ ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل، وتناسيت التقاليد جميعا، وجدتني حيال مخلوق لايمكن ان يكون من هذه الارض جاء، بدت وكأنها صديقة الجميع إلّاي، وقف حسين يعارف بيننا: صديقي كمال..أختي عايدة».

ويرسم نجيب محفوظ لنا أبعاد هذا الحب الذي جاء مباغتاً: «من اول نظرة ياقلبي، ما ارتدت عنها عيناي حتى آمنت بانها زيارة مقيم لازيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن في مثلها تخلق الارواح في الأرحام وتزلزل الارض.. رباه لم أعد أنا. قلبي تلاطمه جدران الاضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتمادى حتى يمس الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثا لايدري مم يستغيث، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا، حلفتك بكل عزيز ان لاتذهبي ابداً، انت يا ألهي في السماء، وهي في الارض، آمنت بأن ما مضى من حياتي كان تمهيدا لبشارة الحب».

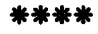
أهم نجيب محفوظ بفلسفة الحب منذ كتاباته المبكرة، ونراه في مقال نشر عام ١٩٣٤ بعنوان «فلسفة الحب» بتشجيع من استاذه سلامة موسى، يتبنى افكار الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون عن مفهوم الشعوربالحب، كان عمره انذاك ثلاثة وعشرين عامًا، وفي المقال يحدثنا محفوظ عن الحب الذي هو في نظره مشاعر لايمكن تحديدها، فالحب هو اول الاشياء وآخرها وهو الذي يُسير الأشياء جميعًا: «الحب هو تلك النسمة الحية التي تشيع في جميع الكائنات الحية، نبصرها في تآلف الخلايا وتجاذب الأطيار وتزاوج الإنسان، وقد يكون من الحكمة -إذا رغبنا في أن نزكي إحساسنا به أو نسمو بعواطفنا فيه- أن نقصد جماعة الشعراء نصغي لأناشيدهم، وقد وهبهم الله من طاقة الإحساس بهذه العاطفة وغيرها ما يبلغهم مناهم من تصوير العواطف العميقة؛ حيث يقف العقل حائرًا مترددًا.. فما علاقة الفلسفة بالحب الحق؟ إن أي فلسفة هي وجهة نظر يفسر بها الفيلسوف مختلف الحقائق، ولما



كان الحب أحد هذه الحقائق فللفلسفة رأيها عنه، أو قل فللفلسفات المختلفة آراؤها المختلفة عنه، فواجب علينا نحو أنفسنا أن نعرف هذه الآراء. نعم إن الحب عاطفة ولكن المعرفة التامة للعاطفة لا تتطلب فقط إحساسنا بها وإنما يجب أن يضاف إلى ذلك امتحان وتكييف العقل لها حتى تملأ حقيقتها القلب والعقل؛ فيظهر العارف بمتعة الظافر بالنور بعد التخبط في الظلام ويحس إحساس المطمئن بعد التردي في مهاوي القلق والشك».

ومثلما يؤمن برجسون بأن الحب يوجد قبل وجود موضوعه وبعده، فالفيلسوف الفرنسي يؤكد اننا كثيرا ما نحلم بالحب من غير أن نحس وبموضوع الحب نفسه، نجد نجيب محفوظ يحاول شرح هذه النظرية في مقالته: «الحب عاطفة مركبة؛ بل هي أعقد العواطف جميعًا ولا عجب فهو محور الوجود الحي والحقيقة أنه لا يوجد إنسان لا يحدوه في عمله حب سواء في طفولته أو شبابه أو كهولته أو شيخوخته، كأن الحب أداة في يد الحياة تسخرنا به لأغراضها».

ويضيف محفوظ: «لعل نوع الحب الذى يمنحه قلب الشخص يدل أقوى الدلالة على نفسيته وأسلوبها في الحياة ويكشف عن شخصيته وما فيها من قوة أو ضعف، سمو أو انحطاط، فالحب على هذا مفتاح سري نستطيع أن نلج به مغالق النفوس».



الحب سر مغلق

كان نجيب انذاك يمر بمرحلة عشق جديدة هذه المرة كان الموقف معقدا، فقد قابلها بالصدفة ونجده يصف ملامحها في روايته «المرايا»:
«كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت، عندما شاهدتها للمرة الاولى تسلل إلى روحي قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة والكآبة».



وفـي مكان آخـر من الروايـة يصف لنا محفوظ مشـهد اللقـاء الاول: «نظراتنا تتسـلل في اسـتحياء فيستحوذ علي أمل خلاب. أمد يدي فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف. وبرقة تقول لي:

- لا أحب العبث

وأضيق بحديثها وأقول:

- إنك لاتعرفين الحب.

فتقول بآسى:

- انت الذي لاتعرفه

وتقول معاتبة:

- اثبت لي انك تعرف الحب مثلما أعرفه

يجد نجيب محفوظ نفسـه بمواجهة فتاة هادئة الطباع، راجحة العقل، تـرى الحب أعمق غورا مـن مجرد عبث صبياني، لذلـك ترفض محاولته برقـة المحـب الـذي يحـرص على معشـوقه ونجـده يصف مشـاعره في المرايـا: «ويصرفني اليأس فأتعزى بالزهد، أمضي مصمما على النسـيان، ولكن ترجعني الاشـواق او رسـالة عتاب او لقاء غير متوقع، فأجد نفسـي مرة اخرى حيال قلب محب وعاطفة طاهرة وارادة لاتلين».

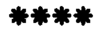
ويكتـب نجيب محفوظ فـي مذكراته التي حررها إبراهيـم عبد العزيز بعنـوان «انا نجيب محفـوظ» : «الحب ان لم ينته بالزواج يخفت ويتوارى ولكنه يطل من الذاكرة بين الحين والآخر، ولقد صوّرت قصتي مع الحب فـي العديـد من رواياتي، واسـتطيع ان اقول ان ماكتبته في «قصر الشـوق» يمثـل جوهر تلك القصة، فحين يصل الانسـان الى سـن الحب يخيل اليه انه وقع في حب كل جميل يصادفه، حتى يأتي شـيء يفهمه ان الحب غير كل ما قلت، أما لماذا اتجه الحب لهذا الشخص بالذات دون شخص آخر فهذا سر مغلق ولايزال سراً مغلقا حتى الآن».



يكتب هنري برجسون في كتابه الطاقة الروحية: «الحب يقوم على اساسين هامين هما: الجاذبية الجنسية، والتوافق الروحي وبدونهما لايقوم حب».

في رواية الطريق لنجيب محفوظ يجد صابر نفسه بين صورتين للحب، الاولى مع إلهام التي تمثل صورة للحب النقي الخالي من الشهوات، والثانية مع كريمة التي تُوقظ شهواته وتحاول ان تدله على حقيقة الحب كما تفهمها.

وعلى لسان كمال عبد الجواد الذي يمثل قرين نجيب محفوظ جاءت تلك العبارة: «ووجد في مراقبتها لذة لا تعادلها لذة، وأحس تخديرا ودّ ألا يصحو منه أبدا، ويتدفق الحنان من حناياه، فتمنى لو يحتويها فى تلك اللحظة بين يديه».



سيرة كمال عبد الجواد

شعر نجيب محفوظ أنه أمضى حياته وهو يتجه نحو نقطة يتمكن معها من كتابة رواية عن حياته الشخصية، فهو الآن في الاربعين من عمره (عام ١٩٥١) - ولد نجيب محفوظ في ١١ ايلول عام ١٩١١ -، ومرت سنوات على وفاة والده عبد العزيز إبراهيم، ويخبر جمال الغيطاني في كتاب «المجالس المحفوظية»: «انه فوجئ برد فعله أزاء رحيل الأب الذي كان كتلة لا يمكن اختراقها. لم يبكِ أو يُشلّ، بل خاف وشعر برغبة في الكتابة عن رجل ترك أثراً كبيرا في حياته». حين بدأ كتابة قصر الشوق كان في الاربعين، وتذكر ان والده كان يعيش أجمل سني حياته في هذه السن. أخذت الرواية عاما كاملا من حياته وانتهت بكتاب يبلغ حجمه ثلاثة أضعاف روايته العادية. رفض الناشر طبعها بسبب كبر حجمها، أكثر من ألف صفحة، احتفظ بها يوسف السباعي في درج مكتبه كان ينوي نشرها في مجلة الاثنين، لكن الثورة قامت عام



١٩٥٢، فيتم نشرها متسلسلة في مجلة الرسالة الجديدة، وكان نجاحها مشجعا لدار النشر ان تطبعها بعد ان اقترح الناشر تقسيمها الى ثلاثة اجزاء حسب الفترات التاريخية «بين القصرين، قصر الشوق، السكرية»، وإذا تأملنا رؤيته للاسرة والحب في أصداء السيرة الذاتية التي كتبها في أواخر حياته نستطيع أن نلمس تعلقه وشغفه بالحب حتى لو كان أطياف خيال، فقد كان لهذه العاطفة مفعول السحر في نفسه، وفي نفوس شخصياته، وقد تعلق قلب نجيب محفوظ بالحب وراه دوماً فرصة العمر حتى لو كان محض خيال، وهذا ما يتردد على لسان كمال عبد الجواد في الثلاثية: «ان في نفسي أشواقاً تحتاج الى عناية وتأمل حتى تنضج». أشواق يهزّها شغفه بمطالعة كتب المنفلوطي: «هل من العيب ان اكون مثل المنفلوطي يوما، وأصور بدقة مشاعر الحب والعاطفة الجياشة التي تتملك المحبين».

انه يواجه نفسه على صفحات الرواية: ماذا يروم من الحب؟ ثم نراه يجيب من خلال مقال يكتبه: «أن أحبها، ايجوز ان تنبثق في التفس هذه الحياة كلها» ثم نراه يتساءل عن الغاية وراء ربط الحب بالزواج، فهو يعتقد ان أي اتصال بينه وبين محبوبته لابد ان يكون عن طريق العطف الروحي من ناحيتها، والتطلع والهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة اشبه، بل هو العبادة نفسها، فاي شأن للزواج في هذا الحب

- الذين يحبون حقاً لايتزوجون
- الذين يحبون ما فوق الحياة لايتزوجون

ورغم ان عايدة في قصر الشوق لم تفصح عن حبها لكمال إلا انه جعل من فكرة الارتباط بها فوق أمانيه وحين اتيحت الفرصة للانفراد بها تسأله:

- الآن دعني أسالك ماوراء ذلك

يجيب في حيرة

- هل وراء الحب شيء



وعادت لتقول

- ان الإعتراف بداية وليست نهاية.اني اتساءل عما تريد

- فأجاب بحيرة ايضا

- أريد.. أريد ان تأذني لي بان أحبك

- أهذا حقا ما تريد، ولكنك ماذا انت فاعل إذا لم آذن لك؟

- فقال وهو يتنهد

- في هذه الحال أُحبك ايضا

- فيم اذن كان الاستأذان.. انت تحيرني، ويبدو انك تحير نفسك ايضا

- فقال بجزع: اني حائر؟ ربما، ولكني احبك، ماذا وراء ذلك، يخيل إلي احيانا اني اتطلع إلى أمور تعجز الارض عن حملها، ولكني إذا تأملت قليلا عجزت عن تحديد هدف لي، خبريني انت عن معنى هذا كله، أريد ان تتحدثي وانا استمع، هل عندك ما ينتشلني من حيرتي؟

- قالت باسمة: ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي ان تكون انت المتحدث وانا المستمعة ألست فيلسوفا؟.

بعد عام من نشر الجزء الاول من الثلاثية وبالتحديد عام ١٩٥٣ يكتب نجيب محفوظ عن مفهوم الحب عند كمال عبد الجواد بطل قصر الشوق

«في الثلاثية نجد كمال عبد الجواد يتساءل:إذا كنا نحب الكمال في المحبوب فكيف يتأتى لنا أن نحب ما هو بعيد كل البعد عن الكمال؟ ويرى أن الخطأ يأتي من أن الحب لم يأخذ مجراه الطبيعي وأنه يأتي مما يضلل عين المحب عن الحب الصادق وليس من الحب نفسه، فإذا صدّقت نفس الحب السامي فالذنب ذنب النفس، ويعزون الفساد إلى النفس البشرية،

إنما العاشق هو الذى يحب المرأة فوق ما تستحق أضعافًا؛ بل هو يحبها أحيانا عن غير استحقاق، أن الحب فردي ذاتي وأن كل فرد يخضع



بنوع من الحب ولذلك فطريقة الروائي الذي يريد أن يحكي قصة غرام شخص ما أن يبدأ بسرد تفاصيل حياته الاجتماعية والنفسية لأنه يعلم بداهة أن الحب يلحق بذاته ويتبع طبيعته الخفية».

ويذهب نجيب محفوظ في تفسيره للحب بانه عاطفة معقدة فيها الميل البيولوجي والوهم الذاتي والجاذب الموضوعي والإلهام القدسي والسحر الساذج، ويؤكد في مقالته ان أنواع الحب المختلفة تأتي من تغلب أحد عناصره الكثيرة، فقد يغلب على النفس فيصير الحب جنونًا.

****

حب من نوع آخر

لم تتوقف محاولات نجيب محفوظ للحب، فيتعرف على اكثر من فتاة، ولكن هذه المرة استطاع ان يقيم حوارا مباشرا مع فتاته وكانت مثله تبحث عن حب من نوع آخر، حب متجرد من الغايات.

ويصف لنا نجيب محفوظ ملامح هذه الفتاة في واحدة من حكايات حارتنا: «كانت دقيقة القسمات خفيفة الروح، مليئة بالحيوية والمرح، لكنها جميلة وجسورة بقدر ما هي حريصة».

ان نظرية الحب عند نجيب محفوظ، وثيقة الصلة بعمله الروائي وبخاصة في الثلاثية والمرايا وعصر الحب، حيث قدم محفوظ وصفا معمقا لعملية الحب، بدءاً بولادته، وانتهاء باعلى قمة تطوره، فالحب بالنسبة لابطال رواياته هو مبدأ حياتي رفيع، وهو في المقالات التي كتبها عن مفهومه لفلسفة الحب نراه يميز بين اربعة نماذج من الحب «الحب - الشهوة» «الحب- الشوق» «الحب - الجسدي» «الحب - الزهو» وهذا التقسيم قريب من التصنيف الذي وضعه الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون الذي كان نجيب محفوظ معجبا به اشد الإعجاب

غير ان شكل الحب الاسمى عند نجيب محفوظ ليس الحب الجسدي، بل الحب - الشوق، فهذا الحب هو الأسمى، لانه لايتعلق



بانفعال الشهوة، ولا بانفعال الغيرة، ولا بالانفعالات الاخرى، فهو حب يحرر الجسد من جميع الغرائز ونرى نجيب محفوظ يدين بالكثير لمقولة برجسـون الشهيرة «الحب مجرد الخطوة الاولى نحو الاخلاق، ومن ثم نحو التواصل البشـري».. فيكتب في سـيرته الذاتية «انا نجيب محفوظ» ان: «الحب هو تلك النسـخة الحية التى تُشـيع فى جميع الكائنات الحية تبصرهـا فى تآلـف الخلايـا، وتجاذب الأطيـار، وتزاوج الإنسـان، وقد يكون من الحكمة - إذا رغبنا أن نذكى إحساسنا به أو نسمو بعواطفنا فيه - أن نقصد جماعة الشعراء نصغى لأناشيدهم، وقد وهبهم الله من طاقة الإحسـاس بهـذه العاطفة وغيرها ما يبلغهم مناهـم فى تصوير العواطف العميقة، حيث يقف العقل حائرا مترددا».



-١٣-

الحب الاول مثل الحصبة، يُخلف اثاراً لاتمحى

في صباح يوم مشمس من عام ١٩٥٦ تتغير حياة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها إلى الابد، بتأثير نسخة قديمة من كتاب ألف ليلة وليلة، محفوظة في خزانة مقفلة تخص زوج أمها الدبلوماسي. كانت قد اكتشفت طريقة لفتح هذه الخزانة، لتقرأ وبخفية من اهلها مقاطع من هذه الحكايات، فتغوص معها في عالم ساحر من الخيال، حيث تقودها نساء ذوات بشرة بيضاء لامعة، وعفاريت من الجن في قوارير، ورجال يخوضون المعارك من اجل قبلة، تلك القراءات السرية قد ولدت لديها إحساسا بانها ستتمكن في يوم من الأيام كتابة رواية عن العشق، شبيهة برواية د. هـ. لورنس «عشيق الليدي شاترلي» التي شاهدت نسخة منها، كان يجري تداولها بين طالبات المدرسة.

الحُب الأول

كانت تحلم بالحب، وعاشت تجربتها الاولى مع معجب وحيد، احد اقارب والدتها، شاب في الثامنة عشرة من عمره، مغرم بقراءة الروايات المصورة، وذات يوم تتلقى منه اول قبلة في حياتها: «استمر إحساسي لسنوات بمذاقها الذي له طعم المرطبات».

في ذلك الحين كانت نحيفة وتصف نفسها بانها مثل «لوح خشبي» تقاطيع جسدها غير واضحة المعالم، تمني النفس لو كان



لها جسـدا شـبيها بصورة جينا لولو بريجيدا او صوفيا لورين او جين ما نسفيلد، نساء جميلات يطاردهن الرجال من شارع الى شارع.

تصف الحـب الأول في روايتها ابنة الحظ بأنه: «مثل الحصبة، كثيراً ما يُخلّف آثاراً لا تمحى». لكن هذه الآثار التي تتشـابك مع حكايات أخرى، لن تمرّ بسـهولة. وفي إحدى المناسـبات، سـألتها احدى القارئات، حول تجاربهـا الشـخصية فـي الحب، وهل لهـا علاقـة بالروايات التي نشـرتها لتجيـب: «اعتمـد على المخيلـة وليس الذاكـرة. كنت وما زلـت اتمنى ان اعيش حياة أبطالي»

ولـدت الروائيـة التشـيلية إيزابيـل الليـندي عـام ١٩٤٢ فـي البيـرو، عاشـت معظـم حياتها في بيت جدها، دار عجيبة كانـت فيها جدتها مغرمة بالاشباح، في هذه الدار خالان غريبا الاطوار، أحدهما امضى عدة سنوات فـي الهند ليرجع يعيش حياة فقير هندي يتكلم السنسـكريتية ويتغذى على الخضراوات فقط، والآخر كان مهووسـا بالقـراءة، وبفضله قرأت روايات تولستوي، وذرفت الدمع على مصير انا كارنينا، وحلمت بهذا المشهد من روايـة اميلي يرونتي الشـهيرة «مرتفعـات وذرينـغ»: «كان هيثكليف راكعا على احدى ركبتيه ليعانقها، فحاول ان ينهض، لكنها امسكت شعره وأبقته فـي مكانـه، فصاح: لاتعذبيني حتـى يصير بي الجنون، لكـن كاترين كانت تتوق الى الفرار معه إلى ذلك العالم الرائع و ان تكون معه وفيه حقاً».

وسـتتذكر هذا المقطع مـن مرتفعات وذيرنغ لتكتب فـي روايتها انيس حبيبة روحي: «أدركت أنني كنت أنتظر أيضا هذه اللحظة، منذ قرابة السنة، تشـبثت بقميصـه بكلتـا يدي ورددت لـه القبلـة، بعاطفة كنـت أحملها في أعماقي منذ زمن طويل».

في الحادية عشـرة من عمرها انتقلت مع أمها للعيش في بوليفيا، كانت تجد صعوبة للتعايش مع الذكور في المدرسة المختلطة التي كانت تدرس فيهـا: «كنت امضي طيلة الوقـت بأذنين محمرتين وقلب يطفر متقافزا.ففي كل يـوم كنت أقع في حب صبـي من طرف واحد كانت الفتيات من حولي يسـجلن في دفتر صغير ما يتلقيانه من قبلات، مع من ؟ واين، بينما دفتري



الصغير ظل ابيض، كنت اتظاهر بان تلك البلاهات لاتستثير اهتمامي، وكنت ارتدي ملابس الذكور واتسلق الأشجار كي اخفي انني أقرب لأن اكون قزمة، وان مهاراتي في الحياة والحب لاتتعدى مهارات فروج منتوف الريش».

بعد اربع سنوات من التنقل بين بوليفيا وبيروت والأرجنتين، تعود مع اخويها الى تشيلي، لتعيش من جديد في بيت الجد، كانت قد تخطنت الخامسة عشرة باشهر قليلة، تهيء نفسها لان تصبح راهبة، فقد كانت في قرارة نفسها تعتقد انها ستعيش طوال حياتها عزباء، وفجاة تجد امامها شاب يبتسم لها، وكان يروقه مظهرها، سيصبح هذا الشاب بعد خمس سنوات زوجها ميغيل، وتستعيد إيزابيل الليندي لحظة الزواج هذه في روايتها «من الجزيرة تحت البحر»: أمضى العروسان النهار الوحيد وليلتي الحب في القمرة الضيقة في سفينة روميرو توليدانو الشراعية، في تلك الليلة مارسا الحب على سرير ضيق من الواح خشبية، متأرجحين مع تيارات الدلتا، على الضوء الخافت من خلال ستارة من القطيفة الحمراء، تلامسا في البدء غير واثقين، وحيال امتلاكها بين ذراعيه كان موريس يرتجف وظن انها ستسخر منه

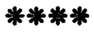
- لاتكن ابله، كيف أسخر منك، ردت عليه وهي تمسح دموع الضحك، إنني اتذكر دروس الحب التي خطر لمدام فيوليت ان تعطيها لطالباتها.

- لاتقولي انها كانت تحدثكم عن ممارسة الحب

- أجل بالطبع، هل تعتقد ان الاغواء يأتي ارتجالا

خلال الساعات القصيرة جدا في ذلك النهار والليلتين اللتين امضاها في السفينة الشراعية معا، منحا نفسيهما سعادة مشتركة، كانا شابين فتيين، وكأنهما متحابين منذ الأزل.

بزغ فجر اليوم التالي وكان عليهما ان يرتديا ملابسهما، ويتبادلا القبلات، وان يخرجا لمواجهة العالم».





غرابة العشق

عندما بلغ الأربعين من عمره قرر أن يكتب رواية عشق متفردة، كان يريد أن يكتب عن حالات المسرة والسعادة التي عاشها، بعدما تجهّم طويلاً في تأمّل مرارات الحياة وعبث الدنيا.. كانت الفكرة أن يسرد جزءا من حكاية عاطفية، يكمل بها ما ابتدأه في روايته «أبناء وعشاق» التي قدم في الجزء الأول منها لمحات من حياته: طفولة أراد لها الأب أن تكون خشنة، فعامل المنجم الذي بالكاد يعرف القراءة والكتابة أراد لابنه الرابع أن يدرك جيدا أن الحياة تحتاج إلى ساعدين قويين، وليس قلب رقيق، فيما الأم التي تنتمي إلى عائلة برجوازية كانت تتمنى أن يصبح أبناؤها رجال دين أو أساتذة في الجامعة، ولأن الكتابة لم تكن مجدية في نظر الأسرة فقد اضطر د.ه. لورنس أن يكتب بطريقة سرية، وذات يوم قرأت أمه فصلا من رواية «الطاووس الأبيض» فتعجبت وقالت له: «ولكن يا ولدي كيف تعرف أن الأمور كانت تسير على هذا النحو ؟».

كتب د.هـ.لورنس رواية تهافتت عليها دور النشر وصدرت أكثر من نسخة مزورة عنها نتيجة الطلب المستمر عليها، وكانت هذه الرواية هي«عشيق الليدي شاترلي»، التي ما تزال تُطبع حتى اليوم، معظم قرائها في أوروبا من النساء.

أنهى لورنس «عشيق الليدي شاترلي» في لحظة كره للمجتمع البرجوازي، استمر في كتابتها أكثر من عامين بين خريف ١٩٢٧ وصيف ١٩٢٩ وأمضى عيد الميلاد وحيدا بعد انفصاله عن زوجته. في ذلك الوقت كان يكتب الرسائل إلى عدد من أصدقائه، قال في واحدة منها: «يبدو لي أن الأمر الرئيس بالنسبة للمرأة هو أنها لا يمكن تعريفها بكلمات من قبيل الحب أو الجمال أو الشرف أو الواجب أو الجدارة أو التحرر، فعلى المدى البعيد لا تمثل هذه الكلمات حقيقة المرأة »، وفي أخرى يضيف: «إن ما تحتاج إليه المرأة هو الاكتفاء، على الأقل الاكتفاء الجسدي بقدر ما هي بحاجة إلى الاكتفاء النفسي، الجنس بنفس قدر ما تحتاجه من الروح».



لـم يعـد لورنس يطمـح بكتابة رواية عن حب لم يسـعد بـه، فالأمر تحول إلـى ارتياب في العواطـف التي تريد طبقـة البرجوازيين فرضها على المجتمع.. تدور «عشـيق الليدي تشـاترلي» حول السـير كليفورد تشـاترلي، رجل واسـع الثراء ألحقت به الحرب عاهة وتركته مشـلولاً ومصاباً بعجز جنسـي، فانصـرف إلى الكتابة والتأليف لتعويض فشـله في علاقته الحميمة مع زوجته الليدي تشـاترلي، وهي في أوج شـبابها وأنوثتهـا. لـم تكد تمضي فترة حتى ضاقت ذرعـاً به وأقامت علاقة مع ميلـورز، بسـتاني يعمـل لدى زوجهـا، تحوّلت فـي ما بعـد إلى علاقة روحيـة على رغم الإختلاف الطبقي الشاسـع بين العاشـقين، وتُوّجت في ختام الرواية بمولد طفلهما والاستعداد للزواج، حيث نجدها تغادر بيت الزوجية لترتيب حياتها من جديد.

تسـترجع ايزابيل الليندي اللحظة الاولى التـي تصفحت فيها رواية عشـيق الليدي شـاترلي، كانت فتاة مراهقـة، تنظر الى العشـق باعتباره امـراً غريباً، ولـم تكن ترغـب ان يعرف احد بماذا تحلم، لكن صفحات الروايـة جعلتها ترسـم في خيالها صورة لحبيب يركـض باتجاهها فيما المطر يهطل بغزارة.



مثل بابلو نيرودا

انطلقـت مـن حياة البلد الذي يقـع في جنوب اميـركا اليتينية، لتحيط بالوضـع البشـري مثـل مواطنها الشـاعر بابلو نيـرودا. لا بالشـعر الذي حلمـت به، بـل بالروايات التي تجاوزت العشـرين روايـة. حاولت فيها التشـيلية إيزابيـل الليندي (٧٥ عاما) ان تسـجل تاريخ العشـق وقصص الغـرام. بقيت تكتب سـراً وترسـل المخطوطات إلى الناشـرين لترفض وتعـاد إليها. عشـرة أعوام تجـرب، تكتب وتُرفض لتكتـب وترفض إلى أن جلسـت في الاربعين مـن عمرها في المطبخ. كتبـت من دون خوف



هـذه المـرة، وأحسّـت بأنها تقـوم بمهمة في عالـم حقيقي. حمـل اليها البريـد خمـس نسـخ مـن روايتهـا الاولـى «منـزل الارواح »، فشـعرت بالرهبـة والخوف من ان يفتضح سـرها وخبأتها فـي درج المكتب. كان عليهـا الانتظـار أسـبوعاً لتجـد الصحف تشـيد بروائية جديدة سـاحرة، تضع اسـمها بين اشـهر كتاب اميركا اللاتينية: «كنت فـي الاربعين حين حاولـت ان اكتب سـيرة ذاتية مطرزة بالفنتازيا عن عائلتي التي. وسـوف يكـون مـن الأفضل كثيراً لو إني بدأت الكتابة في سـن التاسـعة عشـرة. لكني لم أستطع. كان عليّ أن أساعد عائلتي. كنت غير جاهزة. وفكرت أني أحتاج إلى خسارة وطني لكي ابدأ بالكتابة لأن رواية (بيت الأرواح) كانت محاولة لبعث الحب الذي خسـرته والعائلـة التي فقدتها، وبدأت كتابة رسالة إلى ذلك الجدّ الأسطوري. كانت رسالة روحية، رغم أنّه لن يقرأها أبداً. كتبت جملتي الأولى وأنا في حالة غيبوبة، وقبل أن أستعيد قدرتي على الإدراك كنت قد كتبت: وصل برّاباس إلى الأسرة عبر البحر. من هو برّاباس وما علاقته برسـالة الوداع التـي أكتبها لجدّي؟ رغم أنّني لـم أعرف لماذا، ولكن وبثقة الجاهـل، فقد تابعت الكتابة بلا توقّف ولا راحـة، فـي كل ليلة ودون أن أحسّ بأنّني أبدل مجهـوداً كبيراً، كما لو أنّ هناك أصواتاً خفيّة تهمس لي بالقصّة؛ وبانتهاء العام تجمّعت لديّ ٥٠٠ صفحة فوق طاولـة المطبخ. هكذا وُلِدت رواية بيت الأرواح»، فمجيء برّابـاس عبـر البحر قد غيّر قـدر إيزابيل الليندي، ولا شـيء عاد كما كان بعـد أن كتبت تلك الجملـة. هذه الرّواية دفعت بها إلى عالم الأدب وبلا رجعة.

في سـن الخامسـة والأربعين كانت لديها رغبة غيـر عادية في إظهار حياتها الخاصـة على الملأ. كتبت بلا تحفظ عن الطريقة التي قابلت بها زوجهـا الثانـي: «محام أميركـي ذو سـحنة إيرلندية بمظهر ارسـتقراطي وربطـة حرير كان يتكلم الاسـبانية مثل مكسـيكي ولديه وشـم على يده اليسـرى». كانت قـد تطلّقـت حديثاً مـن زوجها: «الـذي تحمّلني بصبر وأنـاة لأزيد من ربع قرن» وبينما كانت تتجـول في كاليفورنيا، حدث أن



تصادفت مع وليام غوردون، آخر عزاب سان فرانسيسكو، هذا الرّجل أضفى سروراً على حياتها وأوحى لها تأليف روايتها: الخطة اللاّنهائيّة.: «بعد صدور الرواية انتابني الخوف لأنّه لا يحتوي شيئا من الرمزية أو البطولة، كان شهوانياً خالصاً. عندما تعرّفت على وليام كنت أنام وحدي ولوقت طويل، رأيته لأسبوعين أو ثلاثة، فقد سَقطتُ عليه من أعلى مثل إعصار، وقبل أن أصل إليه لأنّه كان متزّوجاً، لم يتبقّ لي إلا الاستيلاء على قصّة حياته لأكتب رواية عن كاليفورنيا».

تتذكر انها أرسلت إليه بالبريد عقداً فصلت فيه مطالبها للتهيؤ للزواج، على الرغم من أنها: «مندهشة تماماً من الطريقة التي كان يعيش بها وكم كانت عائلته تبعث على الفزع».

تقول عن الضجة التي أثارها أقاربها في تشيلي عن رواية بيت الأرواح «لو خيّرت بين أقاربي وقصة جيدة لاخترت القصة».

رواية بيت الأرواح التي بدأت كتابتها كخطاب تبعثه إلى جدها المحتضر خلال منفاها لتخبره أنها ما زالت تتذكر تاريخ عائلتها ولم تنس أصولها رغم أنها فارقت بلادها رغماً عنها. مات الجد وهي مستمرة في الكتابة ليتحول هذا الخطاب الطويل إلى الرواية التي بدأت مسيرة الكاتبة الأدبية.

في بيت الارواح نقابل سيفيرو رجل في منتصف العمر، غني وناشط سياسي والناشط السياسي زوج نيفيا ووالد بطلة الرواية كلارا. الفتاة الصغيرة التي تمتلك قدرات خاصة تجعلها قادرة على قراءة الأفكار ومعرفة المستقبل والكثير من المهارات الأخرى، لها العديد من الإخوة والإخوات، أهمهم أختها الكبرى فائقة الجمال والعذوبة روزا وخطيبها استيبان تروبيا الفتى الفقير الذي يبحث في المناجم عن الذهب من أجل الثراء سريعاً والزواج بخطيبته الجميلة.

بسبب الخصومة السياسية تموت روزا بالشراب المسموم الذي كان يجب تقديمه لوالدها، لتخلف جرحاً عميقاً في نفوس كل من حولها، بدءاً من والدها الذي اعتزل السياسة وأختها كلارا التي توقفت عن



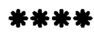
الـكلام لإحساسـها بالذنب بسـبب نبوءتها فـي ذات يوم الوفـاة أن أحد أفراد العائلة سـيموت، والأهم خطيبها إسـتيبان الذي قـرر ترك المدينة، وذهب إلى الريف لتنمية مزرعة والده الخربة.

بعـد مضي العديد من الأعوام يعود اسـتيبان إلـى المدينة مرة أخرى ليقـرر الـزواج، وبمـا أنه كان بعيـداً لوقت طويـل ولا يعـرف الكثير من العائـلات، يقرر الزواج من آخر بنات عائلة ديل باي التي لم تتزوج بعد، الصغيرة كلارا التي نضجت كفتاة جميلة مضربةً عن الكلام.

في اليوم الذي يقرر فيه اسـتيبان أن يذهب إلى العائلة ليخطب ابنتهم تتكلم كلارا للمرة الأولى لتخبرهم أنها ستتزوجه.

يقـع استيبان فـي حـب كلارا منـذ اللحظة الأولـى، ورغم أنـه يعلم بقدراتهـا غير الطبيعية والعالم الخيالي الذي تعيش فيه، إلا أنه يصر على أنـه قادر على تحويلها إلى الزوجة المثاليـة التي يرغب بها، ليتزوجا بعد خطوبة قصيرة ويأخذها إلى مزرعته ليعيشا معاً بعيداً عن العالـم،

فـي بيـت الارواح نتتبـع مـع إيزابيـل الليـنـدي مصائـر الشـخوص، وعلاقات الحب التي تنمو بسرعة.



حب في الثانية والسبعين

فـي الثانية والسـبعين مـن عمرها تصـدر روايتهـا الاخيرة «العشـيق اليابانـي» قصـة حب مكتوبة بشـكل ملحمي، تروي مـن خلالها إيزابيل الليندي تاريخ اجيال متعددة، تنقلنا بمتعة من سـان فرانسيسكو في وقتنا الحاضر الى بولندا والولايات المتحدة ايام الحرب العالمية الثانية.

فـي عام ١٩٣٩ إبان وقـوع بولندا تحت الاحتلال النازي، يقرر والدا الشـابة الما بيلاسـكو ارسـالها الى سـان فرانسيسـكو لتعيش مـع خالها وخالتهـا، وهناك بينما تتجه بقية دول العالـم نحو الحرب، تلتقي بالصبي اليابانـي ايشـيمي فوكودا، ابن هـادئ ولطيـف لعائلة البسـتاني فوكودا،



ودون ان يلاحظهما احد ممن حولهم تبدأ علاقة حب تزدهر فيما بينهما، في اعقاب الهجوم الياباني على بيرل هاربور يفترقان مرغمين، حيث تعتبر عائلة ايشيمي، من اعداء اميركا ويتم ترحيلها قسرا الى معسكرات الإعتقال التي تديرها حكومة الولايات المتحدة، وعلى مدى سني حياتهم يلتقي العاشقان «الما وايشيمي» مرات عدة، لكنهما يكونا مضطرين لاخفاء قصة حبهما عن العالم.

بعد مضي عقود من الزمن، وحين تقترب حياة ألما الطويلة والحافلة بالاحداث من نهايتها تلتقي ايرينا بازيلي وهي ممرضة في دار الرعاية الصحية للمسنين في سان فرانسيسكو، مع المرأة العجوز حفيدها سيث، فتنشأ بينهما علاقة صداقة، ويثير اهتمامهما مجموعة الهدايا الغريبة والرسائل التي كانت بحوزة ألما وفيما بعد يكتشفان سر الحب الاستثنائي بينها وبين ايشيمي، والذي لم يبوحا به على مدى سبعين عاما.

تنتقل بنا إيزابيل عبر العشيق الياباني الى ازمان واجيال، وتستكشف قضايا العشق الذي لايتوقف برغم الظروف والمصاعب، والتأثير الذي لا ندركه للحب على حياتنا ومصيرنا.

تعترف ايزابيل الليندي بانها عند كتابة «العشيق الياباني»، لم تكن تريد ان تنتهي من الكتاب: «لأن الحب طويل الامد والذي يعاش ويعاني جيدا هو اكثر ما يهمني كما انه الاصعب في روايته، لانه يخلو من التشويق، العاطفة قيمة جدا، وليس مصادفة ان معظم العلاقات الغرامية في كتبي تكون المرأة هي المبادرة، لانني اعتقد ان استدامة الحب تعتمد الى حد كبير على المرأة».




مكتبة
الفكر الجديد

-١٤-

وصفة مدام بوفاري للبحث عن الحب في مكان آخر

كانت تتناول العشاء في مطعم صغير يقدم الاكلات الايطالية، حين انتبهت لحديث يدور بين شخصين يجلسان على مائدة قريبة منها، احد المتحدثين يبدو كلاسيكي الملبس تغطي عينيه نظارة طبية سميكة، نظراته تكاد لا تفارق وجهه وهو يتحدث مع صاحبه، كان النقاش يدور حول ما اذا كانت مدام بوفاري مذنبة في خيانتها لزوجها، ام انها ضحية لمجتمع متزمت، بقيت تصغي للحديث باهتمام، على الرغم من انها لم يكن باستطاعتها ان تفهم اي شيءٍ مما يقولانه، فهي لم تكن تعرف من هي مدام بوفاري التي يدور حولها هذا الحديث الساخن.

«نحن مملون بالتأكيد»، كانت هذه هي الجملة الاولى التي قالها احد المتحدثين وهو يقترب منها ويقدم نفسه: اسمي آرثر ميلر هل تسمحين لي ان أقدم لك كأسا من النبيذ

ابتسمت مارلين مونرو التي سمعت من قبل بهذا الاسم «آرثر ميلر» كانت قد شاهدت مسرحيته الشهيرة «موت بائع متجول» والتي حصد من خلالها على جائزة جائزة نقاد الدراما.

تبدأ المسرحية من عودة «ويلي لومان» من جولة عمل كان يريدها أن تكون الأخيرة، لكنه لم يكملها، بل رجع الى بيته مهزوماً. وعلى الفور ندرك انه كان من الذين يؤمنون بما تروجه اساطير الحضارة الاميركية التي تقول ان مظهرك الحسن يمكنه أن يؤمن لك الثروة والحب، وهي



النظرية التي ربى ولديه عليها. غير اننا سرعان ما سنكتشف ان الابناء باتو شباباً عاجزين لامبالين.. وهنا لكي ينسى لومان اخفاقات حاضره والديـون التي تحاصره، يستعيد بعـض لحظات الماضي السـعيد، أيام كان يشـعر بأن زوجتـه تهيم به. غير ان الذكريـات لا تدوم، وها نحـن نرى لومان يعاني من فراغ عاطفـي وازمة مالية، ونجد الزوجة لينـدا، تحاول اقناع ابنائها بالسـعي للحصول علـى بعض المال بغية تمويل مشـروع كانـت العائلة تحلم بتحقيقه، وتحت تأثير الشـرب، يعـَود لومان مرة اخرى الى الماضي مـن جديد، ليتذكر اللحظة التي حدث فيها الشـرخ فـي إيمان الابناء بوالدهم: حيث اكتشـف الابناء وجود أبيهم في صحبة امرأة في أحد الفنادق. بعد هذا المشهد نعود الـى الحاضر، وإلى البيـت حيث نجد الابناء يواجهـون والدهم بانه بنـى حياته وحيـاة عائلته على قيم مزيفة، ولكي يقـوم بفعل يعبر عن ارتباطـه بعائلتـه، يُقدم ويلـي لومان علـى الانتحار آملاً بأن تسـاعد أمـوال التأميـن على حياته، ولديـه وزوجته على الانطـلاق في حياة جديـدة. في حديثهـا عن زوجهـا، تخبرنا ليندا ان الحـب قد اختفى من حياتهما منذ زمن طويل، بسـبب عجز ويلي على الظهور بمظهر ناجح.

قال أرثـر ميللر بعد النجاح الكبير الذي حققته المسـرحية: «إنها قصة جيل يقوم بتسـويات أخلاقية. رجال جذّابـون، أكبر من الحياة يفتقدون الى الحب الحقيقي».

كانـت مارلين مونرو ترغب في لعـب دور زوجة «ويلي لومان»، لكن شـخصية المرأة التي تضحي بزوجها من اجل المال ربما كانت تضـر بصورتها. في تلـك الفترة حققت نجاحا كبيـرا من خلال فيلم سـعادة الحـب وأرادها المخرج ديفيـد ميلر ان تكون نمـوذج للفتاة التـي تقدم صورة جديدة عـن الحب وتتذكر فـي مذكراتها «قصتي» ان ديفيد اخبرها ان عليها كامرأة ان تتمتع بشخصية جذابة، واثقة من نفسها، وجمالها، وذكائها.



كانت نصيحة ديفيد تتلخص بالكلمات التالية: «احصلي على حب كبير لتعيشي حياة سعيدة وتحققي أموراً كنت تحلمين بها دوماً!»

عندما تعرفت مارلين مونرو إلى الكاتب المسرحي آرثر ميلر عام ١٩٥١ كانت في الخامسة والعشرين من العمر، فيما كان هو قد تجاوز الخامسة والثلاثين. وبحسب مذكراتها: «بدا لها ميلر فارساً من كتب الحكايات، وهكذا كسب تقديرها. في شعور كهذا ولد الحب بينهما لكن وصوله إلى مرحلة النماء احتاج إلى خمسة أعوام أخرى».

تقول كاترين كروهن في كتابها «حلم نورما جين» ان العلاقة بين مونرو وميلر بدأت بشكل تقليدي، اشبه بحكاية بيجماليون المسرحية التي كتبها برنادشو والتي تقوم على رهان يقوم بين العالم الأرستقراطي، هنري هيغنز، وصديقه بيكرنغ على فتاة هي إليزا دوليتل، يلتقيان بها ذات يوم فتلفت لهجتها المبتذلة وأسلوبها الوضيع في التصرف نظرهما. وهنا يقول هيغنز لصديقه أن في إمكانه، خلال أسابيع قليلة، أن يحوّل هذه الفتاة الى امراة أرستقراطية، بمجرد تعليمها أناقة الحديث وأسرار اللهجة الراقية. ويدنو هنري هيغنز من بائعة الزهور إليزا، عارضاً عليها أن يعلمها المنطق والطريفى المثلى بالحديث مقابل بعض مال يعطيه لها. وهكذا يصطحبها الى منزله، وتبدأ التمارين على الفور، وخلال التمارين تبدي ليزا من الاستجابة للتعلم ما أذهل أستاذها. وهكذا خلال الفترة المحددة، تنجح إليزا في الاختبارات التي أجريت لها، وتحسّن نطقها... وسنرى أن النطق لم يكن وحده ما تحسّن لديها. وتجلى ذلك خلال حفلة اصطحب فيها هيغنز تلميذته النجيبة ليقدمها الى الحضور على أنها دوقة، من دون أن يكشف سرها لأحد، وتتصرف إليزا مثل دوقة حقيقية، نطقاً وأناقة، وتبدو كأنها سيدة من أرقى العائلات. وإذ يروح الأستاذ والكولونيل يهنئان نفسيهما بذلك الانتصار الكبير، وبنجاح التلميذة وقدرتها على إقناع الجميع بأنها سيدة أرستقراطية، تكون إليزا قد



أضحت في عالم آخر تماماً، فهي انتبهت فجأة الى أن الرجلين لا يقيمان أي وزن لدورها في الحياة، ونكتشف انها خلال أسابيع العمل كان الاستاذ قد استهواها الى درجة أنها وقعت في غرامه، من دون أن يلاحظ هو شيئاً، وها هو الآن يتجاهلها تماماً كامرأة، معتبراً إياها مجرد مادة أجرى عليها اختباراً ناجحاً. ولان هنري هيغنز المهووس بعلمه وانتصاره، لم يخطر في باله أن للمادة التي اشتغل عليها أي مشاعر خاصة. ما كان ليخطر في باله أنه في الوقت الذي كان ينمي لديها مقدرات لغوية واجتماعية، كان يبعث في قلبها دفء الحب. وإليزا إذ تيأس من قدرة هيغنز على فهم ما بها، وتشعر أنه لايقدر مشاعرها، فهو يسعى الى الصداقة، وهي تريد الحب، وفي النهاية لم يعد في وسعها، إلا أن تخطو خارج حياة أستاذها، معلنة أمامه أنها ستتزوج شاباً، كان يطاردها منذ زمن بعيد. كما تعلن أمام هيغنز أنها، من الآن وصاعداً، لم تعد راغبة في العودة الى بيع الزهور وستصبح أستاذة صوتيات، مثله تماماً، بل في التنافس معه.

****

الهدية من فلوبير

أمسكت مارلين بسماعة التليفون وأدارت الرقم، كان صوت ميللر على الطرف الآخر بادرته قائلة- غدا عيد ميلادي، أريدك أن تحتفل معي في منزلي.

ووضع ميلر السماعة. وفكر بالهدية التي تقدم في مثل هذه المناسبات، كانت لديه فكرة ضد الهدايا وتقديمها.

ذهب في موعده ودق جرس الباب لتفتح له مارلين الباب وقبل أن يخطو إلى داخل الشقة، أعتدل واقفا وهو يناولها ظرفا مزين بشرائط ملونة

- اتمنى ان تتقبلي هديتي ؟



كانت الهدية نسخة من رواية مدام بوفاري لغوستاف فلوبير

بعد ايام وجد ميللر نفسه أشبه بالمسحور، كانت هناك قوة خفية تدفعه لمتابعة أخبار مارلين رغم محاولاته مقاومة ذلك، قال لأحد اصدقائه

- غاية في البساطة.

ولأنه خجول بطبعه قررت مارلين ان تقتحم عالمه وتبدأ هي الخطوة الأولي، فقامت بدعوته لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة، فقد أدركت انها وقعت في عشق الكاتب الشهير، كما تأكد هو أيضا أنه أغرم بها وكان لفرط حبه وجد في نفسه مبررا لمظاهر السهر والحفلات التي كانت تحضرها مارلين وكان حبه يجعله يجد معظم تصرفاتها طبيعية ومعقولة.

كرس ميلر نفسه لتثقيف مارلين، وكتلميذة له تعلمت ما هو اكثر من المسرح: «لقد تعلمت علم النفس والتاريخ واخلاقيات الفنون الجميلة والذوق درست مجموعة كبيرة من المسرحيات، كان ميلر يناقش شخصياتها والأساليب المختلفة لادائها: «لم أكن قد سمعت شيئا بمثل هذا السحر أبداً مثل حديث معلمي. في كل مرة يتحدث كان العالم يبدو اكثر رحابة واكثر بعثا على الحماسة» (كتاب حلم نورما جين).

وذات ظهيرة كانت تقرأ معه مسرحية شكسبير الشهيرة روميو وجوليت وطلب منها ان تؤدي امامه احد مشاهد المسرحية، وافقت بشرط ان يؤدي هو دور روميو: «أن اؤدي مشهداً أمام ارثر ميلر لهو أمر اكثر اثارة من ان امثل في اي فيلم عرفته».

واثناء ادائهم لمشهد اللقاء الشهير بين روميو وجوليت في احدى حدائق القصر، توقف ميلر فجاة ثم نظر الى مارلين بابتسامة وسألها:

- هل بامكاني ان اطرح عليك سؤالا شخصيا ؟

- تفضل



- هل ستخبرينني بصدق، إذا ما كنت تفكرين بشخص ما، بينما كنا نؤدي المشهد.

- هناك شخص افكر به بالتأكيد..قالت مارلين

- هل يمكن ان أعرف من هو ؟

اقتربت منه وهي تمسك بيديه ثم قالت: «انه أمر غريب، طوال فترة اداءنا للمشهد، ظللت أشعر بجاذبية غريبة نحوك، كما لو كنت امرأة يتملكها العشق، انا تزوجت من قبل، وعرفت الكثير من الرجال، لكنني أول مرة أرى نفسي مشغولة البال بالحب».

في كتابها «قصتي، تكتب مارلين مونرو ما كان يمكن لآرثر أن يتزوجني لمجرد أنني شقراء، كنت بالنسبة اليه ملهمة، وكان بالنسبة لي معلما فتح امامي طرقاً جديدة للمعرفة»

وتكتب كاترين كروهن في «حلم نورما جين» : «برغم كثرة علاقاتها الغرامية وزيجاتها العديدة المذكورة، فإن أحدا لم يلتفت إليها أو يحاول قراءة ما بين سطور مونرو غير رجل واحد، أعاد صياغة مارلين مونرو، هو ميلر، الذي غيّر خارطة أولوياتها، وطريقة تفكيرها ليجعلها امرأة مهتمة بتنمية الوعي والفهم لما يدور حولها، ومحاولة لمنافسة نفسها في القراءة، وشجعها على أن تكتب كثيرا وهو ما لم يلتفت إليه أحد، ربما كانت كتاباتها تتسم بالركاكة أو الضعف، لكن كانت تلك الكتابات خطوة على الطريق نحو التغيير، وتشكل بالفعل فهم مونرو لطبيعة جمالها الذي كان حتما سينتهي في وقت ما، فأرادت أن تعتني بالجانب الجميل فيها والذي لم يره الآخرون، أو تعمد الجميع حصرها فيه».

في ٢٩ تموز من عام ١٩٥٦، تنشر الصحف خبر زواج الممثلة المثيرة من الكاتب الشهير، ويكتب ميلر في مذكراته عن علاقته مع مونرو: «كانت كالضوء الذي يحيطني، تثيرني تناقضاتها وغموضها».

كانت مارلين تعتقد انها بحاجة الى حب مثل الذي عاشته بطلة برنادشو، فميلر الرجل الوحيد الذي حاول أن يكتشف الوجه الآخر لها.



في إحدى المرات، تكتبت مارلين قصيدة لميلر، بدأت بها حالمة وانتهت القصيدة برؤية ضبابية كئيبة لتعكس خوفها الدائم وشعورها بأنها برغم عثورها على ما تتمناه، لكنها موقنة بأن ذلك الحلم الذي تعيشه لن يستمر:

حبي ينام بجانبي
ينام حبي بجانبي
تحت النور الخافت أرى فكّه الرجولي
يتراجع ويعود
فم صباه
بعذوبة ولا أعذب
رقته ترتعش
في سكونه
وعيناه لا بد أنهما
تطلان بذهول من كهف
الصبي الصغير
حين كان ينسى الأشياء التي لا يفهمها...
لكن هل سيبدو كذلك حين يموت
أواه يا أيتها الحقيقة المحتمة التي لا تحتمل
ولكن أسرعان ما سيموت حبه
عندي.. أو أموت عنه

****

الموت حباً

ذات يوم تفتح مارلين مونرو الهدية التي قدمها لها ارثر ميلر قبل الزواج رواية مدام بوفاري، فتجد نفسها امام حكاية شبيهة بحياتها



كان الروائـي الفرنسـي غوسـتاف فلوبير قد كتب عن الـزوج يوجين ديلمار، طالبَ طب يدرس الجراحة على يد والد فلوبير وكان طالباً عادياً فشـل في العديد من الاختبارات الجامعية، ولم يسـتطع نيل دبلوم الطب فأصبح مأموراً في إحدى دوائر الصحة. في ذلك الوقت تزوج من أرملة تكبره بالعمر لكنها توفيت بعد سنوات، فأصبح وحيداً، وراح يبحث عن رفيقة لحياته، عندئذ قابل فتاة في السـابعة عشرة من عمرها، جميلة ذات شـعر أشقر وجسد متناسـق كانت ابنة لواحد من مرضى ديلمار، تعلمت في دير وقد امتلأ رأسها بالأحلام التي تثيرها قراءة الروايات الرومانسية، في البدء كانت تعتقد انها تزوجت من فارس أحلامها، لكنها سـرعان ما اكتشـفت ان ديلمار انسان فاشـل وثقيل الظل ولايملك الطموح، كانت تحلم برجل مندفع مثير، لكنها بدلاً من ذلك تزوجت بإنسان غبي يصفه فلوبيـر بدقـة: «كان حديثه مسـطحاً مثل رصيف الشـارع، انه لايسـتطيع السـباحة، لايسـتطيع المبارزة والإمسـاك بسلاح ناري، مشـاعره عادية، يعانقهـا في أوقات محددة، وأصبح الجلـوس معه غير محتمل، يحلو له ان يلتهم الطعام الذي أمامه بشراهة ثم يذهب الى الفراش ليستلقي على ظهرة ويشخر».

ونجدهـا كثيراً ما تردد حين تكون لوحدها: «يا إلهي لماذا تزوجت»، وتحـاول ان تتخيـل ذلـك الزوج الـذي لم تعـرف، رجلاً وسـيماً وفطناً ومتميزاً وجذاباً، وتسـأل نفسها ما العمل؟ هل سيدوم هذا البؤس للأبد، كانـت تتوق الى الحياة الصاخبـة، تبحث عن الحب، عن رجل يختطفها ويطيـر بها بعيدا، لقد قررت ان تفتح الباب المظلم، ففي مقابل احتقارها لزوجها وللحياة السخيفة التي تعيشها معه، نظرت في المرآة الى جمالها وأيقنت ان بإمكانها ان تحوِّل أحلام اليقظة الى واقع، قررت ان تكتشف عالمـاً اكثر إثارة يحقق لها وجودها. بـدأت تبالغ في إنفاق الأموال على الألبسـة والحفـلات دون ان يعلـم زوجها، وسـرعان مـا تراكمت عليها الديـون، وبعـد ان تفقد الرغبـة في الملابس والحفـلات، تقرر ان تغوي الرجال. في البداية كان العشيق جاراً لها يدعى لويس كامبيون، ثم عامل



المزرعـة، ثم كاتـب العدل، ثم العديـد من الموظفين الشـباب. ويكتب فلوبيـر فـي الرواية: «لقد بـدأت تعيد الـى ذهنها بطـلات الروايات التي قرأتها، وبدأ هذا الفيلق من النساء العاشقات يغرد في رأسها».

أهملت زوجها وابنتها الصغيـرة وأقاربها وجيرانها، لكنها في النهاية بدأت تشـعر بالملـل، كل هؤلاء العشـاق الذين مارسـت الجنس معهم مخيبـون للآمـال، وأخيـراً في فجر السـادس من اذار عـام ١٨٤٨ بدأت المشـاكل تحاصرهـا، زوجهـا أفلس، العشـاق تبخروا، تقـرر ان تتناول جرعة مميتة من الزرنيخ لتنهي حياة بلا طعم ولا أمل.

كان فلوبير مقتنعاً بأن قصة ديلمار هي وسيلته الوحيدة لإثبات موهبته الأدبية، ولإسكات الأصوات التي كانت تقول ان هذا الشاب الذي دخل عامه الثلاثين سيظل مجرد مراهق أبله طائش يزحف وراء رائحة النساء. ألا ان هناك مشكلة يجب ان يجد لها حلا، فالقصة سوقيّة ونشرتها معظم الصحف، لكنه لم يستطع مقاومة سـحر السـيدة ديلمار وإصرارها على ان تتمتع بكل ذرة من جسـدها، بقيت مشـكلة مسـتعصية هي رفض أمه القاطـع، ان يكتـب عن موضوع هذه السـيدة خوفاً مـن مقاضاته، وأيضا لأن الموضوع مبتذل، لكنه في النهاية اسـتطاع إقناعها، بعد أن قرر تغيير أسماء الشخصيات لتتحول السيدة ديلمارالى «مدام بوفاري».

سـارت الرواية ببطء شـديد، ست صفحات في الأسـبوع، قال لأمه: «يالها من مهنة صعبة مهنة الكتابة، القلم أشبه بمجذاف ثقيل»، ظل يعمل سـبع ساعات في اليوم على مدى اكثر من خمس سنوات، درس خلالها كل ما يتعلق بالروايات الرومانسية التي ربما قرأتها السيدة ديلمار او مدام بوفاري، وحاول دراسـة تأثيـر مادة الزرنيخ على وظائف الجسـم، ومن حين لآخر كانت الكتابة تصيبه بالمرض: «عندما كنت أصف تسمم إيما بوفـاري كنت أحس بطعم الزرنيـخ في فمي، وقد عرّضني ذلك الى آلام في المعدة وسـوء في الهضم رافقنـي طوال حياتي. ويكتب الى صديقة: «لقد توقفت عن الكتابة لا أستطيع مغالبة دموعي»، ولم يكتف بشهادات الجيران ومعارف السـيدة ديلمار، بل ذهب الى القرية يسـتطلع مجريات



الاحداث التي تتعلق بتفاصيل حياة البطلة، وفي الدوائر الرسمية ومراكز الشرطة اطلع على التقرير التالي: «يوم السادس من اذار ١٨٤٨ انتحرت في قرية ري نورمانديا، سيدة في السادسة والعشرين من عمرها بتعاطي كمية كبيرة من الزرنيخ».

في يوم الاحد الخامس من اب عام ١٩٦٢ وجدت جثة مارلين مونرو في منزلها، فارقت الحياة بعد ان تناولت جرعة كبيرة من الحبوب المنومة، رغم ان البعض يعتبر الظروف المحيطة بوفاتها تثير الكثير من علامات الاستفهام، وقد وجدت الشرطة الى جانب سريرها نسخة من رواية مدام بوفاري، وعليها تعليقات، كانت مارلين تكتبها اثناء مطالعتها للرواية. وفي داخل صفحات الرواية كانت هناك ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط دقيق: «كان ميلر كأي نجم من النجوم التي ننظر اليها في سماء الليل لنتمنى امنية ما، ومع انه اليوم بعيد جدا، إلا ان ضياءه ما يزال حيا في حياتي والى الابد».



-١٥-

الحب مسألة رياضية لم تُحل بعد!!

دخـل عليهـم (عم عبـده) ليقول وهو يغمـز بعينيه مشـيراً الى حجرة العمـة إن عندها ضيفة، لـم يجد وصفاً لجمالهـا أدق من أن يقبّل أطراف اصابعه.

نهض الجميع مسرعين باتجاه باب الغرفة المغلق، وراحوا يتدافعون علـى ثقب البـاب متضاحكين بصـوت خافت، واصيبـوا بالصدمة وهم يشـاهدون جمالاً لـم يـروا مثله من قبل، وكان لـكل منهم معها بعد ذلك قصة.

كان ذلك عام ١٩١٨ حيث تَعوّد محسـن - توفيق الحكيم - الذي لم يكن يتجاوز الخامسـة عشـرة من عمـره، ان يصعد إلى سـطح البيت مع عمته، وذات يوم سـمع صوتاً موسـيقياً ينادي عمته: «كان نذيرا او بشيرا باعـلان الاشـتباك في الحـب» ولم يكتـف الصوت بالتحـدث مع عمته وانمـا حيتـه، فرد التحيـة متلعثماً خجـلاً ينظر الـى الارض، ويحاول ان يداري خجله بالنظر الى الكتاب الذي يحمله بيده، فأخفت الفتاة ابتسامة حقيقية ثم التفتت اليه وسألته:

- هل هذه رواية

* لا إنه ديوان شعر

- هل تحب الشعر

* نعم.. وأنتِ



- أنا في الحقيقة، أفضل الروايات، ومع ذلك أحب بعض القصائد او الازجال التي أغنيها وأنا أعزف على البيانو.

وأسـرعت العمة لتقول إن محسـناً يمتلك صوتاً جميلاً وهو بارع في الغناء.

ولأن «سـنية» فتاة عصرية، ابنة لطبيب معروف، ومادام محسـن يغني فلابـأس ان تدعوه الى منـزل أهلها، ونراها تقفز بخفة الـى البيانو، تمرر اصابعهـا على مفاتيحه العاجيـة لتطلق انغاماً كتغريـدة العصافير، وتنظر الـى الفتى المرتبك، تدعوه الى الغنـاء، ويتردد وهو يلاحظ نظراتها التي تتابعـه، فيرتفع صوته مرتجفاً في بادئ الأمر، ثم يثبت ويسـتقيم وينطلق في فضاء المكان حالماً في نغم يؤدي احدى مقطوعات عبد الحمولي

الحب كله أشجان... ياقلب حاذر

الصد والهجران... جزا المخاطر»

واعجبت والدة سـنية بعبد الحمولـي الصغير، فوافقت ان يعلم ابنتها الغناء، وشعر محسن بان نفسه لاتتسع للسعادة، وعندما يذهب في اليوم التالي الى المدرسـة يطلب منه معلم اللغة العربية ان يختار موضوعا في الانشـاء، ويبحث عن موضوع جديد، ولأن ذهنه مشغول بفكرة واحدة، نجده يكتب على السبورة كلمة واحدة «الحب».

عـام ١٩٧٠ كان قـد بلغ الثالثة والسـبعين من عمره حين نشـر مقالا بعنوان «ألوان من الحب» كتب فيه:

«إذا كنـت تحب امـرأة وهي لاتعلم إنك تحبهـا، فأنتَ لاينقصك إلا الشجاعة، لأن تقول لها إنك تحبها.

وإذا كنـت تحب امرأة وهي لاتحبك، فانت تعيس، وعليك أن تكف عن محاولة جذبها إليك

فكل ما ينطق عن الشفتين ولايصل الى المحبوب فهو وهم، والحب ليس وهماً بل هو حقيقة، والطريق اليه يبدأ بالخوف وينتهي بالشجاعة

لكـن لا حـب بلا خطـر، لا حب بلا قلـق، بلا خـوف، وحين يدخل



الإحســاس بالخطر، يصبح الحــب أكثر عنفاً، وأكثر قســوة. أما إذا كنت تحب امـرأة ولا يعنيك أن تعرف هي ذلك، ولا تحاول أنتَ أن تقول لها، ثم تجد متعة في هذا الحب، فأنتَ من الملائكة او من القديسين».

****

الحب قصة لا يجب أن تنتهي

توفيـق الحكيم ابن الســابعة والعشــرين يعانـق أباه ثم يتقـدم باتجاه الباخرة التي ســتبحر به الى فرنســا يصعد، الدخان الابيض للباخرة يعلو ويعلـو، ضجيـج الآلات يزداد صراخاً، هذه أول مـرة يركب فيها باخرة، شـاهد والــده يلـوح بيديه، يكتـب بعد ذلك فـي «عصفور من الشـرق»: «طالمـا قاومت وكافحت في سـبيل التجرد والتحرر من كل ما يشـغلني عن الادب والفن، وها انذا اليوم قد انتصرت، فأنا الآن للفن وحده».

لـم تشـغله حياة الطبقة الأرستقراطية التي تعيشها عائلته، وإنما شغلته حكاية غرفة الست زنوبة، ومنديل سنيّة الذي تحايل حتى أخذه واحتفظ بـه في «عودة الروح»، ولـم يدخر وسـعاً في الابتعـاد عن المرأة التي كان يخشـى أن يعيـش معهـا قصة حب فاشـلة، مثل تلـك التي قـرأ عنها في روايـات شـارلز ديكنـز. قرر أن يكرس نفســه لـدور واحد فقـط هو دور الفنان الذي يطرد من عقله كل شـيء إلا الفكر والفن والثقافة، ولـم يكن يـدرك أن باريس ستكشـف أمامـه ألواناً جديـدة من الحب، الفرنسـيون الذي استأجر منهم غرفة صغيرة أطلقوا عليه اسم «عصفور من الشرق»، كان يرونــه شــاباً خياليـاً، وهـذا الخيال جعله يعشـق فتاة لم يرها سـوى مـرة واحدة، تبيـع التذاكر في مسـرح الاوديون يكتب عنها: «أراها تشـرق كل مسـاء بعينين فيروزتين جميلتين وابتسـامة سـاحرة»، لكنه حائر لا يريد ان يتقـدم منها، وحين ينصيحة صديقه اندريه بـان يقدم لها باقة من الزهور ويفاتحها بما في نفسه من مشاعر، يرفض ويقول له:

- ياعزيـزي اندريه، مازال في رأسـي قليل مـن الإدراك يكفي لإفهامي



علـى الأقـل ان مثل هـذا الجمال في شـباك مفتوح للجمهـور، لايمكن ان يبقى حتى الآن في انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذي هو أنا.

ويسأله اندريه: كيف عرفت انها تحب شخصا ما

- الفِراسة

ولا يمكـن لأندريـه إلا أن يصـرخ بـه: الفراسـة.. هذا بابهـا، وهذه هي جالسة، أكاد أراها من هنا، اقسم انني لم أر مثل هذا في حياتي.

ثـم يضيق العصفور بالجلوس فـي المقهى الذي طال من دون جدوى، ويقرر العمل على طريقته، فيتبع سوزي حتى يعرف الفندق الذي تقيم فيه، ويقرر أن يستأجر غرفة تكون فوق غرفتها بالضبط، ويهدي اليها ببغاء على طريقتـه ايضا: «وضع في وسـط القفص حبلا وأنزله مـن نافذة غرفته حتى ركـز علـى حاجز نافذة غرفة سـوزي، وعندمـا فتحت النافذة رأت نفسـها أمام ببغاء في قفص، رفعت عينيها فرأت محسناً يبتسم لها وسألته عن اسم الببغاء فقال لها اسـمه «محسـن»، ومـاكادت تنطق هذا الاسـم حتى صاح الببغاء

- أحبك.. أحبك.. أحبك

- فضحكت سوزي وقالت: عجباً! من لقنه هذه الكلمات

- لا أحد.».في عينيه نظر» هذا كل ما في الأمر».

في رسالة يوجهها الى صديقه اندريه يكتب توفيق الحكيم:

«إن الحـب قصـة لا يجـب أن تنتهـي... إن الحـب مسـألة رياضيـة لم تحـل... إن جوهر الحب مثل جوهـر الوجود لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسـمونه المجهـول أو المطلـق، إن حمى الحب عندي هـي نوع من حمى المعرفـة واستكشـاف المجهول والجـري وراء المطلق، مـاذا يكون حال الوجـود لـو أن الله قذف في وجوهنا نحن الآدميـيـن بتلك المعرفة أو ذلك المطلـق الـذي نقضـي حياتنا نجـري وراءه...؟ لا أسـتطيع تصـور الحياة حينئذ... إنها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكـر وعاطفة... فكل ما نسـميه جمالاً وفكراً وشـعوراً ليس إلا قبسـات



النور التي تخرج أثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول».

نرى محسن الفتى في عودة الروح، الشاب في عصفور من الشرق، ليس سوى توفيق الحكيم نفسه، و في كتاب «زهرة العمر» الذي تضمن مجموعة من الرسائل كتبها بالفرنسية لصديقه اندريه يعترف بهزيمته أمام الحب: «صدقت فراستك، الخيال أضاعني ياأندريه، انا شخص شقي وليس الشقاء هو البكاء، وليست السعادة هي الضحك، فانا اضحك طوال النهار لأني لا اريد أن أموت غارقا في دموعي، انا شخص ضائع مهزوم في كل شيء. وقد كان الحب هو آخر ميدان، وخسرت فيه، واذا كنت تسمع من فمي احيانا اناشيد القوة والبطولة، فإعلم اني اصنع ذاك تشجعا لنفسي، كمن يغني في الظلام طردا للفزع.

لقد كان يخطر لي احيانا ان الحب هو العمود الفقري للكون، وان الله لكي يقيم القيامة وينهي الحياة لن يأمر (اسرافيل) بنفخ الصور - كما يقولون عندنا - بل سيأمر (الموت) ليهوى بفأسه على الحب، وبموت الحب على الارض ينتهي العالم».

وفي مقال نشره عام ١٩٦٢ بعنوان «لمرأة والفن» يكتب توفيق الحكيم: «اني اذ أتكلم عن الفن، لايسعني إلا أن أعترف مرغما إن المرأة هي روح الفن، ولو لم توجد المرأة على هذه الارض، فربما وجد العلم، لكن المحقق انه ما كان يوجد الفن. ذلك أن الإلهام الفني نفسه قد خلق على صورة امرأة، وان لكل لون من ألوان الفن عروساً.هي التي تنثر أزهاره على الناس. ما من فنان على هذه الارض أبدع شيئا إلا في ظل امرأة».

ونعود لحكاية محسن ففي عصفور من الشرق حيث عرفت الفتاة سوزي أن اسمه محسن مثل اسم الببغاء، ونراه في الصباح يفتح عينيه على شبه صوت ملائكي ينادي اسمه.

فيسرع الى النافذة: أتنادينني

فرفعت الفتاة اهدابها الجميلة، في شيء من الدهشة، فارتبك وهو يقول لها

- معذرة، لقد نسيت أن اخبرك انني اشترك مع الببغاء في الاسم



- ورأها تبتسم ورأى جمالها في ذلك الصباح الباكر أنضر من زهر النرجس فتشجع وقال:

- أنا اشترك مع هذا الببغاء في الاسم، ولكن لا أشترك معه في الحظ، ان الفرق بيننا عظيم، انه هو الذي يحظى بعنايتك، فتنادينه وتناجينه، هذا الأحمق الذي لايشعر بمقدار ما يناله من سعادة.. ولهذا لست اطلب شيئا إلا ان اكون مثله بالضبط

- ولكنك لست في قفص

- آه ياسيدتي.. اني في قفص لايراه الناس.

****

المرأة مخلوق غريب محاط بالأسرار

وقفت امام وكيل النيابة كشاهدة في قضية محاولة قتل زوج شقيقتها المتوفاة، كانت ذات جمال رائع: «غادة في السادسة عشرة، لم تر عيني منذ وجودي في الريف أجمل من وجهها، ولا ارشق قداً، وقفت على عتبة الباب في لباسها الاسود الطويل كأنها دمية من الابنوس، طعمت في موضع الوجه بالعاج».

ويواصل توفيق الحكيم الحديث عن تأثير جمالها عليه في روايته «يوميات نائب في الارياف»:

«رفعت إلي رمشين، ولأول مرة يرتج علي التحقيق، فلم أدر كيف أسألها، ولم يرها كاتب التحقيق، فقد كان موقفها خلف ظهره، فلما لحظ صمتي ظن بي تعبا، فغمس القلم في الدواة وهو يسألها:

- ما أسمك

* ريم

لفظته في صوت هز نفسي كما تهز الوتر أنامل رقيقة، فما شككت في أن صوتي سيتهدج إنْ ألقيت عليها سؤالا آخر فتتريث، وبدت لي دقة الموقف، وايقنت ببطء التحقيق، إذا قدر لي ان أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال».



المـرأة مخلـوق غريـب محـاط بالأسـرار، هكذا ينظـر اليهـا توفيق الحكيم، وكل جمالها وسـحرها في بعدها عنه، فاذا حدث وانفتح أمامه هذا العالم المبهم وزالت هالة الأسـرار، خاب امله وانصرف لانه يعتقد ان العلاقة الفاشلة هي وحدها القادرة على ان توقظ روحه وتلهم شياطين فنه وتعيش طويلا في وجدانه وذاكرته، في كتابه «مدرسة الشيطان» نجد توفيق الحكيم يتردد كل يوم على مقهى في جبال الالب، حيث اسـتهوته احـدى العامـلات، وينصـرف عن كل شـيء الـى مراقبتها والاسـتمتاع بجمـال خطواتهـا ويقول: «ماذا أعطـي انا من اجل لحظـة تحادثني فيها هـذه الفتاة، نعم هنا كل سـعادتي ومتعتي ان أسـارع فـي جلب اهتمامها لحظة وان تقبل على محادثتي».

****

أن تعامليني كطفل صغير

العام ١٩٤٥ ترك توفيق الحكيم الفندق الذي عاش فيه معظم سنوات شـبابه، وانتقل ليعيش في شقة مطلة على النيل، يصفها أحمد بهاء الدين بانها كانت تزدحم بالكتب لكنها تخلو من الأثاث والديكورات.

وفي العمارة المجاورة كانت الآنسـة «سيادات» الفتاة جميلة الهادئة تراقبـه. وترصده بعناية فائقـة، وتخطط للحظة الهجـوم المرتقب للفوز بقلب عدو المرأة الذي يهاجمها بشراسـة وقسوة فوق صفحات الجرائد والمجلات، كانت الآنسـة الجميلة تعرف أن معركتها مع جارها الأديب المعروف ليست صعبة فحسب، بل إن النجاح فيها قد يكون مستحيلاً.

لم تتسـرع الجارة الحسـناء في بدء معركتها، اكتفت في حجرتها تقرأ كل كلمة يكتبها توفيق الحكيم في الصحف... قضت السـاعات الطوال في دراسة مسرحياته... وراحت تتأمل أبطال مسرحياته وتعايشهم لحظة بلحظة... كانت على يقين من أن جارها الملقب بعدو المرأة ليس رجلاً مثل آلاف الرجال الذين تشـاهدهم في شـوارع القاهرة... لابد أن يكون



عبقريـا صال وجال في عالم المرأة فلم تعجبه منهن واحدة ليتزوجها... ويرتبط بها شريكة لعمره.

كانت واثقة مـن أن جارها الكاتب ليس مجنونا، كما قال في أحاديثه الصحافيـة حتـى يدخل سـجن الزوجية بقدميـه، أو يجـد المجنونة التي تتزوجـه!... ضحكـت مـن أعماقها يوم سـمعته يردد هـذه الإجابة على لغـز عزوبيته وعزوفه عن الزواج.، لقد قرأت له أيضا أنه ترك بيت عائلته ليبتعد عن محاولات أبيه وأمه وضغوطهما عليه ليختار شريكة عمره.

ولـم يكن لتوفيق الحكيم صديق من بين كل جيرانه الجدد غير ضابط الجيـش، الضيـف الوحيد الذي يتردد على شـقة الحكيم دون أن يضجر منه، أو يمل حديثه.

ذات يـوم قالت شـقيقة الضابـط لأخيهـا، إن زياراتـه للكاتب زادت على حد الضيافة، والواجب يحتم أن يدعوه لزيارته في شقتها، ولو لمرة واحدة.

نظـر إلـى أختـه الحسـناء الشـابة وقـد بـدت عليـه ملامـح الاقتناع، استطردت الآنسة «سيادات» قائلة لأخيها: وسوف تكون فرصة لأتعرف على كاتبي المفضل عن قرب، وأناقشه، وأحاوره.

ضحـك الضابـط مـن ثقـة شـقيقته فـي نفسـها... ظـن أن غـرورا مفاجئـا أصابهـا... حذرها من الدفاع عن حواء أمامه. ابتسـمت الآنسـة «سيادات» وسألت أخاها عن سر هجوم الحكيم على المرأة... رد الأخ بسـرعة..».هذا موضـوع يطـول شـرحه... ولابد أن أخـرج الآن لقضاء بعض مصالحي».

وجـاء موعد الزيـارة المرتقبة..، ذهـب الحكيم بقدميـه إلى الكمين الـذي نصبته «سـيادات» له، لم الشـرك الذي نصب لـه عندما دق جرس الباب ليدخل شـقة صديقه الضابط الشـاب، وحتى خرج منها وقد خسر جولة غير متوقعة.، وانهزم في حرب كان هو فارسها الأول.

وتقـول المـرأة التي اصبحت زوجة توفيق الحكيـم فيما بعد للكاتب مصطفـى أميـن وهـي تصـف اللقـاء الاول: «لم أتبهـرج لتوفيـق لأبهره



بجمالي، لم أهتم بالبودرة والأحمر، وإنما تعمدت أن أتبهرج له ثقافيا. وحاولت أن أستعرض أمامه معلوماتي عن كل ما كتب، ويومها ذهل توفيق من اطلاعي الواسع على كتبه ومؤلفاته ومن حفظي لجمل معينة من قصصه».

ولم يلبث أن أحس الحكيم أنها تراه الرجل الوحيد في العالم، وكانت ترى فيه كل الأساطير التي كتبها في كتبه، وكل الرجال الذين كانوا أبطال قصصه، وهكذا دخلت على قلب توفيق الحكيم من باب لم تطرقه امرأة أخرى من قبل، وإذا كانوا يقولون إن الحب من أول نظرة فقد كانت حكاية الحكيم تتلخص في جملة هي الحب من أول كلمة.

أدمن توفيق زيارة صديقه ضابط الجيش أحس أن شيئا يتحرك في أعماقه، يحرك مشاعره، ويحركه كالمسحور إلى بيت الجارة الحسناء حاول أن يمنع نفسه، وكان يفشل في كل مرة ويكاد يبكي على عرشه الذي اهتز بشدة أمام الآنسة «سيادات».

طلبها للزواج ليرضي قلبه، ووضع ١٥ شرطا قاسيا لتوافق عليها العروس قبل زفافهما... كان يتمنى أن ترفض شرطا واحدا منها ليجد مبررا يقنع به نفسه بالهروب من هذا المأزق العاطفي الخطير، حدد شروطه القاسية والعروس تسمع إليه.

قال لها الشروط وهي: «ألا يعرف أحد أننا تزوجنا لأنني أريد أن يبقى هذا الزواج سرا لا تعرفه إلا أسرتك، وألا ينشر هذا الزواج في الصحف لا تلميحا ولا تصريحا.، وأن أسافر وحدي إلى الخارج دون أن يكون لك الحق في السفر معي، ولا نستقبل ضيوفا في بيتنا سواء من الرجال أو النساء، وألا أصحبك في نزهة أو رحلة... وان يكون مصروف البيت ٢٠٠ جنيه لا تزيد مليما واحدا، وألا أكون مسؤولا عن مشاكل البيت والخدم، وأن تكون مشاكل كل الأولاد من اختصاصك، وأن تعامليني كطفل صغير لأن الفنان طفل صغير يحتاج إلى الرعاية والاهتمام، وأن يكون بيتنا هادئا بلا ضجيج أو أصوات تزعجني لأتفرغ لكتابه ما أريد، وأن ينام كل منا في حجرة مستقلة ولا تتدخلي في عملي».



وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها الكاتب أن الجارة الحسناء وافقت على كل شروطه... أعلنت استسلامها أمام كل طلباته...

وتم زفافها إلى توفيق الحكيم الذي كان يكبرها بعشرين عاما... ومع الوقت ألغت بنفسها كل الشروط التي وضعها الحكيم قبل الزواج... وكان الحكيم في غاية الرضا وهو يتنازل عن شروطه شرطا بعد شرط.

ويكتب توفيق الحكيم بعد شهر من الزواج مقالا في اخبار اليوم يتضمن العبارة التالية: «الحب.. ليس غير الحب هو وحده الذي يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة».



-١٦-

حين تكون نتائج الحب غير متوقعة !

جلس ليكتب روايـة تدور في بلدتـه التي ولد فيها عـام ١٧٨٣، من أب متزمـت وعنيف، وقاسـي القلـب، وأم رقيقة القلـب بارعة الجمال، كان جده لأمه اسـتاذا للفلسفة وخالته اليزابيت شديدة الاعتزاز بالشرف على طريقة النبلاء، فأورثته هذا الاعتزاز او على حد تعبيره: «انها كونت قلبـي، فنقلـت اليَّ طريقهـا في الإحسـاس، مما كان سـبباً فـي ارتكابي سلسـلة مـن الحماقات السـخيفة، بدافع مـن مراعاتـي لمقتضيات ذلك الخلق السامي» أما خاله رومان فقد كان دون جوان، فحاول ان يلقن ابن شقيقته فنون الحب العابث.

لكن «ماري هنري بيل» الذي اتخذ من «سـتندال» اسـماً ادبياً له، لانه كان يكره اسمه الحقيقي الذي يذكره بقسوة أبيه الذي كان يضطهده، نشأ معتنقا فكرة راسـخة ظلت ترافقه طوال حياته، وهي أن الانسـانية تتألف من نوعين من البشـر: «احدهما خبيث، لكنـه يتحدث دائما عن الفضيلة وهو يمارس أقذر الاشـياء، والآخر ذوي النفوس السـمحة الذين تفيض قلوبهـم حبـاً ورحمـة للآخريـن»، وبرغم من أن سـتندال كان مهووسـا بالقـوة وكتـب مـرة إن: «الضعاء فـي نظـري مجانين»، وفي شـخصيات رواياتـه أمثلـة كثيرة تعبر عن هـذا العنف، فهناك التي تقتـل حبيبها، والتي تـدس السـم لعدوها، وآخـرى تقبل شـفتي حبيبها الميـت، لكن صاحب هذه الروايات والمواقف كان انسـاناً خجولاً، ما ان يلتقي بامرأة لأول مرة حتـى يرتجف في البداية، ويتصور بانه يقترب من حافة الهاوية..كان كلما



ينظـر الى وجهه في المرأة، يتذمر من الشـبه الكبيـر بينه وبين ابيه ويدمدم: «يالـه من وجه كوجه الكلاب». وجه احمر خشـن يفتقر الى الرقّة، الأنف مكـور كبصلة، العينان على جانب كبير من القبح، فوقهما حواجب ثقيلة، ماذا بقي في هذا الوجه من خصلة جميلة - سـأل نفسـه - وتذّكر إن بطل روايته الجديدة جوليان سـوريل، شاب جميل تعشقه النساء، إلتفت ناحية الأوراق المتناثرة على المكتب، كم تمنى ان يصحو يوماً فيجد نفسـه وقد تحول الى جوليان آخر، بلا كرش منتفخ وساقين مفرطتين في القصر، كان زملاؤه في المدرسـة يسمونه «البرج المتنقل»، لكن الكتابة أصبحت شيئاً ثقيلاً، طقساً بطيئاً يدوم كل يوم من الصباح حتى ساعات الغروب الاولى، منذ سـتة اسـابيع لم يكتب سـوى صفحات قليلة من هـذا العمل المتعب «الاحمر والاِسـود»، كان والده يريد منه ان يصبـح محامياً، ولم ينقذه من هذا المصير سوى وفاة والدته. يكتب في مذكراته إن طفولته كانت تعيسة بسـبب تزمت والده الـذي كان يرفض الاختلاط، أحب الثورة الفرنسـية، وحين دخل أبوه ذات يوم يحمل خبر اعدام لويس الرابع عشر وهو يصرخ «قتلوه الجبناء» يقول سـتندال: «لقد جرفتني موجة من الفرح الطاغي، لم أحس لها مثيلا في حياتي».

فـي حياتـه التي لـم تتجـاوز التاسـعة والخمسـين عاما، ظل سـتندال حائـراً في مفهوم العلاقة مـع المرأة ونراه يكتب في احدى رسـائله: «هل المطلوب من الرجل أن يسـلك ازاء المرأة مسـلك فرتر بطل رواية غوته، العاشـق الولهـان الحزيـن، او مسـلك دون جـوان، العاشـق الـذي يتميز بالشجاعة والصراحة والحيوية وخفة الروح».

يؤكد معظم نقاد الأدب ان شخصية ستندال وأبطال رواياته تجمع بين النموذجيـن، فهـو في مرات عديدة يجد أن الحـب على طريق فرتر يُمكن العاشـق من الاسـتمتاع بالمشـاعر الخياليـة العذبة، اما الـدون جوان فهو يتمتـع بالحب مثل تمتع القائد العسـكري بالانتصار في الحرب، وقد ظل ستندال طيلة حياته يتأرجح بين شخصيتي فرتر ودون جوان ويحلم بامرأة تبادلـه عاطفة مختلفة عن تلك التي يجدها عند معارفه واقاربه، لكن حلم



الارتباط بالمرأة النموذج لم يتحقق، فظل ستندال يحب الحب نفسه، كتب مرة يقول «طالما كان الحب بالنسبة لي أهم شيء، بل الهدف الوحيد المهم في حياتي» ونجده يخصص كتابا لمشاعره ومفهومه للحب اسماه «في الحب» حيث يشرح فيه نظريته الخاصة والتي تتلخص بان هناك نوعين من الحب، الحب العاطفي، والحب الجسماني، ويؤكد ستندال ان الحب الاول هو وحده الحقيقي وهو يولد ويتطور بشكل تدريجي

١- في البداية يولد الاعجاب

٢- ثم يقول العاشق لنفسه: «اية متعة في ان أقبل هذه المرأة وتقبلني».

٣- ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة الأمل

٤- وبعد الأمل يولد الحب

٥- بعدها تبدأ مرحلة «التبلور» وهي المرحلة التي يطلق فيها المحب على محبوبه ألف صفة وصفة من صفات الكمال. في تلك المرحلة يختفي شخص المحبوب الحقيقي تحت طبقة من الصفات الوهمية التي يسبغها عليه الخيال غيابيا، واثناء هذه المرحلة يخطر ببال المحب شخصية المرأة الحبيبة في كل مناسبة.

٦- ثم تأتي مرحلة الشك، فيسأل المحب نفسه: «ما الذي يثبت لي انها تحبني ؟ وانها ستظل تحبني»، فاذا استطاعت المرأة ان تقتل بذور الشك في قلب الرجل، وأمنته على حبها، نجد هذا الحب يتعرض للسأم والملل.

ويرى ستندال إن الرجل هو الذي يهاجم في الحب، بينما المرأة تتخذ موقف المدافع، هو يطلب وهي ترفض، هو الذي يبدي شجاعة في كل المواقف، بينما تتحصن المرأة وراء خجلها.

****

هل يمكنني أن أكون عاشقاً ؟

جوليان سوريل بطل «الاحمر والاسود» شاب طموح عنيف



المشـاعر، ابـن لبرجـوازي صغير، تدفعـه الظروف الى ان يدخل سـلك الرهبنة الذي يتيح له فرصة التأمل، لا سيما بعد هزيمة جيش الإمبراطور نابليون بطله المثالي خلال جميع مراحل العمل. خلال دراسـته وتهيئته ليصبح قساً، يعرض عليه محافظ بلدته السيد راندال تدريس أبنائه. يرى جوليـان في هـذا العمل فرصته للدخول إلى الطبقة الارسـتقراطية، وبلا تـردد يعمل علـى إغواء زوجـة راندل، امـرأة لم تعرف الحـب من قبل، وبفضل جهلها كانت تشـعر بسـعادة في حضور جوليان، فتركت نفسـها تنجـذب اليـه دون أن تشـعر، حتى اكتشـفت الحقيقة ذات يـوم فنجدها تسأل نفسها: «هل يمكن هذا الذي أحسه نحوه..هو الحب ؟». وأشعرها هذا الاكتشـاف بالقلق وبالسعادة في نفس الوقت، وتغير في نظرها وجه العالم المحيط بها، فبعد أن كانت تعيش برتابة، اكتسى العالم من حولها فجأة بالضياء والسـعادة، أما جوليان فقد تأكد ان هذه العلاقة ستحقق له جزءا من السمو والارتقاء. فالمسألة أكثر منها مسألة حب فيجعل همه ان يكمل السـعي نحو هدفه الدخول الى هذا العالم الارسـتقراطي. ويغمر جوليان شـعور غامر بالسـعادة، لا لأنـه يحب وإنما لأن عذابـا رهيبا قد انتهـى، واعقبه شـعور بالانتصار، انه مـازال في مرحلـة الحب من أجل الزهو، أما مدام دي رينال فهي على العكس منه، وتسـأل نفسـها حائرة: «ماذا هل يمكن ان أكون عاشقة ؟، انا المرأة المتزوجة ؟! إنني لم احس يوما نحو زوجي شـيئا من هذا الجنون الأسـود الذي يجعلني لا اريد أن أبعِـد جوليـان عن خاطـري !..ثم انه فتى يملأ نفسـه الاحتـرام والتوقير لي..كلا إن هذا إلا محض جنون عارض سوف ينقضي».

ينجـح جوليـان فـي مسـعاه ويصبح الاثنـان عاشـقين، يشـيع أعداء المحافـظ الأقاويـل حول غراميـات السـيدة رينال مع الشـاب جوليان. ولتجنب الفضيحة ينقل الشـاب إلى دير بيزانسـون. وفي الدير يسـتطيع جوليان أن يحظى بإعجاب مديره جيرارد الذي يشـجعه ويدعمه ليكون كاهناً نظرا لمثابرته وتميزه على أقرانه.

ومـع تجـاوزه لزملائه في تحصيلـه يثير حفيظة القساوسـة والتلاميذ



على حد سـواء، وحينما يقدم المدير اسـتقالته نظرا لعزوفه عن مشـاركة الكنيسـة فـي المؤامرات السياسـية يـدرك بـأن جوليان سـيفقد حمايته، وعليه يرشحه لصديقه الماركيز دومول ليكون سكرتيره الخاص.

وسـرعان ما يـدرك جوليان بأن منصبـه الجديد سيسـاعده ثانية على دخول أوسـاط النبـلاء الذين كانوا يصرون على تجاهلـه، ونراه لا يتردد فـي اغتنام الفرصة الجديدة حينما أظهـرت ابنة الماركيز ماتيلدا إعجابها به. وعندما تكاشف ماتيلدا والدها بأنها حامل من جوليان، يرضخ لطلبها بأن يمنح حبيبها لقباً رفيعاً وأن يبارك زواجهما نظرا لحبه الشديد لها.

وما أن يشعر جوليان بأنه كاد يحقق حلمه بالكامل، حتى تصل رسالة من السـيدة راندال إلى الماركيز تخبره فيها بأن جوليان شـخص انتهازي ودون جوان وضيع ولا هدف له سوى جمع الثروة. وهكذا ينهار حلمه، ممـا يثيـر غضبه ويدفعـه إلى التوجه مباشـرة إلى بيت رنـدال، وبلا تردد يطلق رصاص مسدسـه على السـيدة رانـدال التي تنجـو باعجوبة، لكن المحكمـة تصدر عليه حكما بالإعدام. وفي المرافعة تصل حبكة القصة إلى ذروتها حيث يكشـف ستاندال عن واقع المجتمع الفرنسي في تلك الفتـرة مـن خلال خطـاب جوليان الذي يبيـن بأن حكم الإعـدام الجائر عليـه إنما بهدف اجهاض حلم كل كل فرد فـي المجتمع من أبناء الطبقة الفقيرة من ان يرتقي في المجتمع .وقبل إعدامه يكتب جوليان رساله الى خطيبتـه يخبرها فيها بان حلمه كان مجرد طموح زائف، جرده من حياته الحقيقية، ويخبرها بان حبه للسيدة رينال كان صادقاً.

****

حروف ١١ امرأة

هـل ذاق سـتندال الحـب، هـذا السـؤال يطرحـه معظم الذيـن قرأوا رواياتـه، وهـم يتنقلون فـي صفحات من الحب العنيـف الذي يعيش فيه أبطال هذه الروايات.



كانت أول امرأة اثارت اهتمامه، ممثلة شاهدها على احد المسارح تدعى «مدام كابلي» لكنه كان حبا ساذجا، ومن طرف واحد، كان ستندال انذاك في السادسة عشرة من عمره، يتردد على المسارح بحثاً عن هذه الممثلة، واذا ذكر اسمها امامه يحمر وجهه، وتشاء الصدف ان يلتقيها مرة واحدة فأغمي عليه من المفاجأة..لكنه يلتقي بزميلة لها وهي ممثلة مغمورة تكبره بثلاثة اعوام، يصاب من ورائها بمرض تناسلي عانى منه حتى آخر يوم في حياته.

بعدها نراه يهيم عشقاً بفتاة تدعى «فكتورين»، كانت أخت احد اصدقائه، لكنه لم يلبث أن تركها من اجل عيون امرأة جميلة تكبره بعشرة اعوام اسمها «انجيلا»، سرعان ما تخلصت منه. في باريس التي وصلها بداية عام ١٨٠٠، كان يبحث عن حب جديد فوجده في «ميلاني لوزان» ويصف لنا في يومياته اللقاء الاول معها: «ذهبت لزيارة ميلاني، وانا أرتجف، وكلفتني باشعال النار في المدفأة، فسرتني هذه المهمة، الدالة على رفع الكلفة، وبقينا معا حتى ساعة متأخرة من الليل.كنت سعيداً جداً، وودت لو احست هي بمثل سعادتي، كانت رائعة وهي تسرد لي اقاصيصها الطريفة، وقد جلست قبالتها أحدق في عينيها، ولابد انها أحست بمدى الانفعال الذي أثارته روحها الرقيقة فيَّ، أن الفرح الذي ظهر على وجهها يثبت انها تحبني ! اما أنا، فحسبي أن فمي وحده هو الذي تكلم، بينما كان قلبي مشغولاً».

وبعد ايام يصف زيارة اخرى لها: «اني عائد تواً من عند لوزان، ويخيل إلي اني لم أكن في يوم من الايام سعيدا مثلما كنت اليوم، وانا ألبس سترتي الأنيقة ورباط رقبتي الفاخر، وقبعتي الجديدة، ولساني منطلق لايتلعثم، لقد سرقت روحي من خلال حديثي، فأنستها قبح وجهي، واشتركت اناقة ثيابي في اخفاء ملامحي المنفرة».

وظفر ستندال بلوزان اخيرا، وحين سافرت الى مرسيليا عام ١٨٠٥ لحق بها، لكن ظروفه المالية اضطرته بعد فترة الى العودة الى باريس، وهناك يتعرف على مدام «رو» زوجة مديره في العمل، حاول ان يفاتحها



بحبه، لكنه خاف من غضب الزوج، وفي هذه الاثناء يلتقي ثانية بحبه القديم انجيلا، والتي كانت قد تزوجت، وقد تذكرته بصعوبة، بعد ان أخبرها انها كانت تطلق عليه في الماضي لقب «الصيني البائس»، وحين يعترف لها بحبه تسأل مستغربة: «لماذا لم تصارحني بحبك يومئذ». وتتوطد العلاقة بينهما، لكنه يكتشف انها تخدعه، وقد وصفها في يومياته بانها: «كانت سمراء رائعة، حادة الشهوات.. وخليلة مثالية.. لكنها تحمل قلب شيطان».

وعلى إثر انفصاله منها، يقع في قصة حب جديدة، هذه المرة فتاة شابة تدعى «ماتيلد» وقد اضافها الى قائمة محبوباته التي بلغن احدى عشر، واللواتي راح يتسلى في آواخر حياته، برسم لوحات كبيرة عليها حروف اسمائهن ليعلقها في البيت.

إلا ان من بين هذا العدد من النساء والفتيات، هناك قلة مَن بادلنه الحب، اما الباقيات فهو يتحدث عنهن باعتبارهن يحملن عواطف متواضعة، والواقع ان ستندال كان متواضعا حتى في اختياراته، فمعظم اللواتي عشقهن كن جميعا متوسطات الجمال، فقد كان لايولي اهمية لجمال الشكل قدر عنايته بجمال المشاعر فكتب عن ميلاني انها: «ليست جميلة، لكنها سامية» ووصف اخرى بقوله: «لم اكن اتصور ان مثل هذه المشاعر الجميلة يمكن ان توجد على الأرض». والواقع ان اولئك النساء اللواتي ملأن حياة المسيو ماري هنري بيل الملقب بستندال، هن اللواتي ملأن فيما بعد روايات ستندال وقصصه بحكايات الغرام.

****

فن الحب

يكتب اريك فروم في كتابه الشهير «فن الحب»، ان ستندال أراد في كتابه عن الحب، أنْ نحب من دون أنْ نعرف كيف نحب، إنه يقدم لنا



عاطفة مُربكة إلى أقصى مدى من خلال رواياته التي دائماً ما تطرح الحب جانباً بوصفه شيئاً يحدث لنا بتأثير سلبي ومُصادفة، شيئاً نقع في شباكه، يُصيبنا كسهم، وليس ممارسة بارعة نُنَميها بمهارة دقيقة كأية حرفة تتطلب تفوقاً إنسانياً. لعل فشلنا في الاعتراف بجانب البراعة هذا هو السبب الرئيس في أنَّ الحب يمتزج بالإحباط.

ويضيف فروم ان ستندال يريد أنْ يُبيِّن أنَّ الحب ليس عاطفة يمكن لأي إنسان أنْ ينغمس فيها، بغض النظر عن مستوى النضج لديه، إنه يريد أنْ يُقنع قراء رواياته بأنَّ كل محاولاته لنيل الحب مصيرها الفشل، إلا إذا حاول بكل حماس أنْ يُطوّر شخصيته كلها، وذلك لكي يحقق توجّهاً مثمراً، وأن الإشباع في الحب الفردي لا يمكن بلوغه إلا بالقدرة على الحب بمذلّة حقيقية، وشجاعة، وإيمان وانضباط.

العام ١٨٤١ وفي أحد شوارع باريس كان الرجل الضخم يجر قدميه بصعوبة، يتذكر تلك الأيام الجميلة حين كان يصوب بصره الى النساء، أما الآن فالبصر تعبان واليد ضعيفة ، والعينان ترقدان خافتتين، شفته السفلى ترتعش، فقد أصيب قبل ايام بنوبة دماغية مؤلمة، لم تعد باريس كما كانت يوم وصلها وهو شاب صغير، تغيرت كثيرا، هاهو الموت يتقرب اليه، ينقل نظراته المتعبة بين المتنزهين، يقترب من احدى النساء التي تسأله وهي تبتسم عن مهنته فيجيبها بصوت متقطع: «انا مراقب القلب البشري»، وما أن يتركها ويسير خطوات حتى ينهار وقد جحظت عيناه وإزرقّ وجهه، لقد اصابته النوبة من جديد، يتجمع المارة حوله، ثم يحملونه الى غرفته في الفندق، حيث الأوراق تتوزع على المنضدة وعلى احداها كتب: «١٢ آذار باريس ١٨٤١ لا اجد شيئاً مضحكاً في ان أموت في الشارع، مادمت لا أفعل ذلك عامدا».

احب ستندال النساء منذ طفولته، وقد كان يحب ان يتخيل نفسه منقذا لامرأة مجهولة جميلة من الخطر، وحين وصل باريس كتب لأحد اصدقائه: «ما أبحث عنه امرأة ساحرة وسوف أعبدها مثما أجعلها تعرف أسرار روحي». وعندما تقدمت به السن كان يكتب في أوراق ملونة



الأحرف الاولى من اسماء النساء اللواتي احبهن، لقد كانت النساء شغفه الرئيسي وجوهر حياته.

الصديـق الرقيق للنسـاء، كمـا اطلقت عليـه سـيمون دي بوفوار، لم يكـن يؤمـن بالغموض النسـوي، وكان يذوق متعـة التأمل أمـام المرأة، وهو مسـحور بهـا كما يسـحره المنظر الطبيعـي او اللوحـة الفنية : «من المسـتحيل فهم رقة النسـاء وحساسـيتهن وحرارتهن مـن غير أن يصبح الرجل بدوره ذا روح رقيقة وحساسة وملتهبة، فالعواطف النسائية تخلق عالماً من ظلال الألوان ومتطلبات يكون اكتشافها مثرياً للرجل».

ان سـتندال علـى الرغم مـن امتداحه كثيـرا كطبيب للنفس البشـرية ولعلاقات الحب، فانه يبدو لنا اليوم اشبه بفيلسوف في بحثه عن الحقيقة الواعيـة للرغبة وهو يرى ان الغـرور والزهو، هو محور الحب العاطفي، وبالواقع «اذا وقعت أنتَ قارئ ستندال في الحب، فكل شيء في حالتك لايعـد مرضا بل غرورا وزهوا باطلا، انه شـكاك يؤمن بالحب» تلك هي خلاصة رأي بول فاليري في ستندال.




مكتبة
الفكر الجديد

-١٧-

الحب على طريقة الفلسفة الوضعيّة

فـي ١٢ أيار عـام ١٩١٥، كان الطالب القادم من مصر قد تقدم لنيل شـهادة في التاريخ والجغرافيا في كليـة الآداب جامعة مونبليه، وكانت الفتـاة الفرنسـية سـوزان قد بلغت العشـرين مـن العمر، وبين السـاعة السادسة والسابعة صباحاً، حدث ما يشبه المعجزة، لتكتب سوزان بعد ذلك بسـتين عاماً، في مذكراتها التي أسـمتها معك: «لم يكن ثمة شيء في ذلك اليوم ينبئني بأن مصيري كان يتقرر، ولم يكن بوسـع أمي التي كانت بصحبتي أن تتصور أمراً مماثلاً».

نحـن الآن أمـام فتـاة فرنسـية متعلمـة ومن طبقة متوسـطة، تسـعى للحصـول على عمل، وكانت أمامها وظيفـة قارئة لطالب أجنبي وضع إعلاناً في صحيفة محلية. وبعد سـنوات طويلة يقصُّ علينا طه حسـين حكايـة اللقاء الأول فيقول: «كنت أوّل اجنبي تلتقيه هذه الفتاة، وكانت أول فتـاة تزورني، وكان مـن الطبيعي إذن ألا تجـري محادثاتنا مجرى سـهلاً» (من حوار مطوّل مع غالي شـكري نشر بكتاب ماذا بقى من طه حسين؟).

سـوزان من ناحيتها قالت إنها كانـت مرتبكة، وفي حوارها الوحيد الـذي أجرتـه مـع الصحفيـة المصريـة أمينة السـعيد ونشـر فـي مجلة المصـور عام ١٩٦٢ تقول: «كنت على شـيء من الحيرة، إذ لم يسـبق لـي فـي حياتي أن كلمت أعمى»، ولكنها تكتشـف فيما بعد أنه لم يكن اعمى، بل اجنبي فقط وكان بحاجة الى قارئة باللغة الفرنسـية، وستقوم



هي بالدور المطلوب منها، ونراها بعد أشهر تتجاوز كونها مجرد قارئة، لتتحول الى مرشـدة تدله على خفايا الأدب الفرنسي: «كانت صديقتي وأسـتاذتي وأنا مدين لهـا أن تعلمت اللاتينية مـن خلالها ونجحت في نيل إجازة الآدب، وأنا مدين لها أخيراً حين اسـتطعت أن اقرأ افلاطون بلغته الأصلية».

ذات مرة، كتب طه حسـين الى زوجته سوزان يقول: «بدونك اشعر انـي اعمى حقاً. أمـا وأنا معك، فإني اتوصل الى الشـعور بكل شـيء، واني امتزج بكل الأشـياء التي تحيط بي». وعندما رحل هو عن العالم، كتبـت هي تقول: «ذراعي لن تمسـك بذراعك أبـداً، ويداي تبدوان لي بلا فائدة بشكل محزن».

****

الحب في عصر التطور العلمي

في باريس يتعرف طه حسـين الشاب على أعمال الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت، وكان هذا الفيلسوف الذي ولد عام ١٧٩٨ وتوفـي ١٨٥٧، قـد وضع اثنـاء حياته كتاباً عـن الحب أراد من خلاله التبشير بفلسفة تنطوي على مفهوم جديد للحب والعلاقات بين البشـر، كان كونت يؤكد لتلامذتـه أن مفهومه للحب هو وحده الملائم لعقل البشر في عصر التطور العلمي.

ونجد طه حسـين بعد اكثر من عشرين عاماً، ينشر في مجلة الرسالة مقـالاً بعنـوان «قصة فيلسـوف عاشـق» يقول فيـه: «لم يعـرف التاريخ عاشـقاً مثل صاحبنا -يقصد كونت- أراد أن يشـرك امرأة من النساء في حبه وهيامه، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به آلهة الحكمة نفسها».

عـام ١٨٤٠ كان اوغسـت كونـت يلقـي محاضراتـه فـي الفلسـفة الوضعيـة، فأثار اهتمامه أحد الطلبة «مكسـيمليان مـاري» الذي اصبح



التلميـذ المقـرب من مـدرس علـم الفلك، وتشـاء الصـدف أن يلتقي اوغسـت كونـت ذات يـوم بالطالـب مكسـيمليان وشـقيقته «كلوتيد» التـي سـتصبح ملهمته في مجال الفلسـفة، حين رآها كانـت في الرابعة والعشـرين من عمرها، فيما كان يبلغ الثانية والاربعين من عمره، مرت بتجربة زواج فاشـلة عندما كانت في الخامسـة عشـر من عمرها، حين تركهـا زوجهـا المقامر وهـرب الى جهـة مجهولة، التقاها الفيلسـوف فوجد فيها صورة للفتاة الحزينة، لكنها لم تجد فيه سوى صورة الانسان الدميـم، قبيح الشـكل، وأزعجها صوتـه الغليظ، وقالـت لإخيها: «لم استطع التخلص من فكرة انني بمواجهة انسان منعزل». ويكتب كونت في دفتر يومياته: «عرفت على الفور انني دخلت مرحلة الخطر»، يكتب عبـد الرحمـن بدوي فـي كتابه الممتع عن أوغسـت كونـت: «في تلك اللحظة بدأت واحدة من أعظم قصص الحب في تاريخ الفلسفة، ومنها تأسسـت فلسـفة إثارت الكثير مـن الجدل».. كان الأوغسـت كونت قد مـر بتجارب مرة مع عدد من النسـاء، ويخبرنا في دفتر يومياته أن حياته الجنسـية لم تنفصل يوماً عن احلامه عن الحب، تعرّف على أول امرأة فـي حياته عندما كان في الثامنة عشـرة من عمـره: «نمت معها من دون حماسـة لأنهـا كانت امرأة قبيحة». بعد ذلك كانـت ثمة امرأة من اقاربه قضى معها اشـهر قبل أن يكتشف انها تكره الذين يستخدمون عقولهم، وحيـن بلغ العشـرين من عمره، عـاش قصة حب عنيفة مـع «جيرمين» احدى زميلاته في الكلية فكتب لها: «احبك إلى درجة الجنون»، لكنها تقابل هذا الجنون بردٍ قاس: «وجدتك بسيطاً، لايمكن أن ترتبط حياتي بـك». وحين فشـلت قصة حبه ذهب الـى احد الحقـول: «بكيت كثيراً فقـد كنت ثمـلاً، لكني شـعرت بالراحة، فقد تصرفت أخيـراً على نحو صائب، لاحب بعد اليوم، الفلسفة هي حبيبتي».

كان كونـت يجـد الراحـة عنـد زيـارة عائلـة «كلوتيد» وقـد اخذت الفتـاة تلقـي عليه ببعض مـا تكتبه من شـعر، ولـم يكن هذا الفيلسـوف يحب الشـعر ويجـده مضيعة للعقـل، فيحدثها عن الفلسـفة الوضعية،



وعن مجلداته الخمسة التي نشرت مؤخراً، وعن دروسه في الفلك، ولانها ارادت ان تجامله، اخذت تقرأ بعض وؤلفاته، دون أن تفهم منها شيئاً، لكنها في المقابل بدأت تؤثر بالفيلسوف الوضعي ونراه يكتب: «ما قيمة التفكير العقلي، ومتى كان الرجل رجلاً دون قلبه، ومتى كان الانسان انساناً بالتفكير دون الحب، إن الانسان لايستطيع أن يفكر في كل وقت، لكنه يستطيع أن يحب دائماً».

يستعرض طه حسين في مقاله عن أوغست كونت والذي نشر عام ١٩٣٤ المراحل المختلفة التي مر بها حب الفيلسوف للشابة كلوتيد، وقد تمثلت في السعي نحو الحب الأسمى، ويخبرنا طه حسين أن الفيلسوف عندما تعرف على كلوتيد كان يعيش حالة من اليأس، لكنه بدا بعدها، يبدأ حياة جديدة، حين اربكت هذه الشابة حياته، يكتب في دفتر يومياته: «انا متعطش لهذا النوع من النساء، وسأضع نفسي في خدمتها دوماً».

في كتابه عن الحب يكتب اوغست كونت: «لا ريب في أن الفلسفة الوضعية تكفي لفهم قوانين العالم الموضوعي الفيزيائي. إنها تكفي لتحقيق التقدم والتطور على هذه الأرض. إنها تكفي لاختراع الآلات التكنولوجية التي تريح الإنسان من بذل الجهد العضلي المرهق كما كان يفعل في العصور السابقة. إنها تكفي لتحسين معيشة الإنسان وتطوير علم الطب والقضاء على الأمراض وتحويل حياة الناس إلى جنة.. ولكنها لا تكفي لفهم الوجود وإعطاء معنى للحياة. ولذلك فإن دين البشرية الجديد هو الحب، وهو وحده الذي يتصدى لهذه المهمة الصعبة ويقدم للإنسان كل العزاء والطمأنينة في هذا العالم». ويضيف كونت: «على الرغم من تقدم العلم في عصرنا إلا أن الإنسان لا يستطيع أن يستغني عن التمسك بالحب. ولا ينبغي أن يغتر الإنسان كثيراً بنفسه لأنه حقق كل هذا التقدم العلمي والتكنولوجي في عصر الحداثة، ينبغي عليه أن يتواضع ويعترف بوجود قيم أخرى في الحياة.



وهي قيم قائمة على الحب، قائمة على تطهير روح الإنسان من الداخل لكي يتخلص من أنانيته وكرهه للبشر الآخرين».

****

بدونك أشعر اني أعمى حقا

يكتب طه حسين عن الحب في مقال نشر عام ١٩٤٥ في مجلة الكاتب: «إنما هو الحب الذي يطمع في كل شيء و يرضي بأقل شيء، بل يرضى بلا شيء، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب و يهوى. هو الحب ما في ذلك من شك، لكن الشك المؤلم المضني إنما يتصل بالقلب».

وتكتب سوزان طه حسن في كتابها الممتع «معك »، وهي تستذكر أيام اللقاء الاولى بطه حسين: «كنا أمي وأختي وأنا قد أقمنا فى باريس وكنا نلتقي، وكان ثمة غرفة شاغرة في بيتنا، وكان - طه - يبدو مهملاً ضائعاً برغم حضور أخ له لم يكن للأسف معينا، بحيث إن أمي اقترحت عليه المجيء للسكن عندنا، وقبل ولكن بعد كثير من التردد لأنه كان شديد الخجل في حياته اليومية، لم يقبل إطلاقا أن يتناول وجباته معنا، كان ثمة قارئة تأتيه بانتظام، وكانت هناك سيدة أكبر في العمر تصحبه إلى السور بالجامعة، لكني شيئا فشيئا أخذت أتدخل في ذلك وأصحبه أنا الأخرى إلى الجامعة من وقت لآخر حتى بت أصحبه غالبا، وكنت أقرأ له عندما يكون وحيداً، كنا نتحدث بكثرة، وكان يحقق تقدما عظيما في اللغة الفرنسية!!

وذات يوم قال لي: اغفري لي، اريد ان تقرأي لي شيئا من أوغست كونت .

قلت له: أوغست كونت.. المعذرة لم اسمع بهذا الاسم من قبل.

وكان لابد لي ان ابحث عن كتب هذا الفيلسوف، ويوم وجدتها امتلأ قلبي بالفرح، بعد ايام وأنا اقرأ له فصلا كتبه اوغست كونت عن الحب،



سـمعته يقول لي المعذرة، لابد ان أقول لك شيئا، ثم صمت وبعد دقائق قـال: أنا أحبـك!!، وصرخت وقد أذهلتني المفاجـأة بفظاظة: ولكني لا أحبك!! كنت أعني الحب بين الرجل والمرأة ولا شـك، فقال بحزن: آه إنني أعرف ذلك جيدا وأعرف جيدا أنه مستحيل».

ويخبرهـا ذات يـوم انـه معجـب بوصيـة فولتير الشـهير مـن أن على المحـب أن يلـحّ في حبـه حتى يظفر بمـن تحب أو تفنى دونـه. وتكتب سـوزان: «ولكـن هل مـن الممكن أنني كنـت محبوبة على هـذا النحو، وأنني كنت المقصودة بكل هذا السـيل من الحنان والعاطفة وهذا القدر من الحب الذي كان على أن أحمله وحدي؟!».

في كتابه الأيام يكتب طه حسـين: «وتسأله الفتاة ذات يوم وقد خلت اليـه تقـرأ عليه بعض ماكانا يقرآن، فيريد ان يلتـوي بالجواب، فتلح عليه واذا هو ينبئها مريدا او غير مريد بأمره كله

فتسـمع له ثـم تأخذ في القـراءة حتـى اذا أتمتها وهمـت ان تنصرف قالت له في رفق

- وإذاً فماذا تريد

- قال الفتى: لا اريد شيئا

- قالـت: فاني قد فكرت فيما أنبأتني بـه وأطلت فيه التفكير، ولـم انته بعد الى شـيء، وقد اوشك الصيف ان ينتهي، فأصبر حتى اذا كان افتراقنا فستصل بيننا الرسائل.

- ولـم يسعد الفتى بشيء قط، كما سعد بهذا الحديث، فاخيرا ستكتب اليه وحده». وذات مرة كتب طه حسين الى زوجته سوزان يقول: «بدونك أشعر اني أعمى حقا. اما وانا معك، فإني اتوصل الى الشعور بكل شيء، وانـي أمتزج بكل الاشـياء التي تحيط بي». وعندما رحـل هو عنِ العالم، كتبـت هـي تقول بعد رحيلـه: «ذراعي لن تمسـك بذراعك أبـداً، ويداي تبـدوان لـي بلا فائدة بشـكل محـزن، فأغرق فـي اليأس، اريـد عبر عيني المخضبتيـن بالدموع، حيث يقاس مـدى الحب، وامام الهاوية المظلمة، حيث يتأرجح كل شيء، اريد ان أرى تحت جفنيك اللذين بقيا محلقين،



ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة، الباسلة، اريد ان أرى من جديد ابتسامتك الرائعة».

كان طه حسين في السادسة والعشرين من عمره ولم يكن كاتبا معروفا عندما قرر ان يتزوج من سوزان وتذكر هي في مذكراتها، انها: «ذات يوم صرحت برغبتها في الزواج منه فصعقت العائلة وأخذ جميع افرادها يصيحون فيها غاضبين: كيف؟ من أجنبي؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟»، غير إن الفتاة كانت قد اختارت. وجاءها العون من عم لها كان قسا، فقد قال لها بعد ان تنزه مع طه حسين مدة ساعتين في حقول باريس: «بوسعك ان تنفذي ما عزمت عليه.. لا تخافي، فبصحبة هذا الرجل يستطيع المرء أن يحلق بالحوار ما استطاع الى ذلك سبيلا، انه سيتجاوزك باستمرار». وفيما بعد سوف تكتشف السيدة سوزان ان عمها كان على حق..فتتم مراسم الزواج في بداية آذار من عام ١٩١٧.

في العام ١٩٢٢ وبعد مرور خمسة أعوام على الزواج يكتب طه حسين اغنية خاصة لزوجته سوزان، ويقدمها للملحن المعروف انذاك كامل الخلعي الذي يعجب بها، فيقوم بتلحين كلماتها لتغنيها أشهر مطربات زمانه منيرة المهدية، وظهرت الأغنية في أسطوانة سجلتها شركة فونوغراف ومكتوب عليها أنها من كلمات الدكتور طه حسين، تقول كلماتها:

أنا لولاك ما كنت ملاك.. غير مسموح أهوى سواك.. سامحني
بين العشاق أنا مشتاق.. أبكي وأنوح بالأشواق.. صدقني
عهدك فين يا نور العين.. بالمفتوح تهوى اتنين.. جاوبني
واحد بس يهوي القلب.. قلبي ينوح له بالحب.. طاوعني
أنا أهواك مين قساك.. أنا مجروح غايتي رضاك.. واصلني
ما أحلاك وقت رضاك.. لما تلوح ما أبهاك.. كلمني

كتب لها يقول ذات يوم: «أمنعك من أن تكوني حزينة، وآمرك بالابتسام، لا تقولي شيئاً. الآن، تعالي إلى ذراعي. أحبك حتى نهاية



الحساب.. أحبك وأنتظرك، ولا أحيا إلا على هذا الانتظار». في إحدى الليالـي، كانـت سـوزان نائمة، فأشـار طه إليهـا، وقال لابنتـه أمينة: هذه المرأة جعلت من أبيك إنسانا آخر.

****

بين الايام واللحظات الاخيرة

في كتاب «الايام» نرى طه حسين ويرانا، وتخبرنا سوزان في «معك» ان فكـرة الكتاب نضجت بعد ان تعرض عميد الادب العربي الى موقف عنيف بسـبب صـدور كتاب له في الشـعر الجاهلي، وخوفـا على حياته سافر الى احدى القرى في باريس. وهناك وفي تسعة أيام بدأ يكتب سيرة الطفل الضرير والتي صدر عام ١٩٢٦ الجزء الاول منها بعنوان «الايام»، وفيـه نقرا صفحات ناصعـة جريئة من نضال الانسـان وكفاحة واصراره على خوض المستحيل.

هذا الكتاب هو الرسـالة التي وجهها طه حسـين لابنتـه البالغة آنذاك تسعة أعوام: «نعم يا ابنتي لقد عرفت ابيك في هذا الطور من حياته، واني لأعـرف ان في قلبك رقة وليناً، واني لأخشـى لو حدثتك بما عرفت من امر ابيك حينئذ ان يملكك الإشـفاق وتأخذك الرأفة فتجهشين بالبكاء».

كتـب طه حسـين الكتاب وهو فـي السـابعة والثلاثين من عمـره، وطبع الكتاب اكثر من خمسين طبعة وما زال يطبع ويجد قارئا جديدا كل يوم، وهـو يقول لغالي شـكري : «ليس الغـرض من الايـام ان اصف حياتي، وانمـا كنـت اريـد ان ادرس حيـاة المجتمـع المصري في ذلـك الزمان» وهو يرسـم لغالي شـكري حدود نظريتـه الفنية في كتابة السـيرة فيقول: «خصلة اخرى حببت إلي نشـر هذا الكتاب، وهي انه يؤرخ حياة الطالب فـي الازهر وفـي الجامعة المصرية، وهـو نوع جديد من الكتابة، لسـت ابحث من خلاله عن الاولوية في القيمة وانما اكتفي بهذه الاولوية نفسها مغريا بنشر المعرفة بين الناس، ولست اتخذ من اولويته فخرا وانما اتخذ



منها معذرة ان كان فيه بعض النقص». في يوم ٢٧ تشرين الاول ١٩٧٣، أصيب طه حسين بوعكة صحية، ولما جاء الطبيب لفحصه زالت النوبة وعاد صاحب «الأيام» الى حالته الطبيعية، كانت برقية الأمم المتحدة التي وصلت عصر ذلك اليوم تعلن فوزه بجائزة حقوق الانسان، غير انه لم يسعد كثيرا بتلك البرقية، وبإشارة من يده تعرفها زوجته جيدا، علّق على ذلك قائلا: «أية حماقة، يريدون ان يجعلوا من رجل اعمى قائدا لسفينة ؟» صبيحة اليوم التالي شرب العميد قليلا من الحليب، ثم لفظ انفاسه. وفيما بعد كتبت زوجته تقول واصفة مشاعرها في تلك اللحظة العصيبة: «جلست قربه، مرهقة متبلدة الذهن وان كنت هادئة هدوءا غريبا، ما اكثر ما كنت اتخيل هذه اللحظة الصعبة، كنا معا وحيدين، متقاربين بشكل يفوق الوصف. ولم أكن ابكي فقد جاءت الدموع بعد ذلك ولم يكن احد يعرف بعد بالذي حدث، كان الواحد منا مثل الاخر مجهولا ومتوحدا، كما كنا في بداية طريقنا».

وتروي سوزان لحظة الذهاب الى المقبرة بعد وفاة طه حسين: «ذهبنا إلى المقبرة، ابنتك أمينة وابنك مؤنس وأنا.. لم أكن قد نمت جيدا، لكني حاولت الظهور بمظهر الهادئة. إذا بكيت فإنما أبكي غيابك الذي لا دواء له، وربما أبكي حياتي التي بت لا أتعرف عليها. أرفع عيني وأنظر إلى الجرف المنحدر الأصفر للمقطم، كنا نأتي إليه في بعض الأحيان صباحا ونتوقف على حافته، لكننا لم نكن نترك السيارة التي كانت تحمينا من شمس حادة حتى في الشتاء.. أفكر في تلك السعادات الصغيرة التي منحت لنا ونحن ساكنين في السيارة البويك القديمة.. كانت الأيام عذبة بلا حدود.. كانت نعمة.. ويبدو لي الآن أنني أرتكب عملا جائرا إذ أجد أن السماء جميلة وأن الصخرة جميلة وأن أوراق الشجر جميلة.. إذ أنني لا أملك الحق في ذلك ما دمت لا أستطيع أبدا أن أقول ذلك لك»

وعلى قبره تقرأ قصيدة نزار قباني

يا حبيبي ويا حبيب البيان

ما علينا إذا جلسنا بركن



وفتحنا حقائب الأحزان
وقرأنا أبا العلاء قليلا
وقرأنا رسالة الغفران
آه يا سيدي الذي جعل الليل
نهارا.. والأرض كالمهرجان
وحدك المبصر الذي كشف النفس
إرم نظارتيك.. ما أنت أعمى
إنما نحن جوقة العميان



-١٨-

من دون نساء لا توجد موسيقى

وانـا ابحـث في مكتبتي عن احـد الكتب، وقعت عينـاي على كتاب صغيـر الحجـم، بعنوان بيتهوفن لمؤلفه حسـين فـوزي. ولمن لا يعرف صاحب الاسم أقول، انه كان ظاهرة في الثقافة العربية في الخمسينيات والسـتينيات من القرن الماضي. وقد اشـتهر باسـم السـندباد المصري، لانه وضع كتابا عام ١٩٣٨ بعنوان سـندباد عصري، وبعدها اصدر كتاباً بعنوان سندباد إلي الغرب أهداه إلي صديقه الدكتور طه حسين.

وكتابـه عـن بتهوفـن اصـدره عـام ١٩٧٠ بمناسـبة مـرور مئتي عام على ولادة بيتهوفن، ويخبرنا انه امضى في تاليفه اكثر من خمسة عشـر عامـا، ويذكر مؤرخو سـيرة حسـين فوزي ان الرجـل كان قصير القامة، ذو صـوت خافت وذاكرة يقظة، عين اول عميـد لكلية العلوم في مصر، ورغـم حصولـه على شـهادة الدكتـوراه في علـوم الاحياء، كان يعشـق الفنـون والموسـيقى، حتى انـه تفرغ لها واسـتخدم ثقافتـه المتنوعة في الادب والتشكيل والموسيقى ليقدمها الى القارئ.

فـي مقدمته لكتـاب بيتهوفن التـي بعنوان «لويس ابـو الغيط» يكتب حسـين فـوزي: (عنـوان هـذا الفصـل لا يعـدو ان يجيء تعريب لاسـم لودفيغ فان بيتهوفن، ان «فان» هنا تشـير الى لقب من ألقاب النبلاء، اما كلمـة «بيتهوفن» فهي مركبة من كلمـة «هوفن» وهو الحقل او الحديقة،



و «بيت» هو البنجر، فيكون معنى اللقب حقل البنجر، وتعريبه مختزلاً في دعابة «لويس ابو الغيط»).

****

قرار بأن يعيش الطفل

عندما بلغ العاشرة من عمره أفلس والده وأصبح انساناً فظاً عصبي المزاج، وأمه التي كانت جميلة ذات يوم اكتأبت وانغلقت على نفسها، كانت الأسرة غارقة في المشاكل، الام ماريا انجليدا في الثالثة والعشرين من عمرها، فقدت من قبل طفلين، ثم وجدت نفسها حاملاً مرة آخرى من زوجها القاسي مدمن الخمر، نصحتها احدى الممرضات بان تتخلص من الجنين، فهو حتما سيموت عند ولادته، وفكرت مع نفسها: «لماذا تريد إنجاب طفل لزوج قاسي ومفلس على الدوام»، وأخيراً قررت أن تحتفظ بالجنين الذي أبصر النور في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٧٧٠ واطلق عليه اسم لودفيغ، تيمناً باسم جده لودفيج فان بيتهوفن الذي كان يعمل مديرا لاحدى الفرق الموسيقية في بون وقد تأثر به كثيرا: «جدي الرائع الذي أشبهه كثيراً»، بعد ذلك انجبت ماريا انجيلدا أربعة اخرين بقيّ منهم اثنان على قيد الحياة، وبسبب متاعب الحياة عانت من امراض كثيرة لتتوفى بداء السل، وهي في الاربعين من عمرها، ونجد الابن يصف أمه في احدى رسائله بانها كانت جميلة ذات قوام نحيف وعينين جادتين، وستظل صورة أمه تلاحقه حتى مع النساء اللواتي تعرف عليهم في شبابه وقد أهدى لها فيما بعد سوناتة ضوء القمر: «انها حمم العاطفة ترتفع من حلق الجسد، لحظة نحس فيها بان اشارة من امرأة هي كل ما تبقى لنا في الحياة». كان البحث عن الحب والحنان مرتبطاً عند بيتهوفن بأحاسيس غريبة، فهو شديد الإعجاب بأمه، وقد هام وهو في الثالثة عشرة من عمره بفتاة تدعى «انجيليا» يصفها بهذه الكلمات: «كان لها وجهاً شبيها بوجه محبوبته الاولى ماريا -يقصد أمه-». غير أن هذا



الاعجـاب لـم يكـن إلا البداية في طريق طويل مـن العواطف التي كانت تنتهي بالخسران، اذ نجده يعود بعد كل تجربة حب فاشلة، الى الانعزال، فيما اسماء حبيباته وملهماته تتغير مع الزمن على دقات وقع قلبه، غير أن نفس الفنان لاتنتقل من تجربة الى تجربة دون ان تحرك طاقته الابداعية، حتى اننا نكتشـف ان ارتباط مواهب بيتهوفن الموسـيقية مرتبط بعواطفه وبنظرتـه الى مايجري حوله من أحداث، ان أبتسـامة امرأة تحرك مواهبه كما تحرك احاسيسـه، فقد كان في حاجة الى أن يعيش الحب حتى يبدع هـو يعتـرف بصراحة الى شـقيقه قائلا: «لـم أعد في حاجـة إلا الى امرأة بجانبي تحفزني حتى تنفجر ألحاني الموسيقية الرقيقة في روحي».

فـي فيينا التي قضى فيها سـنوات مـن عمره، تقبل عليه نسـاء الطبقة الارسـتقراطية اعجابـا وتقديراً لموهبته، وهو يقع فـي غرام الواحدة بعد الاخرى، لايلوي على شـيء أكثر من الأمل بحب دائم، لكن لا خلاص ولا حـب ولا أمل ولا زواج، فقـد أحبت الطبقة الارسـتقراطية بيتهوفن الموسـيقي البارع، وليس بيتهوفن الذي لم يكن يتميزبالوسامة والثروة، فقـد كانـت ملامحـه وجهه تبـدو قاسـية، لأنه حيـن يجلس إلـى البيانو كان يتحـدث بلغة جديدة يمتزج فيها الشـعر بالانغام ويكتب في رسـالة الى مـوزارت: «كل من يفهمون موسـيقاي يرتفعون عـن الدناءات التي يعممها البشـر».، ولعل السـر في حياة بتهوفن الغرامية لا علاقة له بامرأة واحدة، او بقصة حب فاشلة، وانما بسلوكه نحو النساء، كان يعتقد نفسه مثـل دون جـوان، الباحـث عن المـرأة المثاليـة دون جـدوى، والغريب انـه لـن يلقاها حتـى اللحظة الاخيرة مـن حياته، فقـد كان بيتهوفن برغم هيامه بالنسـاء، يكره الزواج، ويخبرنا كاتب سيرته «ادموند موريس» «ان الموسـيقار العظيم كان يعتقد ان الزواج يعيق طريقه الى تحقيق الاعمال العظيمة».

كان بتهوفن شـديد الحساسـية فيما يتعلق بموضوع الجنس، ومعظم كتاب سـيرته يصفونـه بالملاك الطاهر في غرامياته فيقول حسـين فوزي في كتابه بيتهوفن : «ان العشق كان بالنسبة لبيتهوفن قوة دافعة في حياته،



لكن موسيقاه كانت بمنأى عن الانشغال بالجنس». والحقيقة ان بيتهوفن لم يكن فارسا من فرسان الغرام، لكنه كان ينظر الى العلاقة بين الرجل والمرأة كشيء منزّه فيكتب في احدى كراساته: «الاتصال دون موائمة روحية، عمل بهيمي لايحس الإنسان في اعقابه بإحساس السمو، وانما يورث الندم».

****

الحب الأول

أحب بتهوفن في بداية شبابه مغنية اوبرا فكتب اليها يطلب الارتباط بها ولم ترد عليه بحجة انه لايملك المال ولا الوسامة فضلا عن انه نصف مجنون. وكان حظه من النساء يرتبط بالطبقة الارستقراطية، الكونتيسة تريزافون، وتريزا مالفاي، والكونتيسة جوليا جيتشاري، والكونتيسة أردودي، وأماليا زيبالد، وبتينافون آرنم، ولم تترك له هذه العلاقات العاطفية سوى المرارة والأسى. وعندما اصيب بمرض الصمم اصبحت علاقاته بالنساء أشد صعوبة، يقول ادموند موريس في ترجمته لحياة بيتهوفن: «لو أن بتهوفن كان مثل كازاناوفا في جاذبيته للنساء، لافتقر العالم اليوم الى سمفونية البطولة والقداس الاحتفالي والرباعية الرابعة عشرة».

في يومياته يكتب بيتهوفن حول قراره بعدم الزواج: «الخضوع المطلق لقدرك، هذا هو وحده القادر على ان يهبك التضحية، لا يمكنني ان أسير في الطريق نحو العبودية، ان عليك ان تُخضع كل شيء لإرادتك، وابق على الدوام ملازما لفكرتك، لاتحيد عنها» ونجده عام ١٨١٢ يكتب لشقيقه: «ما اشد الاختلاف حين اقارن ذلك بحياة غير مدروسة طالما تُثار بخيالي، آهٍ أيتها الاوضاع المخيفة التي لاتكبت شعوري وهاجسي تجاه الحياة البيتية، ولكن تنفيذها ياالهي أمر صعب».



ونعـود ليومياتـه فنجده يكتب عام ١٩١٣: «ربمـا لن تعود بعد الآن رجـلاً، لا لنفسـك فقط بـل للاخرين، فليس هناك بعد الآن من سـعادة إلا فـي ذاتك، في فنك، آهٍ ياالهي أعطني القوة لقهر نفسـي، لاينبغي ان يأسـرني أي شـيء ويقيدني للحياة، وهكذا فكل شـيء له صلة بالنساء سيمضي الى حيث يُدمر ويفنى».

ان هاجس الحياة البيتية والحب الذي يشـير اليه بيتهوفن في رسائله ويومياتـه كان قويـاً جدا، في تلك الفترة كان قـد بلغ الاربعين من عمره وعلى الرغم من سـوء صحته، إلا ان نشـاطه وحيويته كانت تشـير الى شاب لم يتجاوز الثلاثين، شهرته كبيرة، والكثير ينظر اليه بوصفه أعظم المؤلفين الموسـيقيين، أما وضعه المالي فقد تحسـن كثيرا، ذهبت أيام الفقر والعوز.

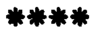
فـي عـام ١٨٠٩ كان بيتهوفـن قد دُعي الى مدينة كاسـل للعمل في القصـر الملكي بمرتب سـنوي كبيـر، وكان على وشـك القبول حينما طلب اليه أحد امراء فيينا الامير كينسكي بالبقاء في المدينة مقابل راتب سـنوي لم يكـن يحلم به وقدره أربعة آلاف فلوريـن، هذا الراتب ومعه الايرادت التي تصل اليه من مؤلفاته الموسـيقية جعلته يتأمل من جديد بفكرة الزواج، ويكتب الى شقيقه إن فكرة الزواج هي ما يتوق اليه أكثر مـن توقه للاتصال والاتحاد بامرأة فريدة لايمكن اسـتبدالها، ورغم أن الزواج من غير حب كان أمراً مسـتحيلا لدى بيتهوفن، إلا أن موقفه من الحـب كان رومانتيكيـاً في جوهـره، فقد كان يرى فـي كل وجه جميل عقل نبيـل، وفي المجتمع الارسـتقراطي الذي عاش فيـه كان الجمال النسـوي من الامور المعتادة، ولهـذا نجده يعيش في اضطراب عاطفي متواصل. كانـت قدرتـه الابداعية في تزايد، وقد وجـد طريقا في الحياة علـى الرغم من إصابته بالصمـم، ولأول مرة بعد أن أمن وضعه المالي أخذ يشـعر بانه قادر على أن يدع عواطفه تسـير علـى هواها وبحريتها، في تلك الظروف يكتب الى شـقيقه: «قبل بضع سـنوات انتهت حياتي الهادئـة المنعزلة وقد اجتذبت رغم عني الى نشـاطات في العالم، ومع



ذلك فانني استطيع ان أكون سعيدا، بل أسعد الناس لو ان العفريت لم يأخذ مني سمعي، ولو انني التقي بامرأة تفهم طبيعتي وتقدر عواطفي».

وفي يومياته التي وجدت بعد موته نجد عددا من الرسائل كان يرسلها آنذاك الى بعض النسوة، ففي خطاب الى الانسة جوليتا يكتب: «ياملاكي وياروحي، هذه الكلمات أخطها اليوم وبقلم الرصاص، هل يمكن لغرامنا ان يكون دون تضحيات، ودون التخلي عن المطالبة بكل شيء ؟ فهل تستطيعين إلا أن تكوني لي وانا لكِ، ربـاه، تأملي الطبيعة الجميلة، واهدئي بنفسك الى ما يجب ان يكون الحب يطالب من حقه بكل شيء مني معك، ومنك معي، ولكنك في خفة طبعك مجبولة على النسيان، مما يضطرني ان أعيش لنفسي ولك معا».

وفي رسالة الى الكونتيسة أردودي يكتب: «تتألمين ياحياتي وقرة عيني، آه أنتِ معي حيث أكون، معي ومعك، وهكذا حتى نستطيع ان نعيش سوياً، ياللحياة، بدونك تطاردني هنا وهناك نظرات الناس، أنني ابكي عندما افكر بانك لن تتلقي اول اخباري يوم السبت، مهما كان حبك لي، فان حبي لك أقوى وأشد». ويكتب الى السيدة برونشفيج: «افكاري تتابع وتتسابق اليك، وانا في سريري أيتها الحبيبة الخالدة، انا في لهفة لانتظار تحقيق أمانينا، لا استطيع العيش إلا في اكتمالي بك، فلا عيش ولا حياة لذا اعتزمت ان اعيش بعيدا حتى يحين الوقت الذي أطير فيه اليك، وبين ذراعيك فأكون الغريب الذي عاد الى وطنه، إنني الى جانبك استطيع ان أعرف روحي، أنتِ ياحياتي، ياكافة كياني، لاتنكري ابداً القلب الوفي الذي ينبض بين جنبي».



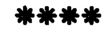
حب يائس

في عام ١٨٠٩ اعجب بيتهوفن بابنة طبيب تدعى تريزا مالفاتي، ونراه في تلك الفترة يكثر من القطع الموسيقية العاطفية، ويطلب من شقيقه



ان يجلب له نسـخة من شـهادة تعميده استعدادا لاغراض الزواج، وفي رسـائل اخرى نكتشف ان بيتهوفن قام بخطوة نحو الأمام في موضوعة الزواج وقرر ان يخطب تريزا، كانت الفتاة في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت مشـهورة بانها من اجمل فتيـات فيينا، لكنه يفاجأ برفض الاب، بعد ذلك تصله اخبار بان الفتاة ستتزوج فيكتب اليها: «سوف تتزوجين ياعزيزتـي، او ربمـا تزوجـت الآن ولـن استطيع ان اراك مـرة أخرى، اتمنى كل السـعادة التي يسـبغها الزواج على المتزوجين، ماذا أحدثك عـن نفسـي ؟ اشـفقي على مصيري، هـذا ما اصرخ بـه كل صباح، واذا ما اسـتطعت ان ادخر بضع سنوات لنفسـي لهذه السراء وتلك الضراء، فسوف اشكر الله العليم، لانه سمح لي بلقاءك».

وقـد بدا واضحا ان اية آمال كان يضعهـا بتهوفن للزواج قد انتهت، لكن لم يمض سـوى عام حتى يلتقي سـنة ١٨١١ بأمالي سـيباليد التي جاءت من برلين، وقد وصفت أمالي بان لها صوتاً غنائياً جميلاً ساحراً ويبـدو ان بتهوفن قد سـحر بهـا على الفـور فيكتب لها رسـالة يخبرها فيها: «انا هنا بلا معونة وبلا أمل، وهذا هو السبب الذي يجعلني أكتب اليك، ياأمالي العزيزة، فأنا بحاجة الى ضوء القمر يسـطع من جديد في حياتي».



الملهمة الأخيرة

وفـي العـام ١٨١١ يتعـرف على سـيدة تدعـى بتينا امـراة فاتنة في الثلاثيـن مـن عمرها وهي ام لاربعـة ابناء وعازفة محترفـة، ولما كانت نحيفة وشـاحبة ورقيقة يداهمـا المرض بين الحيـن والاخر فقد ذكرته بوالدتـه، لـم تتطور علاقة الحب بينهما على الفور، لكن اهتمام بتهوفن بها حرك مشاعرها تجاهه، وعندما كان يزورها في قصرها كان يتجاهل كل من في المنـزل ويجلس الى البيانو ويتواصل معها «بلغته الخاصة»



على حد تعبيرها ن وعندما يفرغ من قول كل شــيء يقدم البهجة يرحل بهـدوء، وبحلـول عــام ١٨١١ كانت مفتونة بــه وكتبت لاخيهــا تخبره «انه يسـير مثل الالهة بين الشـر، وموقفه النبيل الذي يتخذه ضد العالم الدنيوي ومعاناته من سوء الهضم كانا يثيران غضبه لفترة قصيرة فحسب لان الوحـي يعانقه ويقربه من قلبه الدافئ». اسـتمر بتهوفن يزورها الى ان قـررت عائلتها ان تبعدها عنه فسـافرت الى باريس فنجده يكتب لها عددا كبيرا من الرسائل:

«يـا ملاكي، يا أناي... لمـاذا هذا الحُزن، هل لحُبّنا أن يسـتمر دون تضحيات، دون أن يعطي كلٌ مِنَّ الآخر أقصى ما في وسعه، هل يمكنك تجاهل حقيقة أنك لستِ لي بشكلٍ كامل، حقيقة أنني لستُ لكِ بشكلٍ كامـل؟ يـا إلهـي، انظري حولـك فـي الطبيعة الغنّـاء، واسـتريحي من التفكير فيما يجب فعله، الحب يتطلب كل شيء، ويجب فعل كل شيء مِن أجله... سنجتمع قريباً بلا أدنى شك؛ اليوم أيضاً لا يسعفني الوقت لأن أقـول لكي مـا كان يجول بخاطري في الأونة الأخيرة وما يدور في حياتي، لو كانت قلوبنا دائمًا مُلتحِمة، فإن أفكار كتلك لن تؤرقني أبداً. إن قلبي يصبو شوقاً لأن أخبرك أشياء عِدّة -آه- أحيانًا أشعر أن الكلام يضيقُ بي -كوني سـعيدة- كوني دائمـاً حبيتي، المُخلِصة، لي وحدي، مثلما أنا لك وحدك. وسيسعادنا الرب على تخطي كل شيء، مهما كان ما ينتظرنا، مهما كان قدرنا».

فـي كانـون الاول عــام ١٨٢٦ اصيــب بيتهوفـن بالتهـاب رئوي لم يمهلـه طويلا وبعد ايام وجده الطبيب منزعجا وجسـده اصفر بالكامل علـى نحـو غير طبيعي، لقد اصيب بداء الإستسـقاء، وفـي اذار من عام ١٨٢٧ وجدو الى جانب فراشـه رسالة الى تيريزا كتب فيها: «حتى وأنا في سـريري، أفـكاري تأخذني كليا إليـكِ، يا محبوبتي الأبديـة، أحيانًا أشـعر بالفرح، لكن سريعًا ما يتلقفني الأسى -متحيراً- هل سيستجيب القدر لدعائنا؟ لتسـتمر الحياة عليَّ أن أعيش معك تحت سـقف واحد -أو لا أراك أبـداً... يـا إلهي، لمـاذا عليَّ أنا أفترق عن أعز إنسـانة لي!



لقـد أضحـت حياتي في فيينا بائسـة- فحبي لكِ جعلني أسـعد وأتعس إنسان على وجه الأرض».وفي ٢٩ اذار سار موكب طويل وراء جثمان بيتهوفن تراوح الحشـود بين ثلاثين الى خمسـين الف مشـيع، كان في مقدمتهـم الفتاة تيريزا التي اصرت ان ترمي اخر زهرة على جسـده قبل ان يوارى التراب.




مكتبة
الفكر الجديد

-١٩-

دون جوان من كل مكان وزمان

يخبرنـا أوفيد في كتابه «فـن الهوى» أن كلمة الحـب كانت من أولى الكلمات التي عرفها الإنسان، وهي كذلك من أكثـر الكلمات التي تتردد علـى ألسـن الناس، والحب كما شـرحه لنـا مؤرخوه ثلاثة أنـواع، أولها الحب العذري كما يقول العرب، والافلاطوني كما وصلنا من الاغريق، وتعبير العذري نسـبة الى قبيلة من العرب اسمها «بني عذرة» كان شبابها وفتيانهـا يحبـون فـي اخلاص دون أن يفكـروا في الزواج مـن المحبوبة أو معاشـرتها وبلـغ بهم الحال أنهـم إذا احبّوا ماتوا حبـاً، «وقد قيل يوماً لرجـل من بني عذرة: اتعـدون موتكم في الحب مزية وهو ضعف البنية، وضيق الرئة ؟ فقال: والله لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج من فوقها الحواجب الزج والشـفاه السـمر تفتر عن الثنايا الغر كأنها نظم الـدرر، لجعلتموهـا اللات والعـزى ولنبذتـم الاسـلام وراء ظهوركم» (الحـب المثالي عند العرب.. الدكتور يوسـف خليـف). وقيل لإعرابي ممن الرجل ؟ فقال من قوم إذا أحبّوا ماتوا. فقالت امرأة سـمعته: عذري ورب الكعبة، فقيل له مم ذاك ؟ فقال في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة.

بين أفلاطون ومجنون ليلى

أمـا افلاطـون الـذي علـق الأوربيـون نـوع من انـواع الحـب على مشـجبه، فهـو الذي يخبرنـا في محاورتـه الجمهورية، اننا نحن البشـر مجـرد صـورة أو خيال لعالـم آخر، هو العالـم المثالي، ومـا دمنا نحن



صـورة لهذا العالم الغريـب البعيد الخالد، فإن حبنا كذلك حب وهمي وخيالـي، لايتحقـق إلا فـي عالـم الأرواح، والنـوع الثالـث من الحب يمثلـه العاشـق المغامر، فإذا كان المحـب الأول يرفض فكرة الاتصال الجسـدي، والثانـي يمزج بين الروح والجسـد، أمـا الثالث فهو يرفض المثالية في الحب، أنه لايؤمن إلا بالاتصال بمحبوبته، وأي حديث عن الروح والعذرية في نظـره حديث فارغ، لايفكر به إلا العاجزون. وهذا المحب الثالث أطلق عليه في العصر الحديث اسم «دون جوان»، وهو اسـم لرجل حقيقي، عرف أول مرة من خلال رواية اسبانية صدرت في اوائل القرن الخامس عشر، كان مؤلفها شاعراً، ويحدثنا الدكتور لطفي عبـد البديع فـي كتابه «دون جوان في الأدب الاوربي» عن هذا الفارس الطويل القامة، الأسـمر الوجه مع وسـامة وجرأة، وقد تدلى سـيفه من وسـطه، والذي صاغ صورته الاولى كاتب اسـمه فـي غابرييل تيليز لم يدر بخلده حين كتب مسـرحية «ماجن اشـبيلية»، ونشرها باسم تيرسو دي مونيلا سنة ١٦٣٠، أنه وضع نواة أسطورة خالدة. فقد أراد أن يقدم حكايـة ذات مغزى أخلاقـي يدين ظاهـرة التغرير بالعذارى المتفشـية في عصر إسـبانيا الذهبي. فابتكر شـخصية دون جوان الماجنة كأمثولة للاتعاظ والاعتبار، وإذا بهذا المـاجن الفنان بإغواء النساء ينتشر بسرعة في الوسـط الشـعبي ثم يبرز في فضـاء الأدب ويسـطع ليجذب ويفتن عدداً هائلاً من الشـعراء والرواة والفلاسفة والمسرحيين والموسيقيين وعلماء النفس والاجتماع.

ودون جوان الذي كان يلاحق جميلات إسـبانيا، أخذ يتنقل من بلد الى بلد. فأثار جدلاً صاخباً في باريس حين قدمه موليير، وصار حديث الانكليز في النسخة التي كتبها لورد بايرون.

ونعـود الـى مسـرحية «ماجن أشـبيلية» التـي تنقلنا الى القـرن الرابع عشـر، لنتعـرف على الشـاب النبيل والجميـل دون جوان الذي يسـتهتر بالقيـم والأخـلاق ولا يبالي بشـيء غير إغواء النسـاء. ولتحقيـق غايته، يسافر الى معظم بلدان العالم باحثاً عن عشق جديد.



وبعدما يوقعه الفتاة في غرامه، يدير لها ظهره غير مكترث بها. وبطيشه هذا يخلق عدداً كبيراً من الحاقدين الذين يريدون قتله. وإذا صادف أحدهم، بارزه وقتله أو أمعن في الهروب.

تغطي المسرحية مغامراته الأخيرة، وتبدأ بإغواء الدوقة ايزابيلا والفلاحة بيسبا في نابولي وبهروبه الى اشبيلية حيث يضع عينيه على الحسناء دونا آنا. ينتحل شخصية صديق ابن عمها الماركيز دي لادونا ويستعير منه رداءه ثم يدخل مقنعاً تحت جنح الليل الى حديقة منزلها. تطلب منه دونا آنا أن ينزع القناع، فيرفض فتصرخ طالبة النجدة. يسرع إليها والدها النبيل والقائد العسكري غونزالو ويبارز دون جوان الذي يقتله ويهرب.

بعد مدّة، يرجع الى اشبيلية ويمر بساحة الكنيسة، فيستوقفه تمثالان فوق ضريحين، الأول لـ غونزالو والثاني لابنته. يسخر من تمثال غونزالو ويدعوه هازئاً الى العشاء. ولذهوله يلبي التمثال الدعوة ويخبره بأن ساعته قد حانت. ينهار دون جوان ويتوسل المغفرة. يجيبه التمثال أن لا غفران للممعن في الضحك على النساء.

تبنى موليير مسرحية تيرسو، لكنه نقلها من اشبيلية الى صقلية وجعل شخصياتها لتلائم المجتمع الفرنسي. ونتج عن هذا اختلاف بين الدون جوانين. إذ جعله موليير صاحب فلسفة ينتقد الرياء والتظاهر الكاذب بالفضيلة والدين، ويسخر من أولئك المنافقين ويصرح علناً بأنه لا يؤمن بما يؤمنون ولا يتبع الكنيسة التي يتبعون.

والمضحك في تصريحه أنه ينتقد نفسه لأنه منافق كبير، ويكرر موليير هذه المواقف الكوميدية وخاصة في الحوار بين دون جوان وخادمه الخاص سفاتاريل، الذي يقدم لنا صورة عن دون جوان: «دون جوان ياسيدي اعظم انسان تعيس يعيش حملته على سطح الأرض، سفاك، كلب، شيطان، مارق، لايؤمن بالحياة الأخرى، ولا بالقديسين، لابالرب ولا بالشيطان، ودائماً يتوجه الى الحياة البويهيمية، انت تقول انه تزوج سيدتك، فلتعلم أيضاً انه قد يذهب بعيداً ويتزوج كلبتك وصولاً الى



قطتـك، انه مزواج علـى جميع الاتجاهـات.. وعندما وصـل الأمر عند صديقـك الى درجة لايبقـى فيها لديه قطرة من ضميـر، يمكنك أن تعتبر أن كل شيء قد انتهى».

ومسـرحية موليير التـي قدمت عـام ١٦٦٥ اطلـق عليها فـي البداية اسـم «الوليمـة الحجرية» ولـم تعـرض في حياة مؤلفها سـوى يوم واحد فقط بسـبب نقمة رجال الكنيسـة عليها، حيث رأوا فيها الشـقيقة الكبرى لمسرحية موليير طرطوف التي سخر فيها من رجال الدين المزيفين.

الدون جوان الثائر

شـخصية دون جـوان تديـن بالكثير مـن شـهرتها العالمية الـى لورد بايـرون الـذي طورها وكسـاها بالسـمات الفرديـة التي تميّزهـا. فبدت كظاهرة إنسانية معقدة وليست مجرد نمط فاسد لرجل يبحث عن النساء فقط. وشـكّلت قصيدته الملحمية «دون جوان» عام ١٨٢١، التي تتألف من ١٧ جزءاً، نقطة تحول في استيعاب هذه الشخصية أدبياً وفنياً وعلمياً.

فقد اختار بايرون أن يقول من خلال «بطله» أشـياء كثيرة تتجاوز هذا حكايـة الـدون جوان، بـل لأنه أيضاً رسـم لـ دون جوانـه ملامح جديدة تمامـاً، أهمهـا أن دون جوان لم يعد هنا ذلك المغامر زير النسـاء فاسـد الأخلاق، الذي تقول لنا اسطورته انه لم يكن ليتوقف عن اغواء النساء ثم هجرهن بكل صفاقة، بل صار بين يدي بايرون، فتى جذاباً ارسـتقراطياً، تسـعى النسـاء أنفسـهن الى اغوائه، بحيث يصبح هو الضحيـة، في أكثر الأحيـان. وفـي هذا الاطـار كان «دون جوان» بايرون، نقطـة انعطافة في تاريخ فهم هذه الشخصية والتعامل الفني والشعبي معها. بل في الحقيقة وحتـى خـارج هذا الإطـار الرابـط بيـن المسـرحية الأصليـة والقصيدة البايرونيـة، يمكننـا أن نقول اليوم بسـهولة واطمئنـان، إن هذه «الملحمة الساخرة» كما دوّنها الشاعر الإنكليزي الكبير، تعتبر نقلة مهمة في تاريخ الشـعر... حتـى وإن كان صاحبها لم يعش حتى يراها منشـورة بكاملها، أي بأناشـيدها الـ١٦. فهي نشـرت في العـام ١٨٢٦، بعدما كانت أجزاء



منها نشـرت متفرقة خـلال حياة بايرون الذي رحل عـن عالمنا في العام ١٨٢٤.

وفـي ملحمـة بايرون «دون جـوان»، نحن في مواجهـة فتى من عائلة نبيلـة في اشـبيلية، يتيـم الأب، يحـدث له وهو في السادسـة عشـرة من عمـره، أن تفتـن صديقة لأمه بجماله وتغويه، فتغضـب الأم حين يتناهى ذلـك الى علمها، وترسـله ليعيش في الخارج بعيـداً من تلك الإغراءات التي أحسّت أنها ستتكاثر من حول الفتى ولا سيما من جانب صديقاتها، غيـر أن السـفينة التي يسـافر دون جـوان على متنهـا تغرق، ليجـد الفتى نفسـه في جزيرة يونانية، تعثر عليه فيها الصبية هايدي الجميلة، وهي ابنة لقرصان يفرض سلطته على تلك الجزيرة، وتغرم به هايدي، بل توقعه في غرامها، وحين يعلم الاب بذلك يقرر طرد الفتى فيربطه بالأغلال ويرميه فوق سفينة من سفن القراصنة. وتصاب هايدي بالجنون ثم تموت متأثرة بحزنها، يباع جوان كعبد الى سـلطانة من الاتراك هي غولبيار، التي تغرم به بدورها... لكنها لم تكن الوحيدة في قصرها الكبير، إذ انها سرعان ما تفاجئـه في خلوة غير متوقعة مع بعض الجواري فتعتقله وتهدد بقتله في ثورة غضبها... لكنه يتمكن من الهرب حيث يلتجئ الى القوات الروسية التـي كانت تحاصر القسـطنطينية. ويشـارك في القتال ببسـالة، ما يجعل القائد يبعث به، مع رسـالة، الى سانت بطرسبرغ، حيث ينال حظوة لدى كاترينا الثانية التي لفرط ما تثق به، ترسله في بعثة ديبلوماسية الى البلاط الانكليزي في لندن... وهنا يكمن، بالنسبة الى لورد بايرون على الأقل، المعـزى مـن عمله الشـعري، إذ انه من خـلال الحياة التي يعيشـها دون جوان في العاصمة الانكليزية، يتمكن الشـاعر من رسـم صورة شـديدة السـخرية والمرارة، للحياة الاجتماعية والسياسـية في انكلترا، وبخاصة من خلال الصور الشـعرية التي يرسمها الراوي، الذي هو، حيناً، الشاعر نفسه، وفي بعض الأحيان نبيل اسباني، وفي أحيان أخرى شخصية رجل انكليزي عاش في اسـبانيا ويتقن الاسـبانية لنكتشـف بعدها ان الشـاعر بايرون لـم يكتب ملحمته الشـعرية «دون جوان» إلا لكي يقدم صورة لما



يعانيه المجتمع الارستقراطي الانكليزي من مظاهر كاذبة، وليخبرنا ان الحب اصبح مجرد نزوة عابرة في مجتمع تضيع فيه القيم.

دون جوان عربي

كان مجنون ليلى عاشقاً، والكثير من مؤرخي الأدب يعتبرونه شاعراً عذرياً، لكن في ديوان قيس بن الملوح الذي حققه عبد الستار فراج، نجد أن الشاعر صلاح عبد الصبور يكتب تعقيبا على الديوان يقول فيه: أن قيس بن الملوح كان نسخة من دون جوان الاسباني، فحبه تختلط فيه العفة بالرغبة والشهوة، فنجده يقول وقد ضمَّ ليلى الى صدره:

ضممتك حتى قلت ناري قد اطفئت

فلم تطف نيراني وزاد وقودها

ويقول في بيت آخر

فان كان فيكم بعل ليلى.. فإنني

وذي العرش قد قبلت ليلى ثمانية

والى جانب قيس ابن الملوح، كان هناك عمرو بن ربيعة، وجميل الذي عشق بثينة وغيرهم، لكن ابرزهم كان كاتباً عربياً ألف كتاباً عن الحب، كان هذا الكاتب وزيراً وفقيهاً في الدين، ومولعاً بدراسة النحو والتفسير والفلسفة.. وأضاف لها أهواء المحبين.

هذا الكاتب الذي عاش قبل اكثر من الف عام اسمه محمد بن حزم الاندلسي، واسم كتابه «طوق الحمامة في الآلفة ولآلاف» اي في الحب والمحبين، ولعله الكتاب الغرامي الشهير في أدبنا العربي وفيه يصور اشكال الحب واخلاق المحبين وما يكون بينهم من هجر ولقاء ووصال، وإشارات بالعيون والأيدي وحديث بالحكم والأمثال والأشعار، ونجد ابن حزم يتطرق لموضوعة دون جوان ويصب اللوم على هذا العاشق الكاذب: «أن العاشق المحترف الكذاب، يحب من



أول نظرة، وليس هذا من شأن العاشق الحقيقي، فإن الحب من أول نظرة ليس حباً، لكنه شهوة مغلفة بغلاف الحب، واني لأطيل العجب في كل من يدعي انه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه، ولا اجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة المحبوب لي دهراً، واشتراكي معه في كل جد وهزل».

والعاشق المحترف في نظر ابن حزم هو ذلك الذي يتمكن منه الحب كلما أزداد من محبوبته اقتراباً: «ومن الناس من يقول إن دوام الوصال يقتل الحب، وهذا قول خاطئ، انما ذلك يكون لأهل الملل بل كلما زاد الانسان وصلاً زاد اتصالاً. دعني اخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل إلا وازددت ظمأ. ولقد بلغت من التمكن بمن أحب ابعد الغايات». وكان لابن حزم صديق اسمه عامر بن ابي عامر، وكان دون جوان زمانه، ونجد ابن حزم يصفه في الكتاب: «كان من أهل الأدب والذكاء والنبل والخلق والمنصب وكان حسن الوجه جميل الصورة، وهو ممن لبس لباس الحب وهو ملول، كان يرى الفتاة فلا يصبر عليها، ويحيق بها الغم والهم ما يكاد يقتله حتى يملكها، ولو كان دون ذلك شوك القتاد، فإذا اصبحت ملكه صارت المحبة كراهية، وصار الأنس بها شروداً والقلق اليها قلقاً منها».

ويضع ابن حزم تعريفاً للحب في كتابه فيقول:

«هناك أنواع من الحب، فهناك الأم التي تحب ولدها مثلاً أو الرجل الذي يحب أخاه وتلك محبة القرابة، وهناك محبة الجنس الآخر، ولكن حتى يبلغ لذته، ثم يموت هذا الحب بعد ذلك، وهذه هي الشهوة، وهناك محبة العشق الذي يتمكن في النفس ويتغلغل فيها، ولايشفى الإنسان منه إلا بالموت» ويضيف في صفحات أخرى: الحب «أعزك الله» أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكور في الديانة، ولا محظور في الشريعة».



ثـم نجـد ابـن حـزم يتحدث عـن المـرأة وسـحرها: «كـم جادلت مـن العلمـاء.. إلا أن مجادلة النسـاء كانـت أكثر نفعاً، فلقد شـاهدت النسـاء وعلمت من أسـرارهن مالا يكاد يعلمه غيـري لأني تربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن».

حياة مثقلة بالحزن

ورث لقـب لـورد عندمـا كان في العاشـرة مـن عمـره، لكنه عاش طفولة بائسـة حزينـة، لم يذق فيهـا طعم الحب الحقيقـي، ولم يعرف حنـان الاهـل، فقد كان والده «جـون بايرون» باردا جافـا، هجر عائلته بسـبب المشـاكل بينـه وبيـن زوجتـه والتي كانـت ام قاسـية وعصبية، عانى الطفل بايرون من عرج واضح في احدى سـاقيه، سبب له حرجا شديداً، ولكي يعوض هذا العيب تفرغ للقراءة والدراسة، فاصبح وهو في سـن الخامسة عشر مشـهورا بين زملائه الطلبة، فنشر اولى دواوينه وهـو طالب وكان بعنوان «سـاعات الكسـل» وقد حقـق نجاحا كبيرا، ويقال ان عشرة الاف نسخه منه نفذت خلال الشهر الاول، احب وهو في التاسعة من عمره فتاة صغيرة اسمها «ماري داف»، ورغم انه احب من بعدها الكثير من النسـاء، إلا انه ظل يقول: «ومع ذلك مازلت أذكر احاديثهـا الرقيقـة وتقاطيعهـا الجميلة»، ومنـذ ان بلغ الثالثة عشـر من عمـره اخـذ يكتب قصائد الغـزل ويتعرف على عالم النسـاء، والمتتبع لسيرة بايرون يندهش من كثرة عدد النساء اللواتي اقام علاقات معهن، او بادلهـن الحـب، لكن الحب الوحيـد كان مع «آنا ميلينـا» التي كتب لها:

«هـذا هو حالي ولن آرى سـحرك مـرة آخرى، ففي البقـاء عذابي، وفي قربك حسـرة دائمة، سـاكون حكيماً ان رحلت وهربت بعيدا عن الاغراء فلا استطيع ان آرى جنتي، ولا ارغب العيش فيها من جديد».

ورغـم صخـب الحياة التي عاشـها بايـرون ورغم النسـاء والمجد والشـهرة والحـب، فقـد كان حزينـا دائما ونجـده يكتب فـي يومياته:



«هـا انذا اذهب الـى الفراش بقلب مثقل بالحزن لاني عشـت كل هذه الاعـوام من دون فائدة، ولكني لا اشـعر بالاسـف على مـا فعلت قدر أسـفي، اننـي ضيعت بعـض أيامي دون حيـاة». توفي بايـرون عن ٣٦ عامـاً وكان منفيـا فـي اليونان، واهتـزت اوربـا لرحيله، فقـد رأت في حياتـه كفاحا مع القوى الرجعية ينم عن عزم وبطولة، وانتشـر أثره بين الناس خلال القرن التاسـع عشر انتشـارا عجيبا واتسمت حركته باسم «البايرونية» وقد تجلت في لوحات ديلاكروا وموسيقى برليوز واشعار هيجو ولامارتين، واوحت بازياء خاصة لاوربا، واسـاليب مسـتحدثة في التفكير.




مكتبة
الفكر الجديد

-٢٠-

عدو المرأة الذي جرّب الحُب أربع مرّات

كانـت المـرة الاولى التي رآهـا فيها في بيت خياطة فرنسـية، وجدها جميلة جدا وممتلئة بالانوثة ويصفها لنا في روايته الوحيدة «سـارة» بان: «لونها كلون الشهد المصفى، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في سـمة واحدة، وعيناها نجلاوان تخفيان الأسرار ولاتخفيـان النزعات، فيهـا قوة الصقر ودعة الحمامـة، وفمها فم الطفل الرضيع، ولها ذقن كطرفي الكمثري الصغيرة، واسـتدارة وجه وبضاضة جسـم لاتفترقـان عـن سـمات الطفولة فـي لمحـة الناظـر» ويمضي في وصفها فيقول: «إنها حزمة من أعصاب تسـمى امرأة، اسـتغرقتها الانوثة فليـس فيها إلا الانوثة، ولعلها أنثى ونصف أنثى، ليسـت غواية الجسـم عندهـا كجوع الحيوان بشـبعه العلـف، ولكنها كرعـدة الحمى وصهيل الفـرس الجموح» وتحولت النظـرات في اللقـاء الاول الى حوار غزلي قالت فيه:

- أنت فضولي

- ليس مع كل الناس

- تحيات وغزل وعما قريب عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك، الى آخر هذا الموال المحفوظ

- ولماذا عما قريب ! الآن

- انت عجول، وانت جريء أيضاً.



- إن وعدتني أن اجني للصبر ثمرة، فأنا أصبر من أيوب.

ولـم ينته هذا الحوار حتى تخلى عن صبر أيـوب، وتقدم منها وقبلها في وجنتها، وفوجئ انها لـم تغضب بل قالت في صوت خافت:

- لقد آذاني شاربك

لـم تكـن هذه قصـة الحـب الاولى فـي حياة عبـاس محمـود العقاد الذي كان يخرج كل يوم من بيته وقد أحكم طربوشـه فوق رأسـه يرتدي (جاكتة) غريبة وطويلة جدا، لم تعرف المكواة، يمشـي محنيا الى الأمام وكان بعض الناس يعرفون فيشـيرون إليه ويقولون: «العقاد»، لكنه لايأبه للإشـارات ولا لكلمـات التحية، ويـرى ان المجاملات تأخـذ من وقته الكثير، فهو رجل فكر، صحيح إنه لم يتخصص في أي شـيء، لكنه يقرأ أي شـيء، لأنـه يكتب في كل شـيء ومن بين الموضوعـات التي أثارت اهتمامه موضوعة المرأة، فقد أحب العقاد في حياته التي ناهزت ٧٥عاماً -ولـد عام ١٨٨٩ وتوفـي عام ١٩٦٤- اربع مرات وعبر عن أحاسيسـه فـي تلك التجارب فاصبحت أحاديثه عنها اشـبه بنظرية فلسـفية متكاملة الأبعاد، فهو يؤمن بان الحب بالنسـبة للرجل رياضة لسـد الفراغ وسكن من جهـاد والذي يتأمل ماكتبه العقاد في شـعره ومقالاته وكتبه يسـتطيع أن يحـدد تجربتين عاطفيتين ذات ملامح واضحـة، والى جوارهما عدة تجارب تختلف قوة وضعفا.

كانـت أولى تجاربـه العاطفية مع الاديبة مي زيادة التي رمز لها العقاد في قصته الوحيدة «سارة» وفي شعره بـ «هند» التقى بها المرّة الاولى في صالونهـا الأدبي الذي كان يعقد كل يـوم ثلاثاء، كان حينها أصغر الزوار سـنا لم يتجاوز السـابعة والعشـرين وكانت مي في الحادية و العشـرين، وهنـاك العديد من الرسـائل المتبادلة بيـن العقاد ومـيّ و التي تؤكد حبه لهـذه الأديبـة، ويخبرنا العقـاد في روايته سـارة انه أحب هند قبل سـارة وكان حبه لها كما جاء في احدى مقالاته خالصا للروح والوجدان، وكان حبه لسـارة مستغرقا شاملا للروح والجسـد، كانت المرأتان على طرفي نقيـض، ويصفهمـا بقوله: «اذا كانت سـارة قد خلقت ونبتت في سـاحة



الطبيعـة، فهند قد خلقت راهبـة في دير، الاولى مشـغولة بتنظيم القيود، وهذه مشـغولة بأن تصوغ حولها أكثر مما اسـتطاعت من قيود ثم توشيها بطلاء الذهب وترصعهـا بفرائد الجواهر»، لم يرتبط مع هند «مي زيادة» بعهـد، وانمـا كان يطوف حولهـا، المرّة الوحيدة التـي اقترب منها كانت قبل أن تسـافر، إلى إيطاليا حيث اسـتطاع ان يلمس يدهـا ويقبلها. وكان يبث من خلال رسـائل من الشـوق والوجـد والأمل، ويلتقـي بها فتزداد حيرته وتساوره الشكوك شأن كل محب عاشق.

لاسـيما حينما يكون سـلوكه مع المحبوبة سـلوك العقاد نفسه «يقف حائـرا بينـه وبين نفسـه لأنـه لا يرى من محبوبتـه ما ينم عن اسـتياء به لا يسـمع منها ما يدل على وصول رسـالته وإن كان يسمع الجواب باللحن والإيمـاء دون الإعـراب والإفصاح»، فقد كان العقاد ومـيّ يتناولان من الحـب كل مـا يتناولـه العاشـقان على مسـرح التمثيل ولا يزيـدان. وقد اعترف العقاد بحبه لـ «ميّ» في أكثر من مناسبة وفي أكثر من مجال، فقد سُـئل ذات مرة عن الحب في حياته فقال: «لقد أحببت في حياتي مرتين سـارة ميّ، ثم تحدث عن ميّ قائلا: «كانت مثقفة قوية الحجة... تناقش وتهتـم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسـية وكان اهتمامها موزعا بين العلم والأنوثة».

ومـع الأيام تقـارب القلبـان قلب العقـاد وقلب ميّ فأخـذت تخصه بصـدق مشـاعرها خـلال سـطور بعـض رسـائلها، حيث قالـت له ذات مـرة: «وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسـخطك عليّ فأتـوب على يدك وامتثل لأمـرك... فـي حضورك سـأتحول عنـك إلى نفسـي لأفكر فيـك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك».

ويكتب لها هذه القصيدة التي استقاها من وحي رسالتها:

في حماكم كعبة ترمقها

مهج منا وآماق ظماء

ويتابع في القصيدة نفسها مؤكداً أن «مي» مازالت حلمه المشتهى:

أنت (يا حسن) وهل أنتِ سوى حلم في يقظة القلب أضاء



وترد عليه مي برسالة تصف فيها مشاعرها نحوه مبينة أن هذه المشاعر هي نفسها مشاعر الشاعر وهذه إشارة إلى تبادل الحب بينهما.

كما كانت في تصوره معبداً للحب على حين كان هذا الهيكل القديم وهو الهوى معبداً للمجد فلأيهما يسجد العقاد ياترى لها أم له:

معبد أنتِ للهوى

وهو للمجد معبد

هيكل فيه هيكل

أين يا حسن أسجد

ونـراه يتلهف لتقبيل الحبيبة ويعتبر ممانعتهـا له في تقبيل يدها غضباً أو نوعاً من الدلال أو خوفاً من الرقيب:

صافحيني ألا مصافحة اليوم

و لا قبلة على الكف عجلى

أغضاباً تحمينها أم دلالاً

أم حذار الرقيب تنأين خجلى

وكثيـرة هـي القصائد التي أرسـلها لمـي خصوصاً عندما كان السـفر يفرق بينهما... ولكن جذوة الحب لمي خفتت عند العقاد ويعود السبب في ذلك لتعرفه بسـارة التي أعطته كل مـا منعته عنه مي زيادة، حتى صار مصير هذا الحب إلى الزوال.

****

فلسفة المرأة

وبعيـداً عن الحب احتلـت المرأة عناوين الكثير مـن كتب ومقالات العقـاد وقـد وضّح العقاد رأيه في عمل المرأة معتبراً أن عملها الأسـاس هـو حفاظها علـى بيتها وأولادها وتربية النشء، فقال ضمن سـؤال وجّه إليـه – ماذا يحسـن أن تسـتبقي المرأة الشـرقية مـن أخلاقهـا التقليدية؟



قائلاً: «يجب أن تظل المرأة الشرقية كما كانت في كل عصر ملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن إليها الرجل من متاعب الحياة ولا يزال عندها - صغيراً كان أو كبيراً- طفلا لاعبا يأوي منها إلى صدر الأمومة الرفيق وأحضانها الناعمة رضيعا ويافعا وفتى وكهلا إلى أن يشيخ ويفنى، ويستدعي ذلك أن تعيش هي في ظله وتعتمد في شؤون العالم الخارجية عليه». ويرى أنيس منصور إن كل ما كتبه العقاد عن المرأة يدل على انه فهمها بوضوح، كأنه عرف المرأة منذ كان اسمها حواء، إلى أن أصبحت مي أو سارة أو هنومة.

****

العلاقة مع النساء

عام ١٩١٠ قرأ شوبنهور للمرة الاولى، وقد وجدت اراء فيلسوف التشاؤم عن المرأة والزواج صدى في نفس العقاد الشاب، فهو يشعر انه مثل شوبنهور ما من امرأة اهتمت به، واذا كان الزواج كما يقول شوبنهور هو «دَّين في الشباب نسدده في سن الكهولة»، فإن العقاد كان حذراً من أن يقع فريسة ذلك الدَّين، وحسب ما هو معروف عن سيرة حياة شوبنهور، إن علاقته مع النساء اقتصرت على حكايتين، ففي العام ١٨٢١ يقع في غرام كارولين ميدون وكانت مطربة في التاسعة عشرة من عمرها، استمرت العلاقة بينهما عشر سنوات متقطعة، رفض أن يتوج هذه العلاقة بالزواج: «ان تتزوج يعني فعل كل ما يمكن ليصبح كل طرف موضع اشمئزاز الآخر»، الحكاية الغرامية الثانية كانت مع خادمة تعمل عنده، لكنه يتركها ذات يوم ويهرب... ولأنه لم يكن يهتم بما يجري حوله نجده لا يولي اهتماماً للجنس او الرغبة بالنساء، الجنس «لاتدفعني للضحك». يقول لأحد مقربيه: «الجنس أعظم بلاء، فمع ظهور الغريزة الجنسية، ظهر القلق والسوداوية في الوعي أيضا، ونبتت في الحياة الهموم والمصاعب، ذلك لأن أصل الحياة الجديدة يرتبط



باشباع أشد ميولنا سطوة وأكثر رغباتنا عنفا، بتعبير أوضح ان الحياة بكل ما فيها من احتياجات وأعباء وآلام ستبدأ من جديد وستعاش مرة اخرى بسبب هذا الذي يسمى الجنس».

يـرى العقـاد أن التناقـض صفة أصيلـة في أي امـرأة، فاللـذة والألم نقيضان في الكائن الحي عامة، لكن المرأة تجمع بينهما اضطرارًا، فأسعد لحظاتها هي الساعة التي تحقق أنوثتها الخالدة وأمومتها المشتهاة، وهي سـاعة الولادة، فهي تفرح لأنها أنجبت ولكنها تكون أشد ساعات الألم والوجع في جسد الأم، الطريح بين الموت والحياة.

يرجع العقاد قدرة حواء على الرياء وضبط الشـعور، وإخفاء حبها أو بغضها، إلى أنها تفضل الحب وعدم المفاتحة به والسبق إليه، وهي التي خلقـت لتتمنع وهي راغبـة، وتخفي البغض لأنها محتاجـة إلى المداراة احتياج كل ضعيف إلى مداراة الأقوياء، على حد تعبيره.

قـال العقاد الـذي وضع نحـو ١٠٢ كتاب فـي روايته سـارة: «كانت شـكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل حلاوات الحياة، كانـت كأنهـا جدران سـجن مظلـم ينطبق رويـدا رويدا وما يـزال ينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار، وكثيرا ما ينتزع ذلك السجن المظلـم طبيعـة الهـرة اللئيمة فـي مداعبة الفريسـة قبل التهامهـا فينفرج وينفرج حتى يتسـع اتسـاع الفضاء بين الأرض والسـماء ثـم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف».

ويسـتمر العقاد في وصف حال الشـك التي اعترته خلال حبه لسارة فيبلـغ الشـأن فـي رسـم الصـورة وتصوير ذلك الإحسـاس حيـث قال: «ألـم لا نظير له في آلام النفوس والعقـول، وحيرة لا تضارعها حيرة في الإحسـاس والتخميـن، وأقـرب ما كان يشـبه به هذه الحيـرة حال الأب المسـتريب الـذي يشـك في وليـد منسـوب إليه هل هـو ابنـه أم هو ابن غيـره، هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء، أم هو رمز الخداع والخيانـة والاسـتغفال والاحتقار، هل هو مخدوع فـي عطفه عليه أم هو



مخدوع في نفوره منه؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منها وكلاهما لا يطاق؟».

ويمكن القول إن المرأة التي دخلت قلب العقاد في بداية حياته امرأة مجهولة أو أكثر من امرأة مجهولة رآها في أسوان حيث ولد أو في الزقازيق، حيث تنقل فيهما للعمل وبدأ رحلته في عالم الوظيفة شابا يافعا لم يتجاوز العشرين من عمره. ولهذا نجد لديه فلسفة خاصة في الحب. فالحب عنده فيه «الاعتياد» وفيه شيء من الأنانية حتى لو أقدم صاحبه على التضحية من أجل من يحب، فالأنانية تبدو واضحة لأن المحب لا يتنازل عن محبوبه ولا يقبل أن يكون لشخص آخر. وفي الحب أيضا شيء من الغرور لاعتقاد المحبوب بأن إنسانا آخر يفضله على غيره من الناس واختاره هو فقط ورضى بألا يرتبط بأحد غيره. وبسبب تعمق العقاد في دراسات علم النفس فإنه يشير إلى أن الحب فيه ما يطلق عليه علماء النفس «التناقض الوجداني» أي الحب والشغف والوجه الآخر هو درجة من درجات الضيق «لأن المحب يعاني من الشعور بأنه أسير ومقيد بقيوده وعاجز عن الإفلات من هذه القيود وقد تعمى الأبصار في الحب كما تعمى في القضاء والقدر وقد يحاول المرء أن يهرب من هذا الحب فيجد نفسه يقترب بدلاً من أن يبتعد، ومن حالات المحبين الإنكار فينكر الإنسان أنه وقع في الحب كما ينكر السكران أنه سكران والأمر يتلخص عند العقاد في أن الحب يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان. وفي تحليل العقاد لعاطفة الحب يرى إن فيه عواطف كثيرة وليس عاطفة واحدة، ففيه من حنان الأبوة ومن مودة الصديق ومن خيال الحالم وفيه من الصدق والوهم ومن الأثرة والإيثار ومن حرية الإرادة والاضطرار ومن الغرور والهوان وفيه كل ما يطرأ على النفوس في مختلف الأوقات والأحوال».

وحين سئل العقاد عن تعريف للحب أجاب بأنه من الصعوبة تعريفه تعريفا جامعا مانعا، ولكن يمكن تعريفه عن طريق النفي فالحب ليس هو الغريزة، لأن الغريزة لا تعرف الاختيار والحب ليس الشهوة، لأن



الإنسان قد يشتهي دون أن يحب وقد يحب وتنتهي الشهوة بالقضاء على الحب.

والحب ليس الصداقة لأن الصداقة تكون أقوى ما تكون بين اثنين من جنس واحد، والحب لا يأتي بالاختيار لأن الإنسان قد يحب قبل أن يشعر بأنه يحب ودون أن يفكر في الاختيار والانتقاء.

والحب ليس الرحمة لأن المحب قد يكون قاسيا مع حبيبه عامدا أو غير عامد، وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل الرحمة مع الفراق.

ويتساءل العقاد كيف يجمع الحب أحيانا بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان والجواب عنده، لأن القلوب أقرب إلى التناسب والتجاوب فإذا تجاوبت القلوب نجد اثنين ينظران إلى الدنيا وإلى الحياة بعين واحدة.

وقد يحدث اختلاف السن لكن ذلك لا يمثل مانعا لحاجة نفس منهما إلى عطف الأبوة وطمأنينة التجربة ويقابلها حاجة النفس الأخرى إلى دفء العاطفة، وإلى الرعاية فيقع التبادل في احتياجات اثنين مختلفين ويحد بينهما.

وأخيرا يلخص العقاد فلسفته حين سئل: هل الحب أمنية تشتهيها؟ أم هو حالة تتقيها فأجاب إنه مصيدة فإذا أحببت من لا يحبك فهو أمنية تشتهيها وإذا أحببت من يحبك فهذه هبة سماوية فالحب هبة من الله. قاصدا بذلك أن القلب الذي لا ينبض بالحب يشبه الصخر الذي لا حياة فيه ولا روح، والقلب الذي لا تحرقه لوعة الحب هو مجرد حجر أملس لا يعرف لغة المشاعر، والتاريخ يؤكد دائما ويؤيد أن الحب لم يفرق يوما بين شاب لاه وشيخ معمم، أو بين قائد عسكري يقود الجيوش وآخر يعيش في أبراج من الخيال والوهم.

ويكتب العقاد «الحب مزرعة ينبت فيها الوهم ومدينة تستوطنها الشكوك» ويؤمن العقاد بان «الغيرة وليدة الحب، وان المرأة اكثر شقاء في غيرتها من الرجل لانها أحوج الى الحب، واخوف عليه من الفقد



والهجران، ولأنها اميل الى الاستسلام وأسرع الى الادبار، ولان طبيعة احاسيسها تؤكد فاعلية الغيرة في نفسها»، ويذهب العقاد الى القول بأن المرأة أقل هياما في الحب من الرجل مستنداً في ذلك الى اراء شوبنهور التي كان يعشقه، والعقاد شديد الحرص على التمييز بين الحب والجنس، فالحب عنده عالم من المعاني التي تطلق من أسر المادة والحب كل ما يملي للنفس في الشعور بالحرية الموزونة وكل ما يجنبها الشعور بالامتناع والتقييد، أما الجنس فانه شديد الالتصاق بالجسد والمادة ومن ثمة لايمكن أن تكون الغريزة الجنسية نفسها تستعين بالحب لتفضيل انثى على انثى، ولا يمكن كذلك ان تكون الغريزة الجنسية هي الحب لأن الغريزة واحدة والحب أشكال وألوان ويُعرف الحب بانه اندفاع روح الى روح وخلاصة فلسفته عنه انه قضاء وقدر فهو يرى اننا لانحب حين نختار، ولانختار حين نحب.

****

نهاية الحُب

بعد أن انتهت قصة سارة وفي عام ١٩٤٠ تعرف العقاد على فتاة سمراء جميلة تدعى «هنومة خليل»، فوقع في حبها، وكان هو في الخمسين من عمره وهي في العشرين، وقد أدرك العقاد من البداية أن هذا الفارق الكبير في العمر لا يتيح لهذا الحب أن يستمر أو يستقر، ومع ذلك فقد عاش في ظل هذا الحب سنوات عديدة ذاق فيها السعادة. لكن ما كان يخشاه العقاد فقد حدث، حين تعرفت هذه الحبيبة إلى النجم السينمائي أحمد سالم، فاختطفها فورا للعمل في السينما وتزوجها بعد ذلك، وسرعان ما أصبحت نجمة مشهورة هي الفنانة مديحة يسري.

كان العقاد يعترض على عمل مديحة، حيث كان يرى أن ذلك يضع نهاية للحب الذي ملأ قلبه، لكنها لم تتراجع عن عملها بالسينما، وسرعان ما أصبح لها جمهورا كبيرا من المحبين والمعجبين، وأدرك



العقاد أنه لن يستطيع تحمل هذه العلاقة فقرر أن يقطعها نهائيا، لأنه لو استمر في هذا الحب فلن يكون أكثر من واحد بين عشرات من الذين يلتفون حول النجمة ويقدمون لها الإعجاب والورود.

دخل العقاد في معركة هائلة مع نفسه وعواطفه، فلا هو قادر على أن ينسى حبيبته، ولا قادر على أن يتقبل وضعها الجديد ويرضى أن يكون واحدا من المعجبين، فكتب قصيدة «يوم الظنون» والتي يقول فيها:

وبكيت كالطفل الذليل أنا الذي

مالان في صعب الحوادث مقودي



-٢١-

من دون النساء لا أستطيع أن أعمل شيئاً

في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ١٨٨١، وفي إحدى قرى الجنوب الإسباني، أبلغ معلم الرسم جوزيه بلاسكو بأن زوجته انجبت له طفلاً ميتاً، تسلم الجسد الطري وهو ينظر بحسرة الى الطفل الذي كان يتمنى أن يعلمه الرسم، في تلك اللحظة تقدم العم سلفادور بلاسكو وحمل الطفل بين يديه، نافخاً في وجهه دخان سيجارته، وفجأة تحرك الجسد الصغير وبكى الطفل، وقع الأب مغشياً عليه، وهو يصرخ «ابني حي».

وقد اخبرته عمته فيما بعد وهو في العاشرة من عمره، أنه يشبه اشبال الأسود التي تولد ميتة الى أن ينفث الأسد فيها فتدب الحياة في أوصالها، كانت هذه الحكاية جزءاً من المعتقدات التي يؤمن بها القرويون في إسبانيا، وأضافت العمة، أن حياة ابن أخيها ستكون أشبه بحياة الأسد، متقلب المزاج، يهوى مطاردة فريسته الى أن ينقض عليها، وسيكون دائم الحركة، حتى وهو نائم لايعرف الراحة.. أطلق على هذا الطفل اسم بابلو جوزيه بلاسكو، لكنه اختار فيما بعد، أن يضع اسم أمّه الى جانب اسمه وهو يوقع أولى لوحاته «بابلو بيكاسو»، فقد كانت ماريا لوبيز بيكاسو أول حب في حياته، ويكتب في احدى رسائله: «كل النساء اللواتي عشقت تمنيت لو أن اسمهن ماريا لوبيز، فعندما كنت صغيراً كانت امي تقول لي: عندما تكبر ستلاحقك النساء، فأحذر أن تقع في شباكهن، وكنت اتمنى أن اقع في شباكها هي». حين دخل مدرسة الفنون



الجميلة في برشـلونة، كان أول رسم حققهُ بالألوان «بورتريه لأمّه» التي: «فهمتني أكثر من أي إنسان في العالم» وأصرّت على أن ابنها سيصبح في يوم من الأيام عبقرياً: «اعتقد أن كلٍ شيء ممكن بالنسبة لك، ولو قيل لي يوم أنك غنيت لصدقت ذلك أيضاً».

ويبدو أن نبوءة عمّته قد تحققت، فما أن بلغ العشـرين من عمره حتى ظهـرت النسـاء في حياتـه، فرنانـد، ايفا، اولغا، مـاري تيريـز، دورا مارا، فرانسـواز، جنفياف، جاكلين. سُئل يوماً ما الذي يسـتهويه فـي المرأة ؟ فأجـاب عنادهـا قبـل جمالها؟ وقال يومـاً لجنفياف: «أنا فـي الحب مثل الرجل الأعمى، أحب الأشياء التي لا أراها، وإنما احس بها».

ويقـول للناقد الفني الشـهير هربـرت ريد: «منذ الوهلـة الأولى نبتت في داخلي الرغبة في المغامرة، وحب عذريات الوجود. فالمرأة تشـدني دائماً، إنها في هذا العالم مثل الأسماك الحمراء».

*****

فرناند اول القائمة

فـي ليلـة من ليالي نيسـان عام ١٩٠٤، شـاهدها وهي تركـض باتجاه البناية التي يقع فيها مرسمه، كان المطر غزيراً، أصطدمت به دون أن تراه

- آه عفواً يبدو أن هناك أحداً

كان الرجـل القصير يحمل بين ذراعيه قطّـة صغيرة أراد أن ينقذها من الوحل: التقطتها من الشارع، كانت تائهة وتُقاسي البرد.

ومـن دون أن تشـعر تناولـت القطّة من يـده، كانت هذه الفتاة اسـمها «فرنانـد اوليفيه» وسـتصبح أولى النسـاء في مجموعته التي ضمّت سـبع نسـاء، وقـد قالت عنـه فيما بعد: «عندمـا رأيته للمرة الأولـى ظننته يعمل بهلوانـاً في السـيرك، كان يرتـدي قميصاً ورديـاً وربطة خضـراء ومعطفاً أسود يصل الى قدميه».

كانـت تصغـره بثلاثة أعوام، من عائلة بسـيطة، تعمـل موديلاً بعد أن



فشـلت في تجربة زواج قاسية، وعندما دعاها الى مرسمهِ وجدت نفسها وسـط كومة مـن اللوحات والإطـارات التي تملأ المكان، مرسـمهُ يدّل على أنه فقير أيضاً، سـرير عتيق وكرسي مربوط به كلب صغير، ومنضدة تتجول في أدراجها الفئران، وقالت لنفسـها وهـي تتفحص المكان: «ما هذه الحياة البائسة».

لكنها منذ اللحظة الأولى تركت في نفسـه أثراً كبيراً، حتى أنه وصف حبّـه لهـا بـ «الحـب الجنوني»، فقـرر أن يسـتحوذ عليها وبدأ يرسـمها: «امـرأة نائمـة أمام رجل يجلس قرب السـرير، سـانداً ذقنـه بقبضة يديه، يتأمـل مشـدوهاً بالمـرأة الغارقة في نـوم عميق وقد طـوت ذراعها على رأسها». لم تمانع فرناند، أن يرسمها بيكاسو من كل الجهات، ومن دون أن يهمـل أدقّ التفاصيـل، حتـى ثيابها التي أصر على أن يرسـمها باللون الوردي.

وكان يقـول لأصدقائـه: «أنـا بحاجة الى الحب لأتمكـن من العمل، فالحب هو الجدار الواقي الذي يرد الصدمات والخيبات».

لـم تكن لوحات بيكاسـو آنذاك تحظى باعجاب هـواة الفنون، وكان يعيـش فـي فقر دائم: «كنا مفلسـين ولـم نحـظَ يوماً بوجبة طعـام فاخرة» هكـذا تصف فرنارد حياتها مع بيكاسـو، لكنّها تخبرنا أن الحظ حالفهما ذات يـوم: «وصـل تاجـر اللوحات الشـهير فـولار الى مرسـمنا من غير موعـد، وفجأة اشـترى ٢٥ لوحة من لوحات بيكاسـو ودفع نقداً ٢٠٠٠ فرنك فرنسي ليحولنا من شحاذين الى برجوازيين».

بـدأت فرنانـد تحلم بأن تصبح سـيدة وتملك بيتاً وأثاثـاً، ورضخ لها بيكاسـو الذي وجد لها شقة في حيٍ راق من احياء باريس، هناك عاشت احلامهـا، فهاهـي تملـك غرفـة نـوم حديثـة الطـراز، وصالة بهـا بيانو، وضيـوف مـن طبقة اجتماعيـة راقية، لكنَّ بيكاسـو العنيد لـم يكن فرحاً بهـذه الانتقالـة، فهـو يحنّ الى مرسـمهِ القديـم، وأخذ يشـعر أن توهجه فـي طريقـه الى الانطفاء، وأخيراً قرر أن يعود الى المرسـم ويترك فرنارد لعالمهـا الجديـد، وحين علمت بالأمـر، أرادت أن تثيـر غيرته فارتبطت



برسام ايطالي شاب وسافرت معه، لتسدل الستار على أوّل قصة حب، وليبدأ بيكاسو حكاية جديدة مع امرأة اسمها مارسيل ولقّبها هو بـ «إيفا الغامضة».

*****

المرأة الغامضة

ظلّت حياتها على شيء من الغموض، وزادها أنها اتخذت لنفسها ثلاثة اسماء، بيبي ومارسيل وإيفا، عاش معها بيكاسو مرحلة الحب العظيم كما اسماها، وبرغم ذلك لم يرسمها إثباتاً لحبّهِ لها وتأكيداً على أنها ملكٌ له لوحده، ولهذا أصر في تلك المرحلة من حياته أن يوقّع على لوحاته باسم إيفا اضافة الى اسمه، وقد عاملها معاملةً خاصةً، فهي لاتتدخل في أموره الشخصية، وتكتفي بدورها كامرأة الى جانب رجل متميز، ولم تكن تعلق على قوله: «إن الرجل المتميز يحب عمله أكثر من أي شيء في العالم، حتى اكثر من المرأة التي يحب».

رافقته في رحلة صعوده الى الشهرة والنجاح، وكانت بصحبتهِ في تنقلاته، وشهدت معه ولادة مرحلة التكعيبية، ونراه يكتب في كرّاس معرض مشترك مع الرسام براك، عرضت فيه أعمالهما التكعيبية: «كنت قبل أن امسك بالفرشاة، أنظر الى واحد من أجمل الأعمال التي يحتويها بيتي، محبوبتي إيفا».

في سنة ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى، ويشعر بيكاسو بأن الكارثة ستحل قريباً، وبالفعل حلّت حين أخبره الطبيب، أن إيفا مصابة بالسل، ولم يمهلها المرض طويلاً لتتوفى في مطلع عام ١٩١٦، فدفنها في مقبرة قريبة من مرسمه، وأصيب بحالة من العزلة والاكتئاب، وفي كتابها بيكاسو، تشير جيرترود ستاين الى أن: «بعد موت إيفا. لم نسمع من بيكاسو أية ضحكة» - جيرترود ستاين بيكاسو، ترجمة ياسين طه حافظ - وحين شاهده صديقه الشاعر أبولينير وهو يغوص في الحزن



قال له: «انت بحاجة يا صديقي لضربة سوط حب جديد، وعاطفة جديدة» وكان السوط هذه المرّة امرأة روسية اسمها أولغا.

****

مصيدة الزواج

كانت أولغا كوكلوفا، راقصة استعراضية في فرقة باليه، في العشرين من عمرها، وهو في السادسة والثلاثين، بدأت شهرتها تظهر بوضوح، سحرت بيكاسو ببراءتها التي تشبه براءة الأطفال، فقال له صديقه جان كوكتو: «احذر يا صديقي، إن الروسيات ينشدن الزواج».

صحب بيكاسو أولغا الى إسبانيا، فقدمها الى عائلته، وما أن رأتها والدته حتى قالت لها: «يا صغيرتي المسكينة، لو كنت صديقتك لأقنعتك بالابتعاد عنه وتركه، لأنه لا يستطيع أن يحب امرأة واحدة، مهما كانت جميلة وطيبة ومخلصة. لن يكون ملكاً لها، لن يكون ملكاً سوى للرسم فقط». لكنهما تزوجا في الثاني عشر من تموز عام ١٩١٧، ليبدأ معها مرحلة جديدة، وتقول له: «إذا رسمتني فإنني اريد أن يكون وجهي متميزاً». وقد رسم لها ولابنه باولو، اكثر الصور الشخصية وداعةً ووضوحاً في فنه. كان بيكاسو ينظر الى أولغا بأنها انسانة تعتمد على العقل ولاتعرف أن تسلم أمورها الى الفوضى العارمة، في الرابع من شباط عام ١٩٢١ ولد ابنهما البكر بولو، فطلبت أولغا أن ينتقلوا الى سكن جديد، وأن يشتري لهما سيارة فخمة، وأن يدخل خادمة الى البيت، وفي عز نشاطه الفني، بدأت الغيرة تشتعل في نفس أولغا التي كانت تشكو من الفوضى التي تتسم بها حياة بيكاسو، بينما كان يشكو هو من الهدوء والنظام، وبدأت المشاكل، وحين سُئل لماذا لايستطيع العيش مع امرأة واحدة أجاب: «لقد سعيت جاهداً أن أكون مخلصاً للمرأة التي تكون إلى جانبي. فمن الظلم أن أقول أنّي لم أغرم بالنساء اللاتي رافقنني». ولم يكن هناك من حل سوى الفراق، فمنح أولغا



قصراً في منطقة بواجولو، وانتقل هو للعيش في مرسم جديد في وسط باريس.

حياة بيكاسو مع أولغا كانت متميزة بالنتاجات التي شكلت علامة مهمّة في حياته ومنها لوحته الشهيرة «الجورنيكا»، وبالرغم من افتراقهما، إلا أن بيكاسو لم يتخلص من مراقبة أولغا الشديدة، فكانت تطارده في المعارض التي يذهب إليها، ويُقال انها كانت تذهب لتجلس قبالة بيت بيكاسو، لتراقب الزوار الذين يدخلون إليه، وكانت تقول لكل من يراها: «بيكاسو ليس في المنزل، أنا عدت لأعيش معه، لقد تخلّى عن كل النساء من أجلي» وبقيت هكذا حتى وفاتها عام ١٩٥٥، اثناء فترة الفراق بينه وبين أولغا، عاش بيكاسو متقلباً في علاقته مع النساء، ومرة قال لصديقه الشاعر الفرنسي اراغون: «كيف تستطيع أن تعيش على حب امرأة واحدة، ستصبح في يوم من الأيام عجوزاً».

****

الفتاة المثالية

في عام ١٩٣١ يضيف بيكاسو الى قائمته امرأة جديدة، ماري تيريز أو الفتاة المثالية، كما كان يحب أن يصفها، التقى بها مصادفة وهي تنظر الى احدى اللوحات، كانت شقراء ذات مظهر اغريقي، ركض نحوها وأمسك يدها قائلاً: «أنا بيكاسو سننجز أنا وأنت، معاً أشياء عظيمة»، لم تكن الفتاة قد بلغت الثامنة عشرة، وعندما تحدث معها عن الرسم والشعر سخرت منه، كانت تعشق الرياضة، وحين أخبره أحد الأصدقاء بفرق العمر بينهما، قال بيكاسو: «لا يهمني كلامهم، اريد أن أصغر ٢٠ سنة جديدة مع كل فتاة جديدة»، لقد وجد فيها الحياة الوردية، وخلال الخمس عشرة سنة التي ارتبط معها بيكاسو بعلاقة غرام، رفضت أن تسكن معه في منزل واحد: «أريد المحافظة على حريتي، ولا أقبل أن أسجن، من أجل حب رجل، في بيت ضيق». وبرغم ذلك اصبحت المرأة المفضلة بين كل نساء

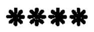


بيكاسو، كان يعمل المستحيل لإرضائها، استمر في علاقته المتميزة معها ثماني سنوات، كان فيها يشعر بالهدوء والراحة، إلا أن حياته كانت رتيبة، لامجال للتغيير فيها، ونجده يكتب في دفتر يومياته: «الحب كالفطر، على أنواع، ولاندري إذا كان هذا النوع أو ذاك من الأنواع الجيدة أو السامّة إلا بعد فوات الأوان».

وقد بدأت ماري تشعر بالملل الذي يحيط بحياتها، فحاولت أن تسترجع حياتها السابقة وأن تعود الى ماضيها، وزاد في حيرتها، أن بيكاسو تعرف في ذلك الوقت على الفتاة دورا، التي كان يتعمد رسمها أمام ماري، ففضّلت الابتعاد، كانت قد انجبت له ابنته «مايا»، تركته لمغامرته الجديدة، لكنه ظلّ يزورها كل خميس، مثلما كان يزور زوجته أولغا كل يوم أحد، انه يحتاج الى أن يجمع النساء من حوله، يحتاج الى العواصف والمرح والضحك والغضب، وللنساء خاصة: «بدون النساء لا استطيع أن أعمل شيئاً».

وتحولت الحياة بين بيكاسو وماريا الى مراسلات وزيارات متباعدة، وقد استمرت الحال بينهما لسنوات طويلة، كان خلالها بيكاسو ارتبط بأكثر من امرأة، مما زاد من آلام ماريا وعذاباتها، ولم تستطع تحمّل الغيرة التي تحاصرها، فقررت أن تضع حداً لشكوكها ومرارتها من الحب، فانتحرت في كراج منزلها، وعثر عليها رجال الشرطة بعد يومين، وعلّق بيكاسو على حادث الانتحار بقوله: «أنا رجل مسكين، تعذبت كثيراً مع النساء». لكن الصحافة أخذت تحاصره وتعلّق على نبأ الانتحار، بأن بيكاسو هو الذي دفع حبيبته السابقة الى التخلص من حياتها.

ظلَّ بيكاسو يقول للمقربين منه، إن سيحب النساء حتى يفقد عقله، وسيلتصق بهن الى آخر يوم في حياته: «اشعر امام النساء بطاقة بالغة لا تمحى، بل وبالهلع أحياناً، فلا استطيع أن أرسم دون أن أرى امرأة جميلة الى جانبي».. وكانت المرأة هذه المرة ابنة مهندس يوغسلافي وأم فرنسية.





المرأة المفكرة

اسـمها دورا ماركوفيتـش، وجه جميل، عينان خضـراوان، في قوامها نـوع من الاثـارة، لكنهـا أيضاً المـرأة الأكثر ثقافـة من بين جميع النسـاء اللواتي تعرف عليهن.

كانت دورا شغوفة بالحركة السريالية، وتطالب بيكاسو بأن يرفض كل قديم، وقد بدأت حياتها كرسامة، ثم مصورة فوتغرافية، التقى بها في أحد المقاهي الباريسية، قال لرفيقه اندريه بريتون وهو ينظر اليها: «انها جميلة جداً».

فرفعت رأسـها وابتسـمت له فسـألها: هل انت أسـبانية ؟ أجابت انها عاشـت طويلاً في الارجنتين. عرف بيكاسـو فيما بعد انها جربت الرسم وفشـلت، وإن المشـاكل تؤرقها، قالـت له: اريد ان أجـري حواراً معك، فأجاب بيكاسـو: حسناً لنبدأ الآن. وبدأت اللعبة الكبيرة، والحب الكبير، لقد اشـتاق بيكاسو للمرأة المفكرة بعد سـذاجة ماري تيريز، لقد شعر أن دورا تحمل نفس الهموم والضيق الذي يغمره بين الحين والآخر ويكتب فـي يومياتـه: «وجـدت فيهـا لأول مرة الشـخص الذي اسـتطيع أن اقول لـه كل شـيء مـن دون أن انطق».. ومنذ ذلـك اللقاء لـم يفارقها، كان في السادسة والخمسين من عمره لكنه يبدو في قمة نشاطه، تخلت دورا عن الاسـتوديو الذي كانت تعيش فيه وذهبت لتعيـش معه، لكن قصة حبهما لم تدم طويلاً، اذ كانت مشـاجراتهما تتكرر كل يوم، وقد رسـم بيكاسـو دورا فـي لوحته الشـهيرة «المـرأة الباكية» ويقول الشـاعر الفرنسـي بول ايلـور: «إن العلاقـة المضطربة التي عاشـتها دورا مع بيكاسـو خلقت في نفسـها نوعاً من الضيـاع والإرتباك»، لم تعد تعـرف كيف تتصرف وذات يـوم صرخت في وجهه: «بابلو اترك نصائحك لنفسـك»، ثم بدأت كأنها تعانـي مرضاً ما، الأمر الذي دفع بيكاسـو الى عرضها على طبيب نفسـي ونجـده يخبر بـول ايلور قائلاً: «كل مـرة أتعرف فيها على امـرأة جديدة، يجـب ان احـرق التي مرت قبلهـا. هكذا أكون حراً طليقـاً من دون قيود.



ولن تستطيع واحدة، ايّ واحدة، أن تشغلني طيلة حياتي، أو أن تتملكني. اترك المرأة، وانسى الماضي، كل الماضي، ربما هذا يعيدني الى الشباب الدائم».

أقامت دورا معرضاً لأعمالها، عرضت فيه لوحات كان فيها الكثير من روح بيكاسو الذي قال عنها: «ليس للفنان الحرية التامة كما يعتقد، ودورا بالنسبة إلي المرأة التي تبكي، وقد رسمتها هكذا، ليس لأنني سادي، بل لإظهر الحقيقة التي عشتها، وأحسست بها».

أنهى بيكاسو فجأة علاقته بدورا، ولاحت في الأفق امرأة جديدة اسمها فرانسوز جيلو التي تعد المرأة الاكثر جرأة في حياة بيكاسو.

****

حياتي مع بيكاسو

في الحادية والعشرين من عمرها تعرفت عليه، كان قد تجاوز الستين بأعوام، صاحب اسم كبير وصاحب ثروة هائلة. كانت تحلم بأن تلتقيه، ورسمت في مخيلتها صورة له، شاهدته عن قرب للمرة الأولى عام ١٩٤٣ كان يجلس في أحد المطاعم، تأملته طويلاً، كانت تشاهد صوره في المجلات والصحف، لكنه في الواقع يختلف كثيراً، وفي كتابها «حياتي مع بيكاسو» الذي ترجمته الى العربية مي المظفر، تصف لحظة اللقاء الأول: لاحظت بعد برهة، انه كان يتطلع إلينا باستمرار ثم يبتسم، ويرفع صوته باتجاهنا وهو يروي بعض نكاته، بعد فترة قصيرة نهض من مكانه وحمل بيده حفنة من الكرز وهو يسأل، ماذا تعملين:

- انا رسامة

- اذا، لقد خُلقنا لكي نتفاهم، تعالي يوماً لزيارتي في المرسم.

ولم تنتظر طويلاً، ذهبت مع صديقتها جنفياف لزيارته، احتفى بها كثيراً وعرض امامها لوحاته ومنحوتاته وتقول في مذكراتها: «نسى



شـهرته وعظمته وتصرف مثل مراهق، وقد دهشت عندما قال لي: آمل أن تزورينني ثانية، وألا تكتفي بالتطلع الى اللوحات فقط».

كانت فرانسـواز جميلة جداً، ويصفها بيكاسـو بأنها: «ذات وجه نبيل، وشـعر ذهبـي هائـل، وعينـان كبيرتـان، وكان يزيد مـن جمالها شـيئاً من الاسـتغراب»، ذات يـوم قـال لها: «أنا عجـوز لم يبق لي مـن العمر كثيراً، ومن واجبك أن تلازميني، لكي أسعد في الفترة المتبقية من حياتي» ومرة اخرى قال لها، أخاف أن اموت قبل أن أحب كل النساء.

ثم أشـار الـى لوحة وهو يقول: «هـذه انت، هل عرفتـي كم احبك؟»، وحين انجبت فرانسـوز ابنها كلود، قال لها بيكاسـو: «الآن اصبحت جزءاً مـن حياتي، ويجب أن نرتبط برباط لن ينفصل»، لكنه لا يسـتطيع الابتعاد عن النساء وتكتب فرانسواز في حياتي مع بيكاسو: «ازداد يقيني بأنه يعاني نوعاً من العقد النفسـية، تجعله يحتفظ بكل نسـائه في متحف خاص به»، سـنوات عشر قضتها فرانسواز جيلو مع بيكاسو، وانجبت له ولدين، كلود وبالوما، عاشـت فيها سـنوات مليئة بالأفراح والهموم والغيرة أيضاً، وفي لحظـة مـا قررت أن ترحل، وكان رحيلها اشـبه بمشـهد مسـرحي، ودعته الـوداع الأخيـر أمـام الجماهير فـي افتتاح عـرض لمصارعة الثيران سـنة ١٩٥٣ وهي ترتدي زي فارسـة، وذلك بترتيب بينها وبين بيكاسـو، ونزع من يده ساعة كانت قد أهدته إياها فرانسواز وأعادها إليها قائلاً: وقتك لم يعد ملكاً لي..

لكنه بعد فترة استشـاط غضباً. لقد اصبـح البيت خاويا الآن. لقد وفت بوعدها ورحلت مع الطفلين بشكل نهائي، طفليه هو! يا لها من فعلة شنيعة.

لقد أمضيا عشـر سـنوات معا، وقد عرفته بشكل أفضل من أي شخص آخر تقريبا وعرفت شخصيته بكلا جانبيها، الرقيق والشرس. ولكنها عرفت أيضا بأنها سـتضيع هي وطفلاها إن أمضت إلى جانبه فترة أطول. ونظرت فرانسـواز إلى كلود وبالوما اللذين كانا يجلسـان إلى جانبها في السيارة. ما تزال تحب بابلو ولكنها تحب أطفالها أكثر.



«لا امرأةً تتخلى عن رجلٍ مثلي»، هذا ما قاله بيكاسو لها قبل أسابيع من الفراق. لكنها استطاعت ان تفارقه.

****

خاتمة المطاف رصاصة في الرأس

بعد انفصال فرانسواز عنه شعر بيكاسو بأنه في الجحيم، كل شيء حوله تلفّه الوحدة، مات صديقه الرسام ماتيس، ولاتوجد امرأة قربه تواسيه، صار كهلاً، وبدأ يشك في أن هناك امرأة يمكن أن تعيد إليه حيويته، الى أن التقى جاكلين روك، امرأة ناعمة الخدين، زرقاء العينين، تتكلم الاسبانية قالت وهي تنظر إليه: «كيف يمكنني أن اترك هذا الرجل المسكين وهو في مثل هذا العمر»، أخذت تتردد كثيراً على مرسمه، قال لها ذات يوم: «كل النساء اللواتي تعرفت عليهن كن حبيباتي، أما أنت فستكونين أرملتي» لقد وجد نفسه امام امرأة تهتم به وتحترم كل طباعه: «انها أوّل امرأة تفهمني، وترجع لي حب الخلق الفني»، بدأ يعمل بنشاط، عمره الآن اربعة وسبعون عاماً، وقرر الزواج منها، واحتفل بالأمر بكل سرية، وأخذ وجه جاكلين يتكرر في أعماله، وجه المرأة الموحية، المرأة التي تحيي، المرأة التي يخاف منها.

قال لها بيكاسو بعد أن بلغ الخامسة والثمانين من عمره

- يا للعجب لقد استغرقت خمسة وثمانين عاماً، لكي أصبح شاباً
- وستبقى شاباً الى الأبد.. قالت له

وذات صباح من عام ١٩٧٣، اتصلت بالطبيب وقالت له، بأن صحة بابلو ليست على مايرام، وعندما وصل الطبيب كان كل شيء قد انتهى، مات الرسام العظيم الذي قال عنه الرئيس الفرنسي بومبيدو: «انه الخلود الدائم للأمة الفرنسية»، شعرت جاكلين بأن الأشياء لم تعد لها معنى بعد غياب بابلو، عاشت وحيدة في القصر الكبير الذي تركه لها مع لوحاته وذكرياته، وقالت لاندريه مالرو في الحوار الذي نشره في كتابه «الحبل



والفئران» عندما سـألها عن أحوالها: «انها تفضل الموت على الحياة من دونه»، وهكذا قررت ذات يوم من تشرين الثاني عام ١٩٨٦ أن تضع حداً لوحدتهـا وعذاباتهـا، فوضعت فوهة المسـدس علـى صدغها وأطلقت النار.

يكتب بول ايلور: «بيكاسو أحبّ بشدة، لكنه دمر الشيء الذي أحبّه».



-٢٢-

لابد أن نمر بالحب.. واذا لم نجده علينا أن نبتكره

عندما ولد عام ١٧٩٩، كان أبوه يحتل مركزاً اجتماعياً ومالياً مرموقاً، لكنه يعاني من نزق زوجته «لورا سالومبيه» التي تصغره بأثنين وثلاثين عاماً، وتتمتع بجمال خارق وثقافة متميزة، لكنها قاسية القلب وتميل الى العبث، مما أثر كثيراً في علاقتها بابنها الذي اصبح فيما بعد أشهر أدباء فرنسا، رغم انه ظل يكنّ لها حباً كبيراً يخالطه شيء من الخوف لازمه حتى عندما اصبح شاباً، فكان لايقترب منها إلا وهو يرتجف، وقد أشار في الكثير من قصصه ورواياته بحاجة ابطاله الى الشعور بالحماية النسائية. ونرى في سيرته الذاتية التي نشرت بعد وفاته، يتذكر طفولته التي كانت شبيهة بطفولة الشاعر بودلير والروائي ستندال، كانت أمه صعبة المراس استأثر ابنها الأصغر بكل اهتمامها وعنايتها.

برودة الحب

في تموز ١٨٢١ يكتب اورونيه دو بلزاك الى اخته لورا: «أما أمي فكانت تسير على غرار الطبيعة، فهي مزعجة طوال خمس ساعات، ومرحة ولطيفة للحظة واحدة»، وبعد أعوام يكتب الى امه: «لا اطلب منك أن تصطنعي شعوراً لن يخامرك لأنك انت والله تعلمان انك لم تغمريني بالقبل والحنان منذ خلقت، وحسناً فعلت، لأنك لو احببتني كما احببت اخي هنري، لكنت حيث هو الآن، ومن هذه الناحية كنت لي أماً صالحة».



ويكتب في رسالة الى اخته لورا: «ما هي العاهة الجسدية أو المعنوية التي سببت لي برودة أمي تجاهي، هل كنت ابن الواجب، ذلك الذي يولد بمجرد المصادفة أو حتى ذلك الذي حياته ملامة؟ سُلمت الى المربية في الريف، فنسيني اهلي طوال ثلاث سنوات، وعندما عدت الى البيت كان حظي منه قليلاً، فأثرت شفقة الناس، اني لا اعرف العاطفة ولا القدر السعيد اللذين مكّناني من النهوض من هذه السقطة الأولى، فلا الطفل فيَّ يعلم ولا الرجل يدري شيئاً».

هذا الجرح هو الذي جعله يكتب: «هناك أناس يخلقون تعساء وأنا منهم» ولكن مع شعور الحرمان والفراق تستيقظ قوى التعويض، فيقرر الولد المُهمل أن يفرض الحب، ويصمم على بلوغ المجد، وفي واحدة من رسائله الى اخته يكتب: «فكري بسعادتي، لو جعلت اسم بلزاك شهيراً ! ما اعظمها وسيلة لقهر النسيان». وبعدها يرسل الى امه كلمات قصيرة: «لا شيء إلا الحب والمجد يملآن قلبي، ولا همّ لي الا رغبة الارتفاع». ويحاول بلزاك من خلال رواياته أن يعوّض هذا الحنان والحب ويكتب في سيرته الذاتية: «أردت أن انتقم من المجتمع، أردت أن امتلك كل النساء، وأن أرى الانظار تتصوب كلها اليّ».

عندما بلغ بلزاك الثامنة من عمره، تم ادخاله الى مدرسة داخلية، فكان خلال تلك الفترة اكثر التلاميذ كسلاً واقلهم نشاطاً واكثرهم شروداً، وقد اهتم منذ صغره بالقراءة، وتخبرنا شقيقته، أن المطالعة أصبحت بالنسبة إليه مثل جوع لايرتوي منه، كان يلتهم الكتب من كل نوع بدون تمييز، كتب دين وفلسفة وأدب، قال لأحد زملائه، إنه يشعر بلذة لاتوصف وهو يقرأ القواميس، واضطر مدير المدرسة الى ارسال خطاب الى عائلته يرجوهم فيه إخراجه من المدرسة، لأن صحته تدهورت، وسرعان ما سافر مع أبيه الى باريس، وحين أتمّ السابعة عشرة من عمره، يعينه والده بمكتب احد المحامين للعمل فيه، لكنه في ذلك الوقت كان يبحث عن شيئين، الشهرة، والحب، وهما كانا



آنذاك امنيتين بعيدتا المنال بالنسبة لشاب مغمور يعمل في مكتب للمحاماة، لايوحي شكله البدين بأنه يمكن أن يثير اعجاب النساء.

وحين بلغ العشرين من عمره، عرض عليه أبوه أن يزوجه ابنة أحد اصدقائه الأثرياء، لكنه يرفض فهو يبحث عن الحب وليس الزواج، ومع الحب كان هناك هاجس الأدب والكتابة، فسخرت منه امه، إلا أن الأب حاول أن يساعده، فمنحه فرصة أن يجرب حظه في الكتابة مع مبلغ ثلاثة آلاف فرنك، واشترط عليه اذا لم يستطع خلال عام أن يثبت موهبته في الكتابة، ويحصل على دخل كافٍ يعيش فيه، وإلا فالزواج من ابنة الصديق الغني لامفر منه.

قَبِل بلزاك التحدي، فاعتكف في غرفته على الكتابة، يدفعه حافز قوي أن يحقق حلمه في كتابة المأساة المسرحية، لكنه يفشل حين يعرض أول اعماله على فكتور هيجو الذي ينصحه بأن يجرب كتابة القصص ومعها الحب، وهنا تظهر المرأة الاولى في حياته. كانت في الخامسة والأربعين من عمرها تدعى «مدام دي برني»، لم تكن جميلة، لكنها تملك شخصية مرحة، وحين التقاها بلزاك كان يقرأ كتب جان جاك روسو، وأغرم بروايته الشهيرة «هلُويز» حتى انه حفظ معظم صفحاتها عن ظهر قلب، وكان يرددها امام اخته لورا، ومثل روسو كان يحلم أن يجد امرأة مثل بطلة الرواية «جولي» شابة جميلة ومثقفة، تقع في حب معلمها الخاص، ونراها في الرواية تهتف: «لقد جعلت السماء أحدنا للآخر! لم يكن هناك اتحاد اكثر مثالية من هذا، روحانا متداخلتان ايضا بشكل وثيق، ولم يعد بوسعهما الانفصال أبداً». كان بلزاك في شبابه يريد أن يقلد حياة جان جاك روسو، الذي أقام وهو شاب علاقة حب مع امرأة تكبره بتسعة عشر عاماً، إلا أن بلزاك كانت تعوزه الجرأة، فهو شاب شديد الخجل ونجد يصف نفسه في رسائله الى اخته لورا: «هكذا انا، وهكذا سأظل دائماً خجولاً الى الدرجة القصوى، وعاشقاً مجنوناً بحبه، وعفيفاً الى الدرجة التي لا أجرؤ معها على أن اقول لامرأة: اني احبك! واعترف انني ابعد ما أكون عن مظهر العاشق ومسلكه أو بالأحرى انني مثل بعض



الفتيـات اللواتي تبـدو الواحدة منهن خجولة ورقيقـة لكنها خرقاء وغبية فـي نفس الوقت، وتخفي تحت هـذا القناع ناراً تحرق القلب، ولكني لن ابلغ وصف حالتي ما بلغه كاتب عظيم هو روسـو، فأقرأي وصفه لنفسـه في اعترافاته».

وهو يكتب في سيرته الذاتية: «اتخذ الحب لديّ شكل الهوى، الهوى الجبان المطلق الذي يتملك بعض الشيوخ».

لكنه في النهاية يتغلب على خجله ويقرر أن يرسـل رسـالة الى المرأة التي شـغلته: «لسـت انتظر منك حباً ولا اعجاباً ولا سـخرية، لكني كنت دائماً اؤمن، ان في اعماق كل امرأة شعوراً يقرب من الرقة والصداقة. هو الحنان، هو الشفقة الكريمة التي تمد يدها للمجانين كما تمدها للتعساء. فأسـمحي لـي ياسـيدتي أن اودع عندك روحـي كلها، روحـي النقية غير الملوثـة التي أجـرؤ أن اقدمها لك كهديـة من اطهر الهدايا التي يسـتطيع انسـان أن يهديها». ويبدو أن الرسالة اعجبت مدام دي برني التي أرسلت له رداً قصيراً تشكره على مشاعره الرقيقة الطاهرة.

****

استعادة اللحظات الاولى

في روايته التي كتبها عام ١٨٣٥ «زنبقة في الوادي»، نستعيد اللحظات الأولـى التي التقى فيها بلزاك بمدام دي برني: «حين رأيتها للمرة الأولى اضطربت حواسـي، آنذاك كنت جالسـاً عابسـاً على طرف مقعد مهجور وعينـاي ثابتتان لاتتحركان. فجأة شـعرت بعطر امرأة يلتمع في نفسـي. تطلعـت الـى جارتي فأبهرتني اكثر ممـا ابهرني العيد، ولـو علمت جيداً حياتـي السـالفة لأدركـت الشـواعر التي دفقت فـي قلبي. لقد ادهشـت عينيّ الكتفان البيضاوان البارزان. وودت أن ألامسـهما. كتفان موردتان تنطويان على روح تلمع بشـرتها في النور كوشـاح من حرير. سـحرتني العنق المغطاة بنسـيج شـفاف. إن اتفه تفاصيل هـذه الرأس كان كالطعم



يوقظ فيّ لذات متناهية. اما بريق الشعر الممسد فوق عنق مخملية. كل هذا ضيع رشدي، ولما تيقنت أن لا أحد يراني عصت في الظهر كولد يستلقي في احشاء أمه».

إن هنريت في «زنبقة في الوادي»، هي طيف مدام دي برني، التي سيكتب لها بلزاك: «حين رأيتك في المرة الأولى، اثار مرآك حواسي وانعش خيالي الى حد صورك لي أمرأة كاملة المواصفات، هكذا يمكنك أن تعتبري سنواتك الخمس والأربعين كأن لا وجود لها في نظري، أو فلأقل انني تنبهت اليها لحظة، فإنما لأنظر اليها كبرهان على قوة عواطفي».

وبعد عشرات الرسائل، يلتقي العاشقان، ونرى بلزاك يكتب في مذكراته: «أن روحي كلها صارت مرتبطة بروحها، لا أرى غير المقعد الخشبي الذي جلست عليه، ولا احس غير ضغط جسدها الناعم على جسدي، لقد تغيرت، فأنا احب الى حد الجنون».

لايزال بلزاك يحفظ ما كتبه جان جاك روسو في «الاعترافات»: الحب حالة معدية»، ونعرف أن بلزاك جنَّ بمدام دي برني، ويعترف بأن «ما من حب من دون أن يُجرح، وما من حب من دون أن نُذبل فيه، وما من عشق من دون قلق يفيض من الأعين، فالمشاعر جميعها معذِية ومعذَبة، اذن لابد أن نمر بالحب، واذا لم نجده علينا أن نبتكره» يكتب معلم بلزاك جان جاك روسو: «حتى اكثر النساك، ورعاً ليسوا في مأمن من أن يصيروا اطفالاً صغاراً أمام امرأة جميلة».

ويبدو أن بلزاك أراد من خلال رواياته العاطفية «امرأة في الثلاثين، زنبقة في الوادي، اوجيني غراندة»، السعي دائماً الى الحب المجنون، الى المرأة الجامعة بين الأم والحبيبة. ونراه يكتب الى اخته لورا: «لو علمت بأية قوة تندفع نفسي المستوحدة المهملة نحو عاطفة حقيقية، إن هذا الأمر ليس الا نتيجة طبيعية لحياة فارغة دوماً وتعيسة، اني كسجين يسمع من بعيد، وهو في اعماق أسره، صوت امرأة بالغ العذوبة». ولكي يقدم لنا مفهومه للحب، يكتب في روايته امرأة في الثلاثين: «نفوس



النسـاء التي تقـوى على جعل اللا متناهي في الحب تشـكل اسـتثناءات ملائكية، انها بالنسـبة لسـائر النفوس النسـائية كالعبقريات بين الرجال، الأهواء الكبرى نادرة كالروائع».

ونـراه في اوجينـي غرانده، يعبر مـن خلال بطل الرواية لوسـيان عن مفهوم العشق الذي يصيب الانسان أول مرة: «مهما تكن قدرة هذا الفتى ولامبالاته بالنسـبة للذات، ورغم تخمته في العشـية، فإنه وجد في الفتاة الذهبيـة العينيـن، النعيم الـذي تخلفه المرأة المحبة لتأسـر الرجال، هذا المعبـر الـذي دفع بـدون جوان الـى التنقيب فـي قلب النسـاء على أمل العثـور على الفكرة المتناهيـة الحدود التي لطالما سـعى إليها الكثيرون من صيادي الأشباح».

ولعـلّ المثيـر في قصة الحب التي عاشـها بلزاك مع مـدام دي برني، أن هـذه السـيدة التـي تكبـره بسـنوات، اسـتطاعت أن تنمّـي معارفه في مجـالات عدّة، فهي عاشـت في قصـور الأمراء وتعرف خفايـا التاريخ، وقد كانت امرأة غنية بالذكريات، وفي جلسـاتهما المسـائية، اسـتطاعت أن تزوده بكل ما تعرفه عن السياسة وخفايا النساء وأثاث البيوت ومباني باريـس، والأهم أنها اسـتطاعت أن تزوده بالجرأة علـى مواجهة الواقع، وكيف يمكن الاستفادة مما يراه في كتابة رواياته، بل يؤكد معظم دارسي أدب بلـزاك، أن مدام دي برني، كانت هي التي اعطته العديد من الافكار التـي تحولـت فيمـا بعد الـى روايات، حتـى انه كتـب بعد وفاتهـا: «في بدايـة حياتي، كانت لي أماً حقيقية.. يا الهـي، لم تعد توجد روح واحدة تفهمني، فقد كانت هناك روح واحدة فقط».

ولعلّ رسـائل بلـزاك الى مدام برني، التي نشـرت بعد وفاته تكشـف لنـا عـن التأثيـر الذي مارسـته هذه المـرأة علـى حياته وأدبـه فهو يكتب إليهـا: «ثقي بأنك محبوبة كمـا ولا امرأة، انظري خـلال التخريب الذي تحدثينه في رأسي، في قلبي، تعرفي الى أيِّ حد انت الكل بالكل، الزهرة والثمرة، القوة والضعف، السـرور والالـم، الالم عن غير عمد، السـرور الدائـم، حتـى في الالم، الفـن والسـعادة، الرجاء، كل الامور الانسـانية



الحسنة والجميلة، حتى الدين، لا استطيع أن اقول انك كآلهة، لاني اعتقد انك اكثر».

ثم نراه يكتب لها بعد أيام: «انك كل عائلتي، تقومين مقام امي منذ الثالثة عشرة من عمري، ومقام الصديقة (الوحيدة) والأخت والأخ والرفيقة والعشيقة».

*****

الخوف من الحب

الحب الثاني كان مع مدام «زولما كارو» التي كانت زميلة لاخته لورا في المدرسة، لكنها كانت صعبة المنال، فلم يجرؤ أن يتحدث معها عن الحب، لكنها في المقابل كانت معجبة بما يكتبه، وقد كتبت اليه: «لست اريد، الصداقة الممتعة التي تقدمها للنساء اللواتي، يفضلنني الف مرة، وانما اطمح الى عاطفة اسمى، هي أن احظى بتقديرك الكافي بحيث تجعل مني امرأة (احتياطية) تستجيب فوراً لندائك، حيث يزعج بهجتك طارئ أو تجرح قلبك خيبة أمل مفاجئة، فتناديها مستغيثاً».

إلا أن علاقة الحب هذه لم تدم طويلاً، كما انها لم تؤثر في بلزاك، الذي انتقل لحب المركيزة دي كاستري، وكانت هذه التجربة مغامرة خاسرة بالنسبة اليه، فقد تورط في الحب مثلما تورط في الديون لأنه كان يريد أن يرضيها، ونجد مدام دي برني تحذره من هذه المغامرات فتكتب اليه: «أن خوفاً مميتاً يزحف أحياناً على قلبي، كلما سمعت بأحوالك، فأصغ الى صوت العقل ياصديقي العزيز المحبوب».

لكن مدام دي برني بلغت أخيراً السابعة والخمسين من عمرها عام ١٨٣٢، فكان لابد أن يبحث بلزاك عن حب شاب وهو يكتب في مذكراته: «منذ أن صارت لي افكار ومشاعر، كرست نفسي للحب وحده، فكانت اول امرأة صادفتها ذات قلب ملائكي وروح فطنة، لكنها كانت تكبرني باثنين وعشرين عاماً، بحيث اذا تغاضيت عن مغزى ذلك من



ناحية المبدأ، وضعت الطبيعة في وجهي عوائق مادية لايمكن تخطيها».

ولأن بلزاك أحب دائماً نساء اكبر منه عمراً، نجده في رواياته يتوقف كثيراً عند سن المرأة، فأوجد ولأول مرة في الأدب الروائي البطلة التي تحب بعد أن تجاوزت الاربعين، لكنه لم يجرؤ على أن يصور في رواياته، بعض ملامح سيرته الذاتية والنهاية التي انتهت فيها علاقته مع مدام دي برني، بعد أن اصيبت بالمرض، ونجده في مذكراته يكتب: «انها تسمو بصداقتها إلى حد اخفاء آلامها عني، فهي تريد أن تشفى من اجلي، يا إلهي، لكم تغيرت في الشهرين الأخيرين، لقد اصابني الرعب حين رأيتها».

وحين ماتت كتب: «ها انذا انفّذ وصية حبيبتي وكلماتها الأخيرة التي كتبتها لي والتي قالت فيها: الآن استطيع ان اموت مطمئنة، فإني واثقة انك ستضع فوق جبينك التاج الذي طالما حلمت بأن أراه، إن قصتك زنبقة في الوادي عمل أدبي عظيم».

****

بين الحياة والأدب

يخبرنا بلزاك، أن روايته زنبقة في الوادي كتبها بعد أن علم بمرض مدام دي برني الخطير، فأراد أن يخلد صديقته، وأن يكتب لها عملاً أدبياً تقرأه قبل موتها.

وفي الرواية نحن بمواجهة الشاب «فيليكس» الذي ينتمي الى عائلة غنية، لكنه يعاني من طفولة قاسية - مثل بلزاك - ولايعرف شيئاً عن النساء، والنموذج الوحيد الذي عاش معه هي امه التي لاتهتم به كثيراً، لكنه ذات يوم وبعد أن بلغ العشرين من عمره، يحضر حفلة ساهرة، فنجده يجلس الى جوار امرأة مجهولة يفتنه جمالها الى حد أنه دون أن يعي يقترب منها ويقبل كتفها، فتطلق المرأة صيحة حادة وتستدير حوله لتشتمه ثم تغادر القاعة.



ويبدأ فيليكس يسأل عن المرأة من هي، ويمضي في رحلة البحث عنها في كل مكان، وذات يوم يقترب من أحد القصور ويقول لنفسه: «اذا كانت هذه المرأة المجهولة تعيش في مكان ما على الأرض.. فهذا هو المكان».

وتصدق توقعاته، ففي هذا القصر الكبير تعيش مدام دي مورسوف، ويعرف انها متزوجة من رجل عجوز، ولديها طفلان، ويقرر التقرب الى زوجها فيزورها في البيت بدعوة من الزوج الذي شعر بألفة مع هذا الشاب، وأراد أن يلقي عليه دروساً في الزراعة وتربية الكلاب، لكن في اللحظة التي يقرر فيها فيليكس أن يتحدث مع مدام مورسوف عن مشاعره توقفه قائلة: «هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب أن لاتفعله، وإذا لم تتوقف سوف امنعك من دخول المنزل». ويقبل بشروطها، لكنه يفاجأها بين الحين والآخر، بأن يقبّل يديها: «حين تفشل الكلمات، يحدث الصمت أثره في النفوس، ويسأل أحدنا الآخر بنظراته: ترى هل يقدر لنا أن نحظى بيوم نستطيع أن نسميه يومنا».

وتقرر مدام مورسوف أن تساعد فيليكس في حياته العملية، وتختار له العمل في السياسة، ويحصل على منصب حكومي كبير، وفي هذه الاثناء يلتقي بامرأة انكليزية جميلة تحاول أن تقيم معه علاقة حب: «كانت تعرض عليّ وهي تضحك اكثر العروض تواضعاً، بأن اسمح لها أن تحبني، وذات يوم قالت لي، سوف اظل دائماً صديقتك، خليلتك أينما تريد». ونجد فيليكس ممزقاً بين مدام مورسوف، وليدي ردلي، كما وجد بلزاك نفسه ذات يوم حائراً بين مدام دي برني وفتاة أخرى تصغرها سناً، وحين تَّعرف مدام مورسوف بالأمر، تخبره بأنها ستتركه لحبيبته الجديدة: «وداعاً يا طفلي الغالي، من روح سكبت أنت فيها الأفراح والمباهج ما انوء بحمله، وما يغفر لك الكارثة التي انتهى امري اليها، انا موقنة انك تحبني، ولهذا اقترب من راحتي الابدية، وأنا ارتجف أسفاً وندماً».

يكتب لمدام دي برني في احدى رسائله: «بدونك ما كنت كتبت



زنبقة في الوادي» ويخبرها وهي على فراش المرض: «اني اكتب لك، اريد المجد من اجلك، انك كل شيء، الجمهور، المستقبل».

في الخمسين من عمره يتعرف بلزاك على مدام دوهانسكا. وكانت سيدة روسية غنية. ولأنه ضعيف الحظ مع النساء، شديد الاحساس بالنقص تجاه كل سيدة وبسبب هذا الاحساس تضخمت في ذهنه فكرة الزواج من مدام دوهانسكا، لما سيناله بزواجها من استقرار ليتفرغ بعد ذلك في هدوء لإتمام رسالته الأدبية الضخمة. كانت صحته قد أخذت في الانهيار، وأجمع الأطباء على أن حالة القلب لديه لا تسمح له بحياة طويلة. عندئذ. وعندئذ فقط تقرر دوهانسكا على أن تحقق للرجل الذي صبر السنين الطوال لينال يدها الأمنية الكبرى التي يحملها لها صدره. فما الذي ستفقده بهذا الزواج وقد أجمع الأطباء أنه لم تبق له في الحياة إلا شهور معدودة!

وسافر بلزاك إلى روسيا رغم اعتلاله، ليعقد أخيراً زواجه في آذار عام ١٨٥٠ في هدوء وصمت، وقدر بلزاك أن يعيش معها خمسة وعشرين عاماً، يكتب أثناءها خمسين كتاباً ليتم قائمة مؤلفاته التي سميت بـ(المهزلة الإنسانية) حيث بلغ مجموعها مائة وأربعة وأربعين مؤلفاً. وكان قد أعد لذلك غرفة مكتب فاخرة في منزله الكبير، فإلى أي مدى تحقق هذا الحلم؟ لم يخط بلزاك حرفاً في غرفة المكتب الفاخرة. باستثناء كتاب صغير اسماه «فلسفة الزواج»، والذي يعد تحفة ادبية ونادرة، يقول بلزاك عن مؤلفه هذا: سيدتي، هذا كتاب من أجل الدفاع عن النساء، وهكذا فإن معنى كتابي هو تحميلي الحصري لجميع الخطايا التي ارْتُكِبت من طرف النساء لأزواجهن.. إنها تبرئة عظيمة، بعد ذلك أطالب بالحقوق الطبيعية وغير القابلة للتقادم للمرأة، ليس هنالك زواج سعيد إذا لم تسبقه معرفة شاملة من طرف الزوجين، فيما يتعلق بالتقاليد والعادات والطبائع إلى غير ذلك، ولم يحدث أن تراجعت عن هذا المبدأ أمام أية عواقب، ويضيف الكاتب متهكماً، أولئك الذين يعرفونني، يعلمون بأنني كنت دائماً مؤمناً منذ سن الرشد، بأن قوانين



الحب تربط بقوة مخلوقين لا يستطيع أي قانون بشري أن يفرق بينهما؟

في مساء الثامن عشر من آب عام ١٨٥٠ يصاب بلزاك بأزمة قلبية تلزمه الفراش ولاينهض منها، يزوره فكتور هيجو، الذي يروي لنا اللحظات الأخيرة من حياة اكبر ادباء فرنسا: «كان وجهه بنفسجياً، ويكاد يكون أسود، منحنياً لجهة اليمين، لحيته كثة، شعره رمادي قصير، عيناه مفتوحتان ومحدقتان، رأيته من جانبه، فبدا لي شبيهاً بالامبراطور»، وعلى السرير وجد هيجو هذه الرسالة معنونة الى مدام دي برني: «لا اقوى على تركيز افكاري، افهم ان الموت افضل نهاية لهذه الحالة التي اعيش فيها منذ ان غادرتي انت الحياة، ولهذا صممت على الذهاب من هذه الدنيا الفانية».




مكتبة
الفكر الجديد

-٢٣-

الحبّ كالزمن.. لا ينقسمُ ولا يُقاس

أراد لـه والـده أن يصبـح محامياً، فـي الوقت الذي تمنـت فيه والدته أن يدخـل ابنهـا سـلك الرهبان، كانت امـرأة: «حنون، قريبـة على قلبي، وكانـت أعجب كائن عرفته في حياتي، بوسـعي رؤية وجهها الآن، على غايـة الرقة، وقد غـدا أكثر جمالاً». لـم يذكر جبران خليل جبران المولود في السادس من كانون الثاني عام ١٨٨٣، من أمه شيئاً سوى طريقتها في تعليمه الحـب: «كانت والدتي تدربني على حب الآخرين، لقد حررتني من ذاتي».

وقد مارسـت الام «كاملة رحمة»، تاثيراً كبيراً على ابنها، فتعلم اللغة العربيـة بفضلهـا، وعندما انتبهت الـى ميوله الفنية، أهدتـه البوماً مصوراً عن ليوناردو دافينشي، وقد وصف جبران فيما بعد هذه الهدية في رسالة كتبها لأمه وهو في المهجر: «لن انسى رسوم ليوناردو دافنشي، فقد كان تأثيرها مشابهاً لتأثير البوصلة على مركب تائه في كنف الضباب».

وللتعبيـر عـن تأثـره العميـق بأمه، نجـده يكتب فـي كتابـه الأجنحة المتكسـرة : «أن اعظم ما تحدثه الشـفاه البشـرية هو لفظة الأم، وأجمل مناداة هي: يا أمي، كلمة صغيرة كبيرة مملؤة بالأمل والحب، وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة».

وبعد ذلك نجده يكتب للمرأة التي أحبها ماري هاسكال: «أنت وأنا، واحدنا أم للآخر، وأحس في نفسـي بعض الأمومة نحوك، ولاشك أنك



تشـعرين انت أيضاً، ببعض الأمومة نحوي «ويخبرني زيادة أنه «يرى أمه مجسدةً في كل امرأة أحبها».

ويكتـب جبران خليـل جبـران مقالة عـن الروائـي الانكليـزي د.ه. لورنـس ومدى تأثير امه على اعماله الروائيـة: «أمه التي ماتت كانت في حقيقة الأمر دعامة حياته، هي التي احبها، وقد واجه كلاهما الحياة معاً، والآن وقـد ذهبـت، وسـتظل وراءه دائماً هذه الفجوة فـي الحياة، انه في حاجة الى انسـان آخر يقدم له العون من تلقاء نفسـه، ويشد أزره بمحض رغبته، للأشـياء الأقل شـأناً بدأ يدعهـا تذهب عنه، من فرط خشـيته من ذلك الشيء الكبير، ذلك الزلل نحو الموت في اعقاب رحيل محبوبته».

هكذا كان جبـران، فحبّه لأمه لم يمت برحيلها، لأنه كان دائماً يلتقي بنسـاء كل منهـن تمثل جانباً مـن الجوانب التي كانت تعنيهـا له أمه، فقد كان يبحـث في النسـاء، ولهذا كانت معظم النسـاء اللواتـي ارتبط معهن بعلاقات حب يكبرنه سناً.

- سـلطانة ثابـت أول امرأة يتعرف عليها كانت تكبره بخمسـة عشـر عاماً

- مـاري هاسـكل التـي عاش معهـا أجمل قصـة حب، تكبره بعشـر سنوات

- مـاري خـوري التـي كانت ملامحها تشـبه ملامح أمه تكبره بتسـع سنوات

- مي زيادة التي لم تحب رجلاً غيره كانت تكبره بخمس سنوات

ونجده في معظم رسـائله يخاطب ماري هاسكال بقوله: «هكذا أنت أم هذا الكئيب بشـكل من الأشـكال»، ويكتب الى ماري خوري: «يداك الإلهيتـان وهبتانـي الحيـاة الفضلى» ويصـف حبه لسـلطانة ثابت: «لقد تمسـكت بأذيالك، كطفل يلاحق أمه»، وفي إحدى رسائله الى مي زيادة يخاطبها: «يا أمي الحسـناء، ذهب الربيع وجـاء الصيف ومحبتي تتدرج من شغف، إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو أمه».



وقـد كانت مـاري هاسـكال تأمـل أن يتزوجهـا جبـران وتكتب في يومياتهـا: «رجـالات هـذا العصـر الذين أتـوا بباهر الأعمـال جميعهم متزوجـون، إلا أن جبـران، علـى مـا اعتقـد لم يحقـق شـخصيته كفاية التحقيق بعد، فيوم يتم له هذا سـيظفر بالحياة حينئذ ربما يفكر بالزواج، فالحب والاستمرار فيه، مع صرف النظر نهائياً عن الزواج، ينطوي على صعوبة استحسنت أن أصارحه بها على الفور».

****

السير على خطى نيتشه

في تلك السـنوات التـي تعرف فيها جبران خليـل جبران على ماري هاكسـل، كان قد تأثر بالفيلسـوف الألماني نيتشه، وظل يردد أمام ماري عبـارة نيتشـه الشـهيرة: «الحب ابـرز مافي حيـاة المرأة، وإنمـا مجدها وشرفها يدفعانها الى أن تمثل الدور الأول في الحب بالزواج، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذي تصطفيه زوجاً لها، انها تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن إرادتها الخاصة».

وكان نيتشـه يعتبـر الزواج غبـاوة تفصح عـن جهل بحقائـق النفس البشـرية: «إنـه تحكم اللذة البائسـة في روح الزوجين، انـه ذلك الدنس يتمرغان فـي أوحاله، انه ذلك الخواء الروحي الذي يجمع بينهما، لكن جهلهما يجعلهما يريان فيه الرباط المقدس الذي عقدته السماء بينهما».

ونعرف من سـيرة نيتشـه، أنه لم يجرب الزواج، لكنه حاول اكثر من مرة أن يستسلم لهذه «الكذبة الصغيرة المهندمة»، ونقرأ في سيرة حياته، كان امامـه الكثيـر من المرشـحات للارتباط به، إلا أن شـخصيته النزقة أرادت أن تمارس تكتيكاً شديداً في العلاقة مع المرأة، فهو يرى أن علينا أن لانحذف الحب من حياتنا بشـرط أن لانعمقه بالزواج: «ما الحب إن لم يكن أن نتفهم أن شـخصاً ما يعيش ويتصرف ويشـعر بطريقة مختلفة عـن طريقتنا ومتعارضة معها، ولكـي يوحّد الحب الأضداد، لاينبغي له أن يلغيها أو ينكرها». - نيتشه (العلم المرح)-.



وظل جبران يهتم كثيراً بآراء الفيلسوف الالماني، حيث اعتبر الزواج أمراً يورث الخوف والتعاسة. كان جبران في العشـرين من عمره، حين سيطرت عليه افكار نيتشه الى جانب اعجابه بالشاعر الانكليزي كولردج الذي ذاق مرارة الفشل في الزواج، ومعاناة الارتباط بامرأة لا تفهم حياة الشاعر الداخلية، ويكتب جبران خليل جبران رأيه في الزواج في احدى رسائله الى ماري هاسكال: «ترين أن أمرأة تتدفق حياة ونضارة وهي في سن الخامسة والعشرين، ثم تتزوج رجلاً مليئاً بالحيوية والجاذبية أيضاً، ولما تلتقين بهما بعد خمس سنوات ترين المرأة وقد ذبلت جاذبيتها، لاجسدياً، بل كيان وحياة».

وعلى الرغم من علاقاته المتعددة بالنساء، إلا أن جبران كان يفتقد للمرأة الوحيدة التي بإمكانها أن تغنيه عن كل النساء، امرأة تكون حبيبة وليست زوجة، ولهذا نجد مثل هذه العبارات في كتابه النبي: «أحبوا بعضكم بعضاً، ولكن لاتقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم. ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه، ولكن لاتشربوا من كأس واحدة. قفوا معاً، ولكن لايقرب أحدكم من الآخر كثيراً، لأن عموديّ الهيكل يقفان منفصلين.

ويكتب في «المواكب»:

والحب إن قادت الأجسام موكبه

إلى الفراش من الأغراض ينتحر

والحب في الروح لا في الجسم نعرفه، كالخمر للوحي لا للسكر ينعصرُ.

*****

البحث عن حنان الام

كانت في الثلاثين من عمرها حين أربكت الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً، عندما التقاها في المعرض التشكيلي الذي أقامه لرسومه،



كانت تطيل النظر باللوحات، وجهها كان مشرقاً وعيناها الزرقاوان تشعان ببريق لامع، تجرأ على الاقتراب منها وهو يقول:

- هل تود سيدتي أن اشرح لها معاني بعض اللوحات ؟

- بكل سرور تجيبه ماري هاسكال، دون أن تعرف من هو ثم تضيف: صحيح أنني من عشاق الفن، غير أنني لست فنانة. هل أنت فنان ؟

- لي الشرف أن أكون فناناً

- هل تعرف من هو مبدع هذه اللوحات

- إنه أنا!

- فوجئت ماري هاسكال، ونظرت الى الشاب الأسمر القصير القامة الذي كان يبدو عليه الخجل وهو يتحدث معها.

- تبدو فتىً موهوباً، قل لي، لِمَ كل وجوه النساء هذه تتكرر في لوحاتك ؟

-إنها وجه أمي، حبي الأول والأخير.

ترك اللقاء مع ماري هاسكال أثره في جبران، الذي يكتب في يومياته: «ها هي اول امرأة مختلفة التقي بها، كانت تحاول الاصغاء إلى ما في ذاتي، وتحثني على الكلام كمن يحفر في قرارة نفسه».

بعد أيام يتلقى دعوة لتناول الشاي في منزل ماري، طلبت منه أن يعرض لوحاته في المدرسة التي تعمل بها، ثم راحت لقاءاتهما تتكرر، بدأ جبران يطلعها على تجاربه الأولى في الكتابة، فاقترحت عليه أن ينشرها في احدى الصحف، فظهرت له مقالة بعنوان «رؤيا» يتحدث فيها عن معاناة القلب البشري الذي يعاني من أسر التقاليد.

في عام ١٩٠٤ تقترح ماري على جبران أن تساعده في دراسة الرسم بباريس، وأن تتحمل هي نفقات الدراسة، وبعد عام يحطّ الرحال في فرنسا ويكتب لماري هاسكال: «آمل أن تطول بي الأيام، فأتمكن من انجاز ما يستحق أن اقدمه لك انت التي تقدمين لي الكثير، وآمل أيضاً أن يأتي اليوم الذي يمكنني القول فيه ها إني صرت فناناً بفضل ماري هاسكال».



ويكتـب الى شـقيقته: «إن وجـودي في الحياة مرتبـط بحضور ملاك يشبه إمراة يقودني نحو مستقبل زاهر ويمهّد لي الطريق نحو النجاح».

واثناء وجوده في باريس يتبادل معها عشـرات الرسائل، ونكتشف أن شـرارة الحب قـد اتقدت بين الاثنيـن. فيكتب لها: «حين تطل سـاعات الكدر، أطالع رسـائلك ياماري، وعندما يلـف الضباب الـ (أنا) اخذ من العلبـة الصغيرة رسـالتين أو ثلاثاً وأعيد قراءتها، فرسـائل تذكرني بذاتي الحقيقية، وتجعلني أتخطى كل ما ليس سامياً وجميلاً في الحياة».

وفي يومياتها كتبت ماري هاسـكال: «أفكر مراراً أني اسمع همسات الكائـن الـذي يرشـدك وهـو يخاطبنـي بشـأنك» يجيبهـا برسـالة «لقـد اصبحـت قدري» فتكتب اليه: «أنت الذي أجده دائماً كلما انطويت على نفسـي، فأنت لن تتسـلل من حول قلبي، اكثر ما يستطيع سواري التسلل من معصمي».

عندما احتفل مع ماري بعيد ميلاده السـابع والعشرين، همس لها بأن تقبله زوجاً، كانت ماري في السـابعة والثلاثين من عمرها، سبق لها وأن رفضـت العديد من عروض الزواج، فقبلـت عرضه فوراً. لكن خطبتهما لـم تدمْ طويـلاً، إذ إن ماري كانـت تتألم من فارق السـنِّ بينهما، وكانت تعتقد بأن زواجهما سـيؤذي مسـاره كفنـان وكاتب. ونجـده يكتب لها: «سـأحبك حتى الأبدية. فقد كنت أحبك قبل أن نلتقي كبشريَيْن من لحم ودم بزمـن طويـل. عرفت ذلك حين رأيتك للمـرة الأولى. كان ذلك هو القَدَر. أنتِ وأنا قريبان؛ ففي الجوهر نحن متشـابهان. أريدك أن تتذكري هذا دائماً. أنت أعزُّ شخص على قلبي في هذا العالم. وهذه القربى، هذه الحميميـة في كيانـنا الروحي، لن تتغير، حتـى وإن اتفق لك أن تتزوجي سبع مرات، ومن سبعة رجال مختلفين».

وبمـرور السـنين وبعـد أن كانـت مـاري تمثـل دور الحبيبة بالنسـبة لجبـران، تحولت لتمثل دور الأم، وتعترف هي بهذا الدور الجديد الذي بـدأت تمثله فـي حياة جبران: «اشـعر أحياناً يـا جبران، أن لـي جناحين



منتشـرين وغالبـاً عندما ابسـطهما للطيـران، تضمّ انت اليهمـا جناحيك الصغيرين فتحصل على كل قوتك في التحليق معي».

ويقول لها ذات يوم: الآن أعرف أنك تحبينني

وتنتفض ماري قائلة:

أما كنت تعلم من قبل

- بلى، ولكن بطريقة مغايرة، حبي أكبر من أن أرضى بك زوجة.

وأخـذ يخبرها أنه لم يكـن في حياته قريباً من انسـان مثلما هو قريب منها: «لقد ملكت عليَّ مشاعري ومفاتيح خيالي».

تكتب في احدى رسـائلها: «اذا كان بوسـعي حب رجال آخرين، فإن لدي الكثير من الفرص، لقد التقيت بالكثير من الرجال، لكن بيني وبينك قرابة» ويكتب لها من نيويورك: «أريد أن تعرفي انك أعز شـخص لي في الدنيا، فأرجوك لاتخافي الحب، لاتخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه».

تسـتمر العلاقـة بين جبـران وماري، حتـى بعد أن تزوجـت من أحد اقاربهـا، وانتقلت الـى بيتها الزوجي، حيث بقيا يتراسـلان، ويبعث إليها جبران مسودات كتبه لتنقحها وتبدي رأيها فيها، وخلال هذه العلاقة التي اسـتمرت سـنوات، كانت ماري بالنسـبة لجبران أمّاً وحبيبـةً، يقول عنها ميخائيـل نعيمة في كتابه «جبران خليل جبران»: «لا أثر في روحها لغيرة النسـاء، ولا فـي قلبها لشـهواتهن، كأنهـا لم تصنع من ضلـع الرجل، بل جُبلا من شـرفه دون قساوته، ومن عفة المرأة دون ضعفها، وكان جبران يحبها، لكن بغير الحب الذي يحب به الرجل المرأة».

****

البحث عن الحب بين الحروف

قالت لزوار مجلسـها الأسـبوعي المنعقد في يوم الثلاثاء من تشرين الأول عـام ١٩١٢، أنهـا قـرأت مقالة مثيـرة لأديب لبناني اسـمه جبران



خليل جبران بعنوان «يوم مولدي» وسترسل إليه رسالة تبدي اعجابها بما كتبه وإنها تشاطره الرأي في مبدأ المناداة بحرية المرأة، لأن المرأة في رأيها ينبغي أن تمتلك حرية اختيار الرجل الذي تشاركه حياته وفق ما تمليه عليها ميولها واحاسيسها الخاصة.

كانت مي زيادة في السادسة والعشرين من عمرها حين تعرفت الى جبران خليل جبران، وكان هو في الواحد والعشرين من عمره، وكانت اول رسالة ترسلها اليه قد بدأتها بعبارة الى الأديب الموهوب، لكنه في رسائله ظل يناديها ياعزيزتي، ومن دون أن يلتقيا، شعر كل واحد منهما بأن هناك عاطفة تحركه نحو الآخر، كانت مي امرأة فنانة وحالمة، وقد عبرت بعد سنوات من المراسلات مع جبران، عن امنيتها أن تلاقي الوجه الحبيب الذي تحول المسافة دون رؤيته، متخيلة نفسها محلقة فوق مياه البحر لملاقاته، فقد اصبح جبران يحتلِ مكانة مميزة في عالمها الرومانسي، فيما كان جبران يشعر بأن «خيوطاً غير مرئية تربطني بك» وكتب مقالاً تخيل فيه أن روح مي ترافقه بفضل ما اسماه «العنصر الشفاف» وقد أخذ يستخدم صيغة نحن عندما يكتب لها: «منذ كتبت اليك حتى الآن وانت في خاطري، ولقد صرفتُ الساعات الطوال مفكراً بك مخاطباً إياك مستجوباً خفاياك مستقصياً أسرارك، والعجيب انني شعرت مرات عديدة بوجود تلك الاثيرة ترقب حركاتي، وتكلمني وتحاورني وتبدي رأيها في أعمالي».

وفي حزيران عام ١٩٢١ ترسل مي صورتها الى جبران فيكتب لها «شعرت بسعادة وأنا انظر الى وجهك المستدير وعينيك المجروحتين، وشفتيك المكتنزتين، في نظراتك بريق ما، معبّر، وفي قسماتك ملمح ذكرى» ويبدأ يرسم لها صورة بأقلام الفحم ويقول لميخائيل نعيمة وهو يريه البورتريه: «ما أجمل وما احلى هذه البنية، وما اوضح دلائل الذكاء في عينيها» كان جبران يجد فيها حبه الروحي، الحب الذي لم يستطع أن يعيشه مع ماري هاسكال ويكتب لها: «انت معي في هذه الساعة، انت معي يا مي، اعلم اننا اقرب من عرش الله في هذه الليلة منا في اي



وقت من ماضينا، انت اقرب الناس الى روحي، وانت اقرب الناس الى قلبي، ونحن لم نتخاصم قط روحينا أو قلبينا» وتكتب مي في احدى رسائلها: «احبك ياصغيري، غير انني لا ادري بعقلي لماذا احبك؟ ولا اريد أن ادري بعقلي، يكفي انني احبك بروحي وقلبي، يكفي انني اسند رأسي الى كتفه كئيبة غريبة مستوحدة، فرحة، مدهوشة، مجذوبة، يكفي أن اسير الى جانبه نحو قمة الجبل واقول له بين الآونة والأخرى، انت رفيقي، انت رفيقي».

وفي مقالة نشرتها بجريدة الاهرام بعنوان أنت «تخاطب مي جبران من دون أن تسميه: «من انت، هل انت وحي يفيض عن شعري، طيف من اطياف رغبتي وعذابي؟ أم انك واقع ملموس عبر أفق حياتي كما تعبر سفينة عباب البحر قاصدة الشطآن البعيدة».

وكتب لها معبراً عن فرحه بتسلم رسائلها: «أن يوماً يجيئني منك رسالة واحدة لهو من الأيام بمقام القمة من الجبل» ثم يتابع رسائله حاثاً إياها على السير وراء نداء القلب: «تقولين لي انك تخافين الحب، لماذا تخافينه ياصغيرتي؟ أتخافين نور الشمس؟ اتخافين مد البحر؟ انا اعلم أن القليل من الحب لايرضيك، كما أعلم أن القليل من الحب لايرضيني. أنت وأنا لا لن نرضى بالقليل. نحن نريد الكثير. نحن نريد كل شيء. نريد الكمال».

بعدها أحسّ جبران بحالة من الحيرة والقلق وتشتت عاطفي بين ماري هاسكال ومي زيادة، فنقل لها ما يعانيه في احدى رسائله: «ماذا اقول يامي عن رجل اوقفه الله بين امرأتين. امرأة تحوك من احلام اليقظة، وامرأة تحوك من يقظة الأحلام».

تجد مي في حيرة، هل قرر جبران أن يختار بينها وبين ماري هاسكال، تكتب في احدى رسائلها: «انت قادر على الحب، وليس على حب امرأة من لحم ودم» يكتب جبران في يومياته: «وما المرأة سوى الطريق المؤدية الى الحب المطلق، الحب بذاته».

وبعد رسائل عديدة يكتب لها في الثالث من آب عام ١٩٢٣ : «انك



محبوبتي، كلمة الحب، ما معنى هذا الذي اكتبه، لا اعرف ماذا اعني به، ولكني اعرف انك محبوبتي، واني اخاف الحب، اني انتظر من الحب كثيراً، فأخاف أن لا يأتيني بكل ما انتظر، اقول هذا مع علمي، بأن القليل من الحب كثير، ولكن القليل من الحب يرضيني». لكنه يشعر في أحيان كثيرة ببرودة تحيط علاقته بمي وتأخذ رسائلها بالانقطاع، فيأخذ بالتوسل إليها أن لاتتركه وحيداً في صحراء الحياة القاحلة: «يامي أنت تعرفين سكوتك، اما انا فأجهله، وليس من العدالة أن يكون جهل المرء مصدراً لتشويش أيامه ولياليه» وعندما لم يجد رداً، كتب اليها ثانية: «ما اغرب سكوت صغيرتي المحبوبة، ما اغرب سكوتها، ذلك السكوت الطويل كالأبدية، العميق كأحلام الآلهة».

في كتابه «نساء في حياة جبران» يكتب وفيق عزيزي: «لقد أثارت العلاقة التي نشأت بين جبران ومي، عبر الرسائل عدداً لا يحصى من التأويلات، حتى انها كتبت رسالة قبل رحيله: «يلومني البعض لأني احببتك، نعم احبك وفي قلبي قبلة خاصة لك، وصومعة تختلي بها لتجد راحتك وتعزيتك».

*****

النهاية المؤلمة

ظلت مي زيادة تخبيء قصة حبها لجبران خلف الورق والمسافات ولكن بعد اثنتى عشرة سنة منذ بدأت تراسل جبران، كانت تامل أن يصرّح لها برغبته فى الزواج منها، ولكنه لم يفعل. فاكتفى جبران بالحب عن بعد، مفضلا عدم اللقاء، لتكون حبيبته ميّ مجرد ملهمة لخياله لا أكثر، ولأنه لم يكن يسعى للزواج من أى امرأة، مفضلا الحرية.

مرت السنوات ولم تستطع مى زيادة التى عشقها الجميع، التخلى عن حبها لرجل مغترب خلف البحار، أخلصت له مشاعرها قرابة عشرين سنة، ولم تلتق به، بينما عوّض هو احتياجاته العاطفية فى علاقاته



العديـدة، وأشـبع روحـه فـى نفس الوقـت بعلاقتـه بمىّ زيـادة، وظلت هـى تواجه بسـببه تأنيـب ضميرها ومجتمعهـا لقرارهـا، أن تصبح راهبة فى محراب عشـقه، رافضـة للزواج، ومحافظة بقداسـة علـى «الأغلال العنيدة» التى كبلت بها نفسها.

وفى سنة ١٩٣١ رحل جبران عن الحياة، فقدت مي والدها، ثم رحلت والدتهـا سـنة ١٩٣٢ وعانـت مـن الوحـدة، وظلـم أولاد عمومتهـا الذين أودعوها مصحة نفسية فى لبنان طمعاً فى ميراثها، وفقدت مي زيادة رغبتها وشـغفها بالحيـاة حتى رحلت سـنة ١٩٤١ عن عمر يناهز الــ٥٥ عاما فى مستشفى المعادى بالقاهرة.

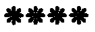



مكتبة
الفكر الجديد

-٢٤-

الحبّ.. حياةٌ وموتٌ من أجل بلوغ المستحيل

«كل شـيء حزيـن هنـا. أو هكذا يبـدو لي، ذهب كل شـيء، كل يوم اتمشـى أجـد مقعدنا خاليـاً فأمر عبـره ولا أجلس عليه. تذكريـن النافذة المقوّسـة الكبيـرة الـى يميـن الشـرفة، كـم كانت ركنـاً جميـلاً، الزهور والنباتـات ذات العطر السـاحر، هنـا لاتزال. ولكن هـي فارغة، وحيدة، مهجـورة». كان صاحـب هذه الرسـالة الغرامية في الواحد والسـتين من عمره، يعتبر أشـهر رجل في اسـكندنافيا، فهو الى جانب تولسـتوي يعد أعظـم كاتـب حي في العالـم، وكان الصحافيون يقطعـون آلاف الأميال لإجراء حوارات معه في شقته الكئيبة، كما كان ظهوره اليومي في مقهى المدينـة فرحـة للسـكان، حيث يجلـس وحيداً يقـرأ الجريدة أو يشـرب قهوتـه المعتـادة، وعندما كان يدخـل الى المقهى كان جميع الجالسـين فـي القاعة يقفون ويرفعـون قبعاتهم، ولم يكن أحد يجرؤ على الجلوس قبل ذلك الرجل العظيم، ويصف جورج برنادشو الذي كان مغرماً بإبسن ويفضّله على شكسـبير مشـهد حضور إبسـن في الأماكـن العامة بقوله: «كان مبجلاً، يرتدي معطفاً أسـود وأشـرطة الاوسـمة وقميصاً لامعاً من الكتان، ربطة عنق انيقة، قبعة سوداء من الحرير اللامع، نظارة ذهبية.. فم مزموم مثل نصل سكين. كأنك تقف امام جبل مصمت».





موظف يحترم الدقة

ظل هنريك إبسن يمارس حياة منتظمة تماماً مثل حياة أحد الموظفين الذين يتميزون بالدقة واحترام الوقت والمواعيد، فكان يخصص خمس أو ست ساعات للكتابة، يمضيها في مكتبه، بعدها يقوم بنزهة، حيث نجده يتخذ كل يوم مكانه المعتاد في احد المقاهي. يقرأ الصحف بتمهل، وكان يقدم نتاجه المسرحي بانتظام يثير الإستغراب، عملاً مسرحياً كل عامين، ويصر على أن تنشر مؤلفاته الجديدة بعد عيد رأس السنة الجديدة مباشرة، ولم يكن يشاهد بروفات مسرحيات، ويرفض حضور العرض الأول، لم يكن من محبي الحفلات الاجتماعية. والمقربون منه يعتقدون أنه يختفي وراء قناع صارم، كما إنه لم يكن له صديق مقرب يأتمنه على اسراره الخاصة، يكره السياسة ويرفض الانتماء الى الأحزاب السياسية: «انني كافر بالسياسة، فأنا لا أؤمن بقدرتها على التحرير، وأشك فيمن يمارسون السلطة ولا أعتقد في نزاهتهم أو في إرادتهم». كان إبسن ذا قدرة فائقة على التخيل. ولكنه كان منطوياً. كما كان يتميز بالخجل في علاقاته النسائية، ومع كل هذه الشهرة العالمية والأوسمة والنياشين التي حصل عليها، فإنه ظل يعاني من الفراغ، يبدو احياناً وكأنه يبحث عن شيء، وكان يقول عن نفسه: «أحمل ثقلاً من الغيظ الذي لايهدأ، ومثل روسو حملت الكدمات نفسها طوال حياتي» يتعرّف في صيف عام ١٨٨٨ على فتاة اسمها اميلي تبلغ من العمر عشرين عاماً، عندما كان يقوم بنزه مع زوجته في قرية على الحدود الالمانية انذاك شاهد فتاة جميلة خضراء العينين ذات شعر اشقر طويل تحمل سلّة من الزهور اقتربت منهم وناولت كلاً منهم وردة، احتفظ بالوردة في أحد كتبه، وقرر أن يهدي لهذه الفتاة احدى مسرحياته ويكتب في الإهداء: «قدر سامق ومؤلم يجعلنا نمد الذراع جاهدين لنطول ما لايطال. وأرفق الإهداء بعبارة: الى الشمس التي أشرقت في طريق حياتي». بعدها تتوالى الرسائل ويكتب في يومياته: «أميلي أعادت لي الأمل بحياة جديدة»، وبعد اسابيع يرسل لها رسالة جديدة يكتب



فيهـا: «أكان لقاؤنا غباءً أم جنونـاً؟ أم تراه كان غباءً وجنوناً معاً؟ أرى إنه شيء، لا هو بالجنون ولا بالغباء إنه القدر».

ويطلـب مـن أميلي أن ترسـل له صورتهـا وحين تتأخر بالـرد يكتب لهـا: «افضل هذا من أن تصلني صورة غيـر مميزة، ومع ذلك فما اوضح ملامحك الراسـخة الجميلة في مخيلتي، ما زلت أرى اميرة تخفي كثيراً من الأسرار وراء تلك الملامح، هذه الأسرار، ما هي ؟ يحلم المرء بأشياء كثيـرة ويخلـق من أحلامه جمالاً كبيراً، وهذا مـا أفعل، إنه عوض صغير عن الحقيقـة، الحقيقة بلا قرار، الحقيقة التي لا تطال»، بعدها يكتب في يومياته: «تعرفت على طيف جميل من أطياف الصيف، جزء من موسـم الفراشـات والزهـور البرية.. أميـرة أعادت إليّ بعضاً من اسـرار الحب، وكنت قد تصورت إنني على خصام معه.. وإننا اصبحنا غريبين».

ثم يقرر أن يهدي لها نسـخة من مسرحيته براند، ويكتب في الإهداء: «الى صغيرتي، عسـى أن تعبّر حياتك كالقصيدة الكاملة عن الوفاق التام بين السعادة والواجب».

وتصـل له أخيـراً صورة فوتغرافية مـن اميلي فيكتب لهـا: «صورتك الجميلـة، السـاحرة بمـا تحمـل من شـبه غريب لـك، منحتنـي فرحة لا توصف، شـكراً لك.. ألف شكر من اعماق الفؤاد في عز الشتاء، أعدت لخيالي ذكرى تلك الأيام القليلة الساطعة من أيام صيف انقضى».

وحيـن بلغـه مرضها يكتب لها في السـادس عشـر من كانـون الثاني عام ١٨٩٠ رسـالة يقول فيهـا: «هل تصدقين انني حدسـت أمر مرضك بوضـوح! في خيالي رأيتك راقدة في الفراش، شـاحبة ومحمومة لكنك تملكين جمالاً لا يقاوم».

****

مساعد الصيدلي الذي تحول الى اشهر شخصية

هنريك إبسـن المولود في شـهر آذار من عام ١٨٢٨، كان الابن الأكبر



بين خمسة اطفال لأب يعمل في التجارة وأم من عائلة اكثر رجالها يعملون في البحر، وعندما بلغ السادسة من عمره أفلس والده واصبح وعنيداً وصعب المزاج، وأمه التي كان يضرب المثل بجمالها ذات يوم، وكانت تطمح أن تصبح ممثلة، اكتأبت بسبب تصرفات زوجها وراحت تختفي في غرفتها لتلعب بدمى الأطفال، كانت الأسرة غارقة في الديون وتعيش على أكل البطاطس والخبز، وعندما بلغ إبسن السابعة عشرة من عمره، أرسله والده ليعمل مساعداً لأحد الصيادلة، وهنا أيضاً رافقه الحظ السيئ، فقد افلس الصيدلي وأغلق دكانه، ولعل حياة إبسن اشبه بالملحمة عن العصامية والاعتماد على النفس، ففي سنة ١٨٥٠ دخل الجامعة، وبدأت محاولاته الأولى للكتابة، إلا أنها جميعاً كانت محاولات فاشلة، فمسرحيته الأولى «نورما» لم تجد مسرحاً تعرض عليه، وفشلت أولى أعماله التي قدمت على المسرح وكانت مأساة شعرية بعنوان «كاترين»، ولم يكن حظه أفضل مع ثاني أعماله المسرحية، ومسرحيته الثالثة فشلت فشلاً ذريعاً، واضطر أن يقدم مسرحيته الرابعة «السيدة انجاز» باسم كاتب آخر، ابتسم له الحظ عام ١٨٦٦ حين قدمت اولى اعماله الكبيرة «براند»، حيث ظهرت المسرحية في الوقت نفسه الذي نشر فيه كارل ماركس الجزء الأول من رأس المال.. كانت مسرحية براند هجوماً على المادية التقليدية، ودعوة الى اتباع الضمير الفردي في مواجهة نظم المجتمع، وربما يكون ذلك هو الموضوع الرئيس لكل أعماله، وقد أثارت «براند» عند نشرها جدلاً كبيراً وبدأ النظر الى إبسن كقائد للتمرد على المعتقدات التقليدية، ليس في بلاده النرويج فقط وإنما في معظم بلدان أوربا. وربما كانت حياة إبسن مثل حياة ابطال مسرحياته، حيث نجده وهو في الثامنة عشرة من عمره ويعيش فوق محل الصيدلي الذي يعمل عنده، يدخل في قصة حب عاصفة مع امرأة تعمل بائعة في أحد المحال، كانت تكبره بعشر سنوات، ويخبرنا كاتب سيرته أن هذه العلاقة تطورت فأنجبت المرأة «صوفي جنسداثر» ولداً وحصلت بعد ذلك على حكم من المجلس المحلي بأن يدفع لها إبسن نفقة حتى يبلغ ابنه «جاكوب» الرابعة عشرة، ويكتب إبسن



عـن تجربته تلك في يومياته: «كنت شـاباً أؤمن بمـا قاله افلاطون ذات يوم مـن أن الجمال متعة أبدية، إن الحب يمنح للوجود طعماً، إذن فعلى المرء أن يتمتـع اكثـر واكثـر بالحب. أي أن نحـب ونعيش في التـو واللحظة، ثم كتب بعد ذلك بسـنوات: «بالنسـبة إلي مازلت ابحث عن الحب، وانتهز ما اصادفه من جميلات لأعيش قصة عشق حقيقية».

حين شـارف إبسـن على «عتبات الكهولة» تنازعته قصص حب، كانت حكاية اميلي قد انتشرت برغم كتمانه، فقرر أن يوقف رسائله لها، وتسجل اميلـي في مفكرتها: «غيرته تجعلني أشـعر بالفخـر، كل كلامه معي مملوء بالأحاسيس والمشاعر القوية، اخبرني أنه يشعر في حياته أبداً بمتعة كتلك التـي يشـعر بها معـي، لم يعجب بأحد قـدر اعجابه بي» إلا أن إبسـن يخبر كاتب سـيرته إنه: «كان يشعر أن من الأفضل أن نبدو وكأننا غرباء». وتخبر اميلـي احـدى صديقاتها إن الكاتب الكبير عرض عليهـا امكانية طلاقه من زوجته، واستعداده للزواج منها.

ولأن عاش صراعاً بين حبّه لاميلي والتزامه الأخلاقي امام عائلته، نجده يكتب في احدى رسـائله: «من حق ضميري عليّ أن أقطع مراسـلاتي لك، أو فـي القليل الحدّ منها، عليك في الوقـت الحاضر أن تخفضي اهتمامك بـي الى أدنى الدرجات. أمامك اشـياء أخرى تشـغلين بهـا وقتك، وأنت بعد شـابة» وترسله رساله عتاب تقول فيها: «لماذا تريد أن تهرب بعيداً، بعد أن جعلتني اتعلق بأذيالك»، فيرسـل لها رسـالة رجاء: «أرجوك في الوقـت الحاضـر لا تواصلـي الكتابة، حيـن تتغير الظروف، سـأخبرك، أرسل لك قريباً مسرحيتي الجديدة، أقبليها في عطف وصمت».

وتمضي السـنوات على هذا الغرام، الذي اكتفى فيه إبسـن بالرسائل ولقاءات بين الحين والآخر، فيما تؤكد اميلي إنهما عاشـا حباً افلاطونياً حتى انهما لم يتبادلا القبلات.

ويضع أبسن تعريفاً لهذا الحب على لسان جينا اكدال، بطلة مسرحيته الشـهيرة البطـة البرية: «الحب هو حب الجمـال، ولا يمكن قصره على الحب الجسـدي». وبمرور الزمن تفقد رسـائله لأميلـي توهجها، ونراه



يشعر من جديد بالحرمان العاطفي، وفجاة ترسل له رسالة شوق بمناسبة عيد ميلاده السبعين، فيعود لسابق عهده بالحب وانشغاله فيه فيكتب لها: «ياعذب الكل، يا آنستي الحبيبة الغالية، اقبلي اعمق الشكر على رسالتك، ذلك الصيف الذي شاهدتك فيه لأول مرة، كان أسعد ما في حياتي».

بعد ذلك بعام يقدم مسرحيته الشهيرة «حين نبعث نحن الموتى»- صدرت بالعربية في سلسلة المسرح العالمي بترجمة محمد سامي احمد» - ويكتب في الإهداء: «الى تلك الفتاة التي أعادت لي أسعد وأجمل ما في حياتي» وكان يقصد أميلي، وفي المسرحية نحن امام نحات «روبك» يصنع تمثالاً رائعاً لامرأة فائقة الجمال اسماه «يوم البعث» وعندما ينتهي منه ينفض يديه بقسوة وأنانية من المرأة التي وقفت أمامه عارية، كنموذج وعرضت أمامه كل أسرار جسدها وروحها أيضاً، واقامت معه نوعاً من الحب الروحي، فقد كان التمثال ثمرة فنّه وجمال الموديل، لكن النحات الأناني أدار ظهره لكل هذا ومضى يحاول أن يستمد الإلهام من موديل جديد، وتمضي السنوات الطويلة بين الفنان وموديله، ثم يلتقيا آخر الأمر، فيكتشف الفنان فجأة أنّه كان ميتاً طوال السنوات الماضية، وإنه قد بعث من جديد.

روبك: لاشك أن حبنا لم يمت يا أيرين

أيرين: إن الحب يتصل بالحياة الأرضية الغامضة، هذا الحب قد مات في قلبينا

روبك: «بانفعال» ولكن أتعرفين إن هذا الحب بالذات، مازال يحرق ويغلي في احشائي كما لم يكن يغلي من قبل

أيرين: وانا نسيت من اكون

روبك: كوني من تكونين أو ما تكونين، فلن اهتم بذلك، فلست عندي إلا تلك المرأة التي أراها عندما أحلم بك

أيرين: وقد وقفت على منصة النماذج بعدك، واظهرت نفسي لمئات الرجال من بعدك



روبك: مازالت امامنا فسحة من العمر لنحيا حياتنا يا أيرين

ايرين: لقد ماتت فيّ الرغبة، فها وقد بعثت وبحثت عنك حتى وجدتك، وإذا ذاك رأيت إنك أنت والحياة كلاكما ميتان.

روبـك: لكن هذه هي الحياة فينا ومـن حولنا تختلج وتضطرب كما لو لم تكن من قبل !

أيرين: المرأة الشـابة فـي تمثالك «يوم البعث» تسـتطيع أن ترى الحياة كلها ترقد على قاعدتها.

ويختتم إبسـن مسـرحيته حين يصرخ روبك: ذلك الصيف كان أسـعد وأجمل ما في حياتي، مرة أخرى من يدري هل سأعيش صيفاً جديداً.

****

قصص حب في آخر العمر

لـم تكـن أميلـي الفتـاة الوحيـدة التـي أحبها إبسـن، ففي مراسـلاته نجـد هيلين، ولـورا كلير وثالثـة اسـمها روز، أما هيلين فكانـت فتاة في الخامسـة والعشـرين من عمرها من مدينة ميونخ، علـى درجة كبيرة من الثقافة وتعشـق المسرح، وسمحت له أن يقبلها، وعندما سألته ماذا يرى فيها، أجاب: «الطفولة، الشـباب مجسـداً، وأنا احتـاج لذلك في كتاباتي» وتكتب هيلين أن حاجة إبسن الى الفتيات الشابات لم تكن تنطوي على نوع من الخداع أو الغش، كانت كلها نابعة من احتياجاته ككاتب، ولهذا نجد النسـاء اللواتي تعرف عليهن يتحولـن الى بطلات من لحم ودم في مسـرحياته، نساء حقيقيات بمشاعر يتمنى أن يعيشـها، وفيما كانت لورا كريل، الشـابة التي تعلق بها إبسـن عندما كان في السادسـة والخمسـين مـن عمره، كانـت امراة متزوجة فـي الثلاثين من عمرهـا، خاضعة تماماً لنفـوذ زوجهـا، وتنفذ كل ما يطلبـه منها، عندما تعرف عليها إبسـن، قال لأحد مقرّبيه: «إنها تملك عينين ساحرتين، حزينتين»، كانت قد خرجت تـواً من مصحّة نفسـية دفعها إليها زوجها الذي كان يتهمها بأنها تسـرقه،



وجد فيها إبسن نموذجاً للمراة المضطهدة، وما تعانيه من ظلم، وعندما تقرب منها اكثر أحبها جداً، حتى أنه قرر أن يساعدها في محنتها، وتكفل بأن يكون مسؤولاً عنها، يلبي كل رغباتها: «الآن وجدت المرأة التي سأكرس نفسي لها، إنسانة رقيقة، إلا أن الزمن غدر بها كثيراً».. ولان المسرح هو شاغله نجده يستخدم شخصية لورا في مسرحيته الشهيرة «بيت الدمية» من خلال بطلة المسرحية «نورا»، ولم يكن من الصعب على الذين يعرفون لورا أن يكتشفوا أنها هي بطلة المسرحية الشهيرة، وقد طلبت لورا من إبسن أن يعلن أن «نورا» في بيت الدمية ليست هي، فيكتب لها: «لا استطيع أن افهم ماذا يدور في عقلك، إن إعلاناً من جانبي كالذي تقترحينه، اقول فيه إنك لست نورا، سيكون بلا معنى وضرباً من العبث، حيث انني لم أقل ابداً إنها أنتِ».

تزوج إبسن عام ١٨٥٨، من سوزانا توريسين، كان في الثلاثين من عمره، وعاشت معه حياة مليئة بالتقلبات، ولهذا كانت اشبه بالشريكة له، فقد استطاعت أن تدير دفة حياتهما ببراعة رغم معرفتها أن زوجها يقيم علاقات بين الحين والآخر، فهي كانت ترى أن زوجها كاتباً انطوائياً، ويحتاج الى فترات من الراحة النفسية.

****

اكتشاف كيركجارد

اكتشف أبسن معنىً جديداً للحب من خلال اهتمامه بقراءة كتب الفيلسوف الدانماركي كيركجارد، والتي كان إبسن معجباً بها بشغف، وقد اعترف إبسن في مقدمة مسرحيته «كوميديا الحب» بأنه استطاع من خلال فلسفة كيركجارد، أن يتغلب على التناقض بين متطلبات الحياة العملية والعائلية، وموهبة الكاتب التي تفرض عليه أن يعيش أنواعاً أخرى من الحب. وكان إبسن يعتقد أن الحب رسالة بالنسبة لكل من الرجل والمرأة، ولكن هو بالنسبة للنساء الرسالة الوحيدة، لكنه



فـي مسـرحياته يقدم لنا نماذج لنسـاء لا يتزوجن ولا يجدن السـعادة إلا بالحـب، وأن يهبـن حياتهـن لمهمة عظيمـة، فنجد بنات سـتوكمان في مسـرحية «عدو الشعب» يسـعين بأداء مهمة من اجل مجتمع افضل، أما النساء اللواتي يقررن الزواج، فإنهن لا ينشغلن بشيء سوى بمنازلهن.

يقـول إبسـن، إن الرجـل لايمكـن أن يخطئ فـي اختيار المـرأة التي يحبهـا، كمـا أن المـرأة تقودها أقدارهـا دوماً فـي اختيار رجـل حياتها: «كائنـان ينجذبان كل منهما للآخر ويشـعران بواجبهما إزاء تسـخير كل شـيء لتحقيق ارتباطهما». إن قبول زواج العقل والمصلحة والاستسلام للاعتبـارات العائليـة، يعد خيانة عند إبسـن، وهو يديـن مجتمع الرجال الذي يعامل المرأة على أنها قاصر دائماً ولا تصلح سـوى لتزيين البيت، وهو يعتبر الزواج تنظيماً غامضاً علينا أن نلامسه.

قصـة الحـب الأخيـرة في حياة إبسـن كانت مـع هيلدور، ابنـة عائلة يعرفهـا منـذ سـنوات طويلـة، كانـت الفتـاة قـد عـادت من رحلـة على الدراجـات حين التقـى بها الكاتب الكبير لأول مرة، وقـد تلا هذا اللقاء لقـاءات كثيـرة، وتبـادل معها رسـائل غرام مشـحونة بالعواطـف، ونراه يكتب لها وهو يهديها باقة زهور حمراء: «هذه تسـع وردات حمراء لك، وتسـع وردات أخـرى لـي، خذي الورود آياتـاً للعرفان على مـا امضيناه معـاً من أوقات سـعيدة». وكان قد قدّم لها في مناسـبة أخـرى خاتماً من المـاس محفـور عليه تاريـخ ١٩ ايلول، وهو ذكرى لقائهمـا الأول، كما أهداها مخطوطة مسرحيته الشـهيرة «سيد البنائين»، ورغم شدة العاطفة التي كان إبسن يحسّ بها نحو هيلدور التي فاقت كل قصص الحب التي عاشها، إلا أنه في النهاية نظر اليها على أنها مصدر إلهام، ومجددة لحياته وفنّه، ومن خلالها سيسـتطيع أن يعيد الشـباب الى قلبه، ومثله مثل بطل مسرحية سيد البنائين -ترجمها الى العربية صلاح عبد الصبور- هالفارد سولنس، الذي يواجه اعصاراً نارياً يتمثل في شخص فتاة شابة في الثانية والعشـرين من عمرها اسـمها هيلدا، تحط فجأة على عش سيد البنائين، الرجل الكهل، فتثير فيه عاصفة تقتلع كلاً من سولنس وحياته المستقرة.



هيلـدا هذه شـابة جميلة تؤمن بالمسـتحيل، وهي تدفع سـولنس الى تحقيق ذلك المستحيل، فغايتها أن تجده يبني بناءً عظيماً، ونجد أن حبها لسـولنس هو حب مـن نوع غريب، فهـي لا تحبه لشـخصه، وإنما لأنها تسـتطيع من خلاله أن تحقق المسـتحيل، وسـولنس بـدوره يحب هيلدا الحب ذاته، فهو لايحبها لأنها هي الفتاة الجميلة الصغيرة، بل لأنها توقد النار في داخله، نار الرغبة في تحقيق المستحيل.

والمسـتحيل هـو: «قصـر فـي الهـواء، عالٍ..عـالٍ كأعلى مـا تكون الأشياء» ويسألها سولنس إن كانت ستسمح له بالصعود معها الى القمة، فتقول نعم ستسـمح، إذا سـمح المعلم لنفسـه بالصعود. ويقرر سولنس أن يفعل المسـتحيل، أن يصعد الى أعلى البرج الذي أقامه متحدياً خوفه وكهولتـه ونظرة المجتمع إليه، ليضع باقة من الزهور، غير أنه يسـقط من قمّة البرد ليتحطم جسـده، ونجده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة سعيداً، لأنه حقـق نصـراً روحياً كبيراً، لايهم بعدها ما يجري، ويكتب إبسـن في آخر رسـائله الى هيلدور قبل وفاته بأشـهر -توفي عام ١٩٠٦-: «يا أميرتي، لقد استطعت أن تقودي خطاي الى النصر الكبير».



-٢٥-

محاولة قهر الحب أسهل بكثير من محاولة قهر العلم

قال الطبيب الذي حضر وفاة إسحق نيوتن إن العالم الكبير أخبره وهو على فراش الموت، أنه على الرغم من انشغاله وكثرة اعبائه كان يحاول أن يجد تفسيراً علمياً لمعنى الحب، ففشل، مثلما فشل في أن يُقبل أي امرأة في حياته، ونجد صاحب النظرية النسبية البرت أينشتاين يكتب في دفتر يومياته: «لقد أدركت أخيراً معنى الحب، عندما انقطعت رسائلك عني طوال شهر كامل، فأنا أتوق إليك بشدة»، بعدها يكتب الى ميليفيا مارتيش: «كم كان جميلاً منك في تلك المرة الأخيرة إن سمحت لي بأن اضمك الى صدري بتلك الطريقة العفوية».

الى جانب نيوتن وأينشتاين كانت هناك ملايين الاجابات عن سؤال ما الحب ؟، ولعل أشهرها ما قدمه لنا شاعر اغريقي ولد سنة ٤٣ قبل الميلاد ، وعاش اثنين وستين عاماً، كانت مليئة بالمتعة وبالحب، اسمه بيبلوس اوفيديوس نازو، لكن العالم يعرفه باسم أوفيد، ويصفه لنا معاصره الفيلسوف سنيكا بالقول: «أنت أمام رجل رقيق، أزرق العينين، ممتلئ بالوسامة لدرجة إن النساء يتهافتن عليه».

إلا أن هذا الوسيم صاحب الشعر الأشقر والعينين الزرقاوتين والذي أعده أبوه ليشغل إحدى الوظائف الادارية في الدولة، يختار الشعر، مثلما يختار من نساء روما فتاة واحدة يعشقها، ويشاء القدر أن تكون هذه الفتاة الجميلة «آرلان» حفيدة الامبراطور أوغسطيس، وكان قد إلتقاها في إحدى الاحتفالات التي يقيمها الامبراطور، فقرر أن يرتبط بها، وأن



يتزوجها بالسر، لأنه يدرك إن الامبراطور لن يقبل أن يتزوج شاعر بإحدى حفيداته، وحين علم أوغسطيس إن حفيدته تزوجت سراً بأوفيد قرر أن ينفيه الى بلاد البرابرة، كما أمر أن تنفى حفيدته الى مصر.

وفي منفاه يكتب أوفيد واحداً من أهم كتبه أسماه «فن الهوى» يهديه الى محبوبته آرلان. وفيه يسجل كل فلسفته في الحب، فهو يرى ان العاشق المثالي ليس بالصبي الحالم ولا بالذي يسمح لنفسه أن تفقد إتزانها في حضرة المحبوب.، والكتاب يضم ثلاثة كتب، في أولها يشرح كيف يستطيع العاشق الاستيلاء على قلب محبوبته، وفي الثاني يعلمه كيف يحتفظ بهذا الحب الى أطول مدة ممكنة، والكتاب الثالث مخصص للمرأة وبه يقدم لها نصائح في كيفية المحافظة على حب الرجل.

و «فن الهوى» كتب على شكل قصيدة طويلة تميزت بالوضوح وحب الدعابة، وفي افتتاحية الكتاب يصف لنا كوبيد آله الحب بـ «الصبي الغض» ثم ينتقل ليشبه الحب بالحرب، وان مركبته لاتعدو حدود هذا الميدان الممتع: بأهازيج النصر أشدُ يافتى.

ثم اصدح مهلّلا أنّى مضيت.

فها هي ذي من كنتُ أطاردها تقع فريسة في الشراك.

وليتّوج بإكليل الغار جبيني من سَعِدَ في عشقه

وليرفعني فوق مرتبة هيسود شاعر أسكرا،

وهوميروس الضرير حكيم مايونيا العجوز.

ويحاول أوفيد يأخذ دور المعلم وهو يلقي على تلامذته دروساً في العشق، ويضع لهم وصفات مفيدة تناسب الجميع، سواء كان العاشق مستجدًا أو متراخيًا أو متردداً، ويقدم لقرائه الخطط التي تجعلهم يكسبون قلب حبيباتهم: «عليكم بفنون القول الرفيعة، لا تقصروها على موكليكم المتوجسين فى ساحات القضاء، فليست المرأة أقلّ استسلاماً لسحر البلاغة، من القاضي الجاد أو الشيوخ المنتخبين أو جموع المستمعين».

وينظر أوفيد الى الحب على إنه فن، مثل كل الفنون الاخرى، بل



يذهب صاحب كتاب «فن الهوى» الى تشبيه الحب مثل فن زراعة الأرض، فالفلاح البارع هو الذي يعرف أن هناك وقتاً لحرث الأرض، ووقتاً معيناً لوضع البذور، ووقتاً للحصاد، والذي يريد أن يجني ثمار زرعه عليه أن يراعي هذه القواعد.

****

مغامرات علمية في الحب

كان في التاسعة عشرة من عمره حين أخبر والدته انه ينوي الزواج من حبيبته «ميليفيا مارتيش» ويذكر أينشتاين أن أمه: «ألقت بنفسها على السرير، ودفنت رأسها في الوسادة، وأخذت تبكي كالاطفال، فهي لم تتوقع يوماً أن ابنها سيختار فتاة يمضي حياته الباقية معها».

وقبل أن يكمل حديثه كان والده يخبره إنه اختار المرأة غير المناسبة، فقد كانت ميليفيا تكبره بثلاث سنوات وقال له: «عندما تصل الى الثلاثين، ستكون هي عجوز شمطاء».

وكان تبرير اهله إن الزواج في هذا السن ترف لايتحمله فتى بعمره، لايستطيع أن يوفر معيشة مريحة له.

وكتب اينشتاين رسالة الى ميليفيا يشكو فيها ما يتعرض له من ضغوط من قبل والديه: «كثيرا ما تبكي أمي بمرارة، ولا أنعم بلحظة واحدة من السلام، إن والديّ يبكيان من أجلي كما لو كنت قد فارقت الحياة، ويشكوان مرة تلو المرة من انني جلبت البلاء على نفسي بحبي لك».

ويبدو أن هذه الضغوط العائلية أذكت عواطف أينشتاين المتمردة وزادت من تعلقه بالفتاة «الطائشة» كما كانت تدعوها أمه وكتب إليها: «الآن فقط أدرك كم أحبك بجنون».

ويكتب والتر إيزاكسون في كتابه سيرة أينشتاين: «إن عائلته كانت تلحظ عليه ولعه بالنساء، وضعفه أمام عبارات الحب، وبعد وفاته اكتشف الباحثون إن اينشتناين يحتفظ في صندوق أحذيته بمجموعة من



الرسـائل الغرامية التي كانت ميليفيا ترسـلها اليه وعليها تعليقات شديدة الحساسية».

ففـي رسـالة تشـكو إليه عـذاب الفـراق يعلـق أينشـتاين : «كلانا من الشـياطين الفقيـرة، المكبّلـة بأغلال الواجبـات. لا أسـتطيع أن أعبّر بما يكفـي عـن مدى رغبتـي في أن أكـون معك. لكـن إذا استسـلمنا لحبنا، فالنتيجة لن تكون جيدة. أنت تعرفين هذا جيدًا».

ويكتب على ظهر احدى رسـائل حبيبته: «أنا أحبك وسأكون سعيدًا إذا سـمحت لي برؤيتك والسـير إلى جانبك فقط حتـى ولو لحظات، أو إذا ما كان بإمكاني أن أكون قريبًا منك».

لـم تكـن ميليفيا الحب الاول في حياة أينشـتاين، فقـد تعلق وهو في السادسـة عشـر مـن عمـره، بابنة مـدرس التاريخ، اسـمها مـاري ونتيلر والغريب إنها ايضا كانت تكبره بثلاثة أعوام، وكانت أول رسـالة يرسلها لها داخل في رواية «العقل والعاطفة» لجين أوسـتن، والتي كانت ماري مغرمـة بهـا وفـي الرسـالة يكتب لهـا ردا على خطـاب حب تلقـاه منها: «ياملاكي الصغير أدرك الآن مدى ما أكابده من لوعة الشـوق إليك، إنني أدرك الآن فقط كم إنك ياشمسي الصغيرة غالية، أنا عاجز عن الاستغناء عنك من اجل سـعادتي..أنتِ أهم لروحي من كل العالم الذي عرفته من قبلك».

ونجـد ماري تكتـب له بعد أيـام قائلة: «إنهـا تعد الدقائق فـي انتظار رجوعـه إليها».ويبدو إن هذا الحب لم يسـتمر طويـلاً فقد قررت ماري السـفر الـى بلدة اخـرى للعمل فـي إحدى المدارس، وبسـبب انشـغاله بالدراسـة توقف اينشتاين عن إرسـال خطابات الغرام لها، إلا إنه يعترف لكاتب سـيرته أن خيال ماري لم يفارقه طوال عمره: «إنني معظم الوقت أشعر بالطمأنية الكاملة في قلعة هدوئي الحصينة، ولكنني سوف أصاب بالجنون بكل تأكيد لو أن طيف ماري غاب عني كثيراً».

ويبدو أن ماري شعرت بأن أينشتاين يبتعد عنها، كان آنذاك قد تعرّف على ميليفيا، مما دفع ماري الى الزواج من مدير أحد المصانع، وانجبت



منه ولدين، ويبدو انها لم تستطع أن تنسى حبها لأينشتاين، فانتهت حياتها مريضة في إحدى المصحات النفسية.

كانت ميليفيا هي الحب الثاني، متفوقة في دراسة الرياضيات، تؤمن بان أينشتاين يملك قدرات خارقة، وعندما قام زملاء لها بانتقاد كتابات إينشتاين العلمية الغربية ردت عليهم بقولها: «لكنه سيتمكن ذات يوم من إدهاش العالم».

وقد استغرب زملاؤه في الجامعة كيف أن شابا وسيما مثله يغرم بفتاة أكبر منه وفي مشيتها شيء من العرج، وكان يقول لهم : «إنها تملك صوتاً حبيبا الى النفس»، وفي تلك الفترة كتب عدداً من أشعار الحب، أهداها الى ميليفيا مع عبارة: «في مقدوري التفكير بأشياء كثيرة من بينها طبع قبلة على فمك الصغير».

****

البحث عن امراة

تنبأ أينشتاين في رسالة الى أمه وهو شاب، إن العلم سيكون ملاذه من العواطف الشخصية، وعندما قرر الارتباط بميليفا ذكرته أمه بتلك الرسالة فاخبرها إن محاولة قهره للحب أسهل بكثير من محاولة قهره للعلم، كان عمله في نظريته النسبية يأخذ معظم وقته، لكنه يشير بين الحين والآخر الى أن حياته العاطفية تزدهر باستمرار، ويكتب في يومياته: «أحيانا أجد نفسي في منطقة مختلفة تماما..وجدت نفسي مليئا بمشاعر جميلة ولدي رغبة للعثور على فلسفة ما، تجعل حياة الإنسان سعيدة» وكانت الفلسفة التي عثر عليها أينشتاين نسخة من كتاب فن الهوى للروماني أوفيد: «كنت أتصفح الكتب المستعملة عصر أحد الأيام في أحد مخازن بيع الكتب، ولمحت العنوان، انذاك كنت مهتما بقراءة كل ما يتعلق بالمعلم نيوتن، لكني وجدت في كتاب فن الهوى لأوفيد، محطة للاستراحة» كان من الصعب على أينشتاين صاحب الماكنة المنطقية في



عقله كما كان يسميه زملائه أن يتفرغ لقراءة كتب عن العشق لكنه فعل، فهو يريد اكتشاف الشعر والفنون، حتى إنه فكر أن يتوقف عن التجارب العلمية ليتفرغ لكتابة الشعر، ونراه يكتب في يومياته: «هناك عواطف عند الانسان تكون مؤكدة بل لايستطيع انسان منطقي أن يشكك بها» ولهذا يقرر في السادس من كانون الثاني عام ١٩٠٣ ان يرتبط بمفيليا ورغم اعتراض والديه على الزواج، إلا ان الزواج يتم في برن، ليعيش أينشتاين وميليفيا في بيت متواضع للغاية، وفي هذا البيت شهد ولادة ابنه هانز عام ١٩٠٤ ونظريته النسبية عام ١٩٠٥، وفي هذا البيت كتب اينشتاين الى أمه: «أشعر بذروة السعادة عندما أكون الى جانب ميليفيا».

وبعد ان بدأ نجم أينشتاين يسطع في سماء العلم، نشرت الصحافة في زيورخ نبأ تعيينه أستاذاً في جامعتها، وتشاء الصدف أن تطالع امرأة متزوجة اسمها آنا مايلر شميد هذا الخبر وهي المرأة نفسها التي كان قد تعرف عليها عندما كانت فتاة وأهداها قصيدة غزل من تأليفه، فترسل إليه رسالة تهنئة بمناسبة تعيينه، وبعد أشهر يبعث لها أينشتاين برسالة يذكرها بلقائتهما القديمة وإنه مسرور جدا ببطاقة التهنئة، ثم اضاف في رسالته: «إنني أتمنى لك موفور الحظ، ويمكنني أن اتصور انك اصبحت الآن امرأة تجمع بين الامتياز والسعادة مثلما كنت فتاة محبوبة وسعيدة» وذكرها أينشتاين بالايام الساحرة التي انقضت، وكتبت اليه آنا رسالة تطلب فيها عنوانه، غير أن خطابها وقع بيد زوجته ميليفيا التي شَكت بوجود علاقة بين صاحبة الرسالة وزوجها، فارسلت الى زوج آنا خطاباً تخبره فيه برسالته، وشعر أينشتاين بالغضب، وقد سببت له هذه التجربة مرارة لم تنجح السنوات في ازالتها، فنراه يكتب لابنه الاكبر عن «العيب المرضي الذي كانت أمه مصابة به»، ويبدو أن ميليفيا طبقت سياسة الرقابة الدقيقة والمحكمة مع زوجها اينشتاين حتى لاتتكرر قصته.، الا أن حكايات غرامه لم تنته عند هذه القصة، فعندما حضر محاضرة لأحد اصدقائه من علماء النفس وبينما كان الصديق يشرح نظريته للحضور كان أينشتاين يركز بصره على فتاة جميلة مما أثار ضيق عالم النفس الذي



التفت الى اينشتاين ليقول له: «ياسيدي البروفيسور اذا كنت في حالة حب، فسوف نعتقد ان الحب أهم من نظريات الكمية» فيرد عليه اينشتاين: «لا ياسيدي ان نظرياتي الكمية ترتبط ارتباطا مباشراً بجمال المراة».

ويذهب كاتب سيرة أينشتاين والتر إيزاكسون الى ان جميع علاقات اينشتاين بالنساء لاتعدو ان تكون علاقات افلاطونية، ورغم معرفة زوجته بمغامراته العاطفية إلا انها حرصت على اظهاره بمظهر الزوج المخلص الوفي. فقد كتبت في احدى رسائلها ان: «رجلا في عبقرية زوجها لابد من ان يكون كامل الأوصاف».

****

معنى الحب

قبل وفاته بعشر سنوات تلقى اينشتاين كتاب من عالم النفس والفيلسوف الالماني إريك فروم، الكتاب بعنوان «فن الحب» وقد كتب في اهدائه لاينشتاين العبارة التالية: الى البروفيسور الذي كانت حياته العاطفية دافعا لي لأن اضع هذا الكتاب.

ويستهل فروم كتابه بهذه العبارة لأوفيد

«من لايعرف..لايحب»، ويحاول فروم ان يجيب على سؤال هل الحب علم ؟

فالناس محاصرون بالحب من كل مكان، الكتب الافلام والموسيقى، كل شيء يتحدث عن الحب، ولكن لا احد يريد ان يجد تفسيرا لهذا الحب.

وكل الناس يعتقدون ان النجاح في الحياة هو النجاح في الحب.

ولد إريك فروم بمدينة فرانكفورت في ٢٣ اذار ١٩٠٠، وكان وحيد والديه اللذين أرادا منه أن يكون رجل دين، درس القانون. ودرس أيضاً الفلسفة ليحصّل على درجة الدكتوراه في الفلسفة، ثمّ انصرف إلى التحليل النفسي برفقة أستاذته المحللة النفسيّة الألمانيّة الشهيرة فريدا



رايخمان التي اصبحت زوجته سـنة ١٩٢٩ ، لم تكن حياته مسـتقرّة، فقد تـزوّج مرّات عدّة، اعترف لكاتب سـيرته قبل وفاتـه انه عاش قصة حب واحدة اثناء شـبابه، وانه حاول الاحتفاظ في قلبه بقطعة الحب هذه التي رآها ضرورية لمن يعمل في مجال علم النفس.

كان فـي العشـرين مـن عمره، خجـولاً وحساسـاً، يـدرس القانون ، ويقصـد معهـد للفلسـفة انـذاك تعرّف فـي عيد الميـلاد الى فتـاة دعاها للعشـاء قالت له. لا أحب تصرفات المراهقين، وفرح بأول قبله يحصل عليهـا من امراة، كان يتحـدث معها وهو يحمل روايـة آلام فارتر لغوته، في انتظار ان تساله الفتاة عن الكتاب، ما إذا كان يتحدث عن الحب.؟

كتب اليها رسـالة: «كنا مثل الاطفال وسنبقى كذلك أبداً». يرى فروم أن رد فعل الطفل، كان السـعي الى الحب دوما، في الخامسـة والاربعين من عمره اصدر كتابه «فن الحب»

يعتقد «فروم» أن مشـكلة الحب الأساسـية هي كيـف أُحَبّ بدلًا من كيـف أُحِبّ، وقدرة الشـخص على بـذل الحب، ومن هنا تنشـأ معضلة كيـف أحصل علـى الحـب، وكيف أصبـح محبوبًـا : «يعتقـد الناس إن القدرة على بذل الحب شـيء بسـيط، ولكن أن تجد الأدوات الصحيحة للحـب، وأن تجد من يبذل لك الحب، فهو شـيء صعب. هذا السـلوك له عدة أسـباب مرتبطة بتقدم المجتمع المعاصر، أحد هذه الأسـباب هو التغير الكبير الذي ظهر في القرن العشرين، فيما يتعلق بمعنى الحب».

ويخبرنا فروم ان الفكرة الراسخة لدينا عن معنى الحب أنه خليط من التجارب الأولى للوقوع في الحب، أو حالة دائمة من الوقوع في الحب، ويمكـن أن نطلـق عليه مصطلـح «الوقوف في انتظار الحـب»، ويحاول فروم ان يفند نظرية الروائي الفرنسـي سـتندال عـن الحب، يكتب اريك فروم في كتابه «فن الحب»، ان ستندال أراد في كتابه عن الحب، أنْ نحب من دون أنْ نعرف كيف نحب، إنه يقدم لنا عاطفة مُربكة إلى أقصى مدى من خلال رواياته التي دائماً ما تطرح الحب جانباً بوصفه شيئاً يحدث لنا بتأثير سلبي ومُصادفة، شيئاً نقع في شباكه، يُصيبنا كسهم، وليس ممارسة



بارعة نُنَميها بمهارة دقيقة كأية حرفة تتطلب تفوقاً إنسانياً. لعل فشلنا في الاعتراف بجانب البراعة هذا هو السبب الرئيس في أنَّ الحب يمتزج بالإحباط.

ويضيف فروم ان ستندال يريد أنْ يُبيِّن أنَّ الحب ليس عاطفة يمكن لأي إنسان أنْ ينغمس فيها، بغض النظر عن مستوى النضج لديه، إنه يريد أنْ يُقنع قراء رواياته بأنَّ كل محاولاته لنيل الحب مصيرها الفشل، إلا إذا حاول بكل حماس أنْ يُطوّر شخصيته كلها، وذلك لكي يُحقق توجّهاً مُثمراً، وأنَّ الإشباع في الحب الفردي لا يمكن بلوغه إلا بالقدرة على الحب بمذلّة حقيقية، وشجاعة، وإيمان وانضباط.

ويرى «فروم» إن الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها هي إدراك أن الحب ما هو إلا فن، تمامًا كما الحياة، فإذا أردنا أن نتعلم كيف نحب، فعلينا أن نتخذ نفس الخطوات التي يجب علينا اتخاذها إذا أردنا أن نتعلم أي نوع آخر من الفنون، اختر ما شيءت من الفنون: الموسيقى أو الرسم أو النجارة أو فن الطب أو الهندسة، ما هي الخطوات الأساسية لدراسة أي فن؟ ويكتب في كتابه فن الحب إن : «دراسة أي فن تنقسم بديهيًّا إلى قسمين، أحدهما الإلمام بالنواحي النظرية، والآخر إجادة الممارسة، فإذا أردت دراسة فن الطب، يجب عليَّ في البداية أن أُلم بالحقائق حول الجسم البشري، وما يتعلق بالفيروسات والأمراض، وبعد تحصيلي لكل هذه المعارف النظرية، لا يعني أنني أصبحت متخصصًا في فنون الطب، سأصبح ماهرًا في هذا الفن فقط بعد قدر كبير من الممارسة العملية، وفي النهاية يتم مزج تحصيلي النظري مع خبراتي العملية ليتبلور في شيء واحد».

ويضيف فروم: «أعتقد أن جوهر التمكن من أي فن بجانب الإلمام النظري والممارسة العملية، توافر عامل ثالث مهم لتتمكن من إتقان أي نوع من الفنون، وهو أن تمتلك الشغف والاهتمام البالغ بهذا الفن، وألا يكون لديك ما هو أهم من هذا الفن على وجه الأرض، وينطبق هذا على الموسيقى والطب والنجارة».



ويكشف لنا فروم في النهاية عن فشلنا في تعلم فن الحب: «أما بخصوص الحب، وربما يكمن هنا الجواب عن سبب ندرة من يسعون لدراسة هذا النوع من الفن، بالرغم من الفشل الواضح، وبالرغم من الشغف الشديد بالحب، يعتبر كل شيء تقريبًا مقدمًا في الأهمية عن الحب، فالنجاح والمستوى الاجتماعي والثروة والسلطة كلها مقدمة عن الحب، وغالبًا ما توجه كل طاقاتنا لنتعلم كيف نحقق هذه الأهداف، والتي ليس أحدها تعلم فن الحب».



-٢٦-

من رأسي حتّى القدمين إني مخلوقة للحب

كانت تتناول الطعام بصحبة المخرج جوزيف فون سترنبرغ، الذي قدّمت من خلاله أشهر أفلامها، وكانت تردّد كلما سألوها عنه: «عندما التقيت سترنبرغ في ألمانيا لم أكن شيئاً، لكنه صقل موهبتي فجعلني أعمل تحت إدارته وكرّس كل علمه وكل فنّه، وكل تجاربه وكل طاقته، ليجعل مني نجمة، لقد غيّرني كلياً». في تلك اللحظة تقدم منها رجل لم يتجاوز الأربعين من عمره ليقدم نفسه: «سيدتي، اتسمحين لي بتقديم نفسي، فأنا إيريك ماريا ريمارك».

كانت مارلين ديتريش تكره أن يدنو منها الغرباء، ودائماً ما تصد أناساً طفيليين يلهثون وراء نجمة شهيرة، لكن اسم ريماك ومظهره الساحر لفت نظرها.. تكتب في مذكراتها، تصف اللقاء الأول: «كدت أسقط عن مقعدي. هذا ما يحدث لي دائماً عندما التقي برجال شهيرين، مرموقين يتحدث العالم كله عنهم. أصاب دائماً بصدمة، إن هم وقفوا هناك شخصياً، بصورة مفاجئة أمامي».

مدّت له يدها وهي تنظر اليه بإعجاب، دعته الى الانضمام الى مائدتهم، وبعد لحظات استأذن سترنبرغ لانشغاله بالتصوير وتركهما لوحدهما.

بعد سنوات سيكتب ريماك في يومياته عن هذا اللقاء: «تحدثنا حتى الفجر، كانت ليلةً رائعةً. نظرت إليّ وهي تقول: عليّ أن اخبرك انني مزعجة جداً، نَظرت إليها للتخفيف عنها وانا اقول: إنه أمر رائع، انني



سعيد، فأنا أيضاً اصبح مزعجاً في الكثير من الأوقات، إذن يمكن أن نلتقي ثانية، فكل شيء ممكن».

بعدها بأيام وجدته يقف قبالتها، كانت تجلس على الشاطئ، تقرأ بكتاب حين اقترب منها وألقى نظرة على الكتاب. قال وهو يبتسم: «أرى أنك تحبين الشعر»، كان الكتاب ديوان «أزهار الشر» لبودلير.

نظرت إليه وكأنها أدركت أنه يريد أن يقول هل تقرأ نجمة سينمائية لشاعر منبوذ وكئيب؟ لم يدعها تتحدث، فقد بدا يتلو عليها إحدى قصائد بودلير:

شبابي لم يكن سوى زوبعة قاتمة
اخترقته هنا وهناك الشموس اللامعة
فقد عبث المطر والرعد ببستاني
فلم يبقيا فيه إلا القليل من الثمار الذهبية
وها إن أفكاري قد بلغت خريفها
ولا بد لي من استعمال الرفش والمسلفة
لأعيد تنظيم هذه المزارع التي غمرتها المياه
وحفرت فيها حفراً واسعة كالقبور
من يدري إذا كانت هذه الأزهار الجديدة
التي كنت بها أحلم
ستجد في التربة المغسولة كالرمل
الغذاء الرمزي الذي يبعث فيها النشاط.

****

آخر قصة حب

ريمارك المولود عام ١٨٩٨، كان آنذاك في ذروة مجده، اضطر لمغادرة ألمانيا، بسبب رسائل مجهولة تصله باستمرار تهدده بالموت،



الحزب النازي يواصل صعوده بقوة، ريمارك مقتنع تماماً بأن هتلر سوف يتسلّم مقاليد السلطة الآن أو بعد سنوات، وستكون ألمانيا مهدّدة، يقرر السفر الى سويسرا، ليصبح أول أديب منفيّ. يصحو ذات يوم من عام ١٩٣٣ على نشرات الاخبار تعلن تعيين أدولف هتلر بمنصب مستشار ألمانيا، وها هو عدوّه القديم غوبلز يؤدي اليمين وزيراً للدعاية. لايزال ريمارك يتذكر مقال غوبلز عنه، وطافت في ذهنه صور وزير دعاية هتلر عام ١٩٣٠، وهو يقود مع رفاقه في برلين الهجوم بالقنابل على دار السينما التي عرضت الفيلم المقتبس من رواية «كل شيء هادئ في الميدان الغربي»، الأمر الذي دفع بالرقابة الى منع عرض الفيلم، كان هذا اول انتصار لغوبلز، والآن جاء الانتصار الثاني، فقد صدر قرار بمنع الرواية، وحرق جميع النسخ الموجودة منها، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فلابد من قرار جديد بسحب الجنسية من الكاتب الذي باع وطنه للأجانب، هكذا صدر الأمر بإمضاء أدولف هتلر، يكتب في يومياته: «كانت صدمة بالنسبة لي أن أغادر المانيا التي احتجتها لمدة أربع سنوات لأكمل كتاب الرفاق الثلاثة. كنت بدون وطن، كحيوان لايملك شيئاً يأكله»، حاول في سنوات الغربة أن يخفي آلامه النفسية بالبحث عن علاقات حب جديدة، هذا ما تتذكره مارلين ديتريش التي كتبت في مذكراتها: «كان في أعلى درجات الحزن، حساساً سريع التأثر تلك الميزة في شخصيته، أثرت بي كثيراً. غالباً ما كانت لديّ فرصة للتخفيف عن يأسه».

عندما بدأت قصة الحب بين مارلين ديتريش وايريك ريمارك، أكد لها أنها ستكون «آخر قصة حب من قصصه»، كانت مارلين ديتريش، من جانبها عاشت قصصاً غرامية شهيرة، اضافة الى المخرج سترنبرغ، الذي كان جزءاً من أسرتها، كان هناك أيضاً جون غالبرت وغاري غرانت الذي ظلت تطارده حتى آخر يوم في حياته، وجون واين. وتتكرر العلاقات التي يصفها الشاعر آلن بوسكيه في كتابه «مارلين ديتريش: حب على الهاتف» ترجمه الى العربية محمد حنانيا، بأنها علاقات لتعويض سني



الحرمان التي عاشتها ديتريش في طفولتها ومراهقتها، فأسطورة التمثيل التي ولدت تحت اسم ماريا ماغدالينا ديتريش في برلين يوم ٢٧ كانون الأول ١٩٠١، لأب كان ضابطاً في الشرطة. لكن الأب سرعان ما مات إثر أزمة قلبية، وهي لا تزال طفلة، فتزوجت أمّها من ضابط في الجيش الألماني، سيموت لاحقاً على الجبهة أواخر أيام الحرب العالمية الأولى، فيما كانت الفتاة تكمل دراستها من دون أن تلفت نظر أحد، حقاً إذ كانت، كما ستقول لاحقاً في مذكراتها «نحيلة شاحبة وذات شعر طويل يضفي عليّ مسحة المرض».

في صباها الباكر، اهتمت بالقراءة وأرادت أن تدرس الموسيقى، لكنها لم تكن تملك المال الكافي كي تدفعه أجوراً للدراسة، فقررت الاتجاه للعمل في أحد المسارح: «الحاجة الى المال دفعتني الى ترك هوايتي الموسيقى، والاتجاه للعمل بأحد المسارح الصغيرة لأداء دور الكومبارس من اجل الحصول على مال لإعالة عائلتي، هناك اطلق عليّ اسم مارلين».

في العام ١٩٢٢ مثلت لأوّل مرة في السينما في دور صغير أمام النجم الألماني إيميل جاننغز، الذي لم تثر اهتمامه، وسنراه بعد سبع سنوات يرفض أن تشاركه البطولة في فيلم «الملاك الأزرق» وكانت حجته أن «ردفيها صغيران»، لكن إصرار فون سترندبرغ، جعل جاننغز يرضخ في النهاية، وفي مذكراتها تكتب ديتريش أن «أحداً لم يكن يسعى الى هذه الممثلة الجديدة، لحظة تصوير الفيلم، وإن أحداً لم يكن يعرفها كممثلة، وإنه كان عليها القيام باختبارات الاداء كغيرها»، كان الممثل جانبنغر هو من اقنع المنتج بالتعامل مع سترندبرغ الذي كان آنذاك قد وقع في غرام مارلين، فقرر أن يصنع منها أسطورة، وتتذكر مارلين، إنها ليلة الافتتاح كانت في طريقها الى الولايات المتحدة، لكنها علمت من خلال البرقيات التي تلقتها وهي على السفينة. أن نجاح الفيلم كان بسبب آدائها لشخصية، لولا، تلك الفتاة التي كانت تعرض ساقيها بالغتي التناسق والجمال وهي تغني:



إني من رأسي حتى القدمين
مخلوقة للحب
هناك هو عالمي.

وسترتبط مارلين بعلاقة حب مجنونة وعنيفة مع سترندبرغ الذي سيضعها في الصفوف الأولى من نجمات السينما، حيث راح يختار لها أدوارها بعناية المغنية تعشق الرجال في فيلم «مراكش»، جاسوسة في «اكسبرس شانغهاي» ثم «فينوس الشقراء» و«الأمبراطورة القرمزية» وصولاً الى فيلم «الشيطان امرأة». كل هذه الأفلام استطاعت أن ترسخ صورة مارلين ديتريش، صاحبة الصوت المبحوح والساقين الطويلتين والنظرة الحالمة والتي قال عنها ارنست همنغواي بعد ان عاش معها قصة حب قصيرة: «لو إن مارلين لم تمتلك سوى صوتها، لكان في وسعها أن تحطم قلبك به. لكنها كانت تمتلك أيضاً جسداً جميلاً، وحباً كبيراً في وجهها وتقف خارج كل زمن».

****

كل شيء هادئ

في إحدى قرى الجنوب الألماني، وفي صيف العام ١٨٩٨ استقبلت عائلة ماريا ريمارك مولودها الرابع، وكان هذه المرة ذكراً بعد ثلاث بنات، الأمر الذي دفع الجدّ أن يعلق آمالاً على حفيده، في أن يوصل تراث هذه العائلة المُحبة للمغامرة والرحلات. كان الجدّ قد طاف العالم كلّه، ضابطاً يعمل في البحرية الألمانية، لكن الأب لم يكن يحب المغامرات، فانتهى به الأمر أن يعمل مشرفاً على معمل للورق. لم تكن العائلة غنية، ولكنها كانت ميسورة الحال، قضت الأم حياتها على سرير المرض تشكو من مرض السل، وعلى امتداد فترة مرضها، كان على الابن الصغير أن لايقترب منها خشية أن تصيبه العدوى، مما دفع الأهل بأن يوكلون تربية الصبي الصغير الى جدّه المغامر، وبينما



كانـت الأم المريضـة تفكر بأبنها ومسـتقبله، كان الجد يحـاول أن يجعل مـن حفيده نسـخة ثانية منه، فيمـا الأب تمنى لأبنه وظيفة مسـتقرة، معلم مثـلاً، مهنـة تعني لـه الأمان والضمـان. كان كل شـيء ينبئ بـأن المصير الـذي أعدّته العائلة لابنها سـيتحقق لا محالـة، إلا أن القدر كان يخفي ما لم يتوقعه أحد، فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى، وكان على الشـاب الذي لم يكمل دراسة مهنة التعليم أن يلتحق بالجيش ليُرسل الى الجبهة. هنـاك يعيش تجربة مريرة جـداً، حيث يُجرح مرتين ويتخلص من الموت بأعجوبـة. وعندما تنتهي الحرب، ويعود الجنود الى أهاليهم، يعود إريك ماريا ريمارك شخصاً آخر، لايشغله سوى موضوع واحد: مصير الإنسان وكيـف يتخلـص من مأسـاة الحرب. إنهـا الفكرة الوحيدة التي تسـلطت عليـه، وحين يعود الى مدينته ليمارس مهنة التدريس كانت أول محاضرة له بعنوان: «كيف نعيش في مجتمع لا نسمع فيه صفارات الإنذار»، الأمر الذي جعل مدير المدرسة يستدعيه ليوجه له إنذاراً شديد اللهجة بأن يترك الحديث عن الحرب، وينشـغل بتدريس المادة المقررة. وبما إنه لم يكن سعيداً بهذه المهنة، فقد قرر أن يعمل في محل صديق له يبيع رخام القبور وتماثيـل تذكارية للحرب، مهنة رتيبـة، لكنه تغلب عليها بالتفرغ للقراءة، فقضى أوقاتاً ممتعة مع دستويفسكي وجيمس جويس وشكسبير، والتهم الإليـاذه حتى إنه كان يحفظ منها مقاطع طويلة، وانغمس في قراءة اعمال توماس مان، وكانت عائلة بودنبروك تسحره، فكتب عنها مقالاً أرسله الى إحدى الصحف التي لم تنشره، فقرر أن يرسله بنفسه على عنوان توماس مـان وكتـب على المظروف: «الـى أبينا في المعرفة، هـذه الصفحات في تمجيد اعضاء عائلتك المقدسـة اتمنى أن تطلع عليها»، ولم يصدق حين سـلمه سـاعي البريد بعد اسـابيع مظروفاً كتب على غلافـه بخط توماس مان: «الى السيد اريك ماريا ريمارك مع المودة».

كانـت رسـالة مان دافعاً لـه لأن يقرر التفرغ للكتابة، بدأ يرسـل بعض كتاباته إلى الصحف والمجلات. صار يشـعر بالملل من مهنة بيع شواهد القبـور، فيقرر السـفر الى برلين، وهناك يجد عمـلاً في صحيفة «الرياضة



المصورة»، كل ما مطلوب منه هو أن يكتب تقارير عن ما يجري في حلبات الملاكمـة، التي وجد فيها وجهاً «قذراً» آخـر من وجوه الحرب الكريهة، لكـن لا مفر، عليـه أن يكتب ويحرر. وقد تعلق بمهنـة الصحافة لأنه كان مقتنعـاً أن حياتـه لا معنى لها من دون الورق، ورغم أن مهنة الصحافة في المانيا التي تعاني من أزمة اقتصادية خانقة، لم تكن تضمن له حياة مرفّهة مثلمـا كان يتمنـى، لكنـه هنا فـي برلين ذاق طعمـاً مختلفـاً للحياة. كتب روايته الاولى «كل شيء هادئ في الميدان الغربي» «العنوان كما جاء في الترجمة العربية التي قامت بها دار الهلال بترجمة محمود مسعود» حاول أن يبعث بمخطوطتها الى إحدى دور النشـر، لكن مصاريف البريد كانت عائقاً أمام طموحاته.

****

ليس لدى أحد سوى نفسي

لم يكن هناك شـخصان يعانيان من الأسـى والوحدة، ليرى كل واحد منهما أن حكايته اكثر بؤساً، اكثر من ريمارك ومارلين في اللحظة الأولى التي التقيا فيها. قالت لريمارك وهي تندب حظها: «ليس لدى أحد سـوى نفسي، التي يمكن أن تسدي إلي النصح. لا استطيع ان اطلب النصح من أحد».

كانت آنـذاك تعيش لحظة حرجة في حياتهـا فيلمها الجديد «الفارس بـدون درع» احتـل مرتبة متأخرة في شـباك التذاكر، وكانـت آنذاك تنتظر رجـلاً جديـداً يدخـل حياتها، فقصة حبها التي اسـتمرت سـت سـنوات مع سـترندبرغ وصلت الى طريق مسـدودة. كتب سـترندبرغ رسالة إليها ليخبرهـا: «يبـدو أن حكايتنـا قد اسـتنفدت مداها» في ذلـك الوقت كان ريمارك على خلاف مع زوجته غوتا، ونجده يكتب في مذكراته: «لسـت سـعيداً، ولسـت حزيناً، تتقاطع الذاكرة مع الحاضر. استطيع أن اكتب لو ملكت نفسي».



كانت غوتا إلس انغيبورغ ممثلة وراقصة، ونموذجاً من الأنوثة بالنسبة الى ريمارك، تقابلا في برلين، كانت اطول قليلاً من ريمارك، شقراء نحيلة، لها قامة وبنية تصلح كعارضة أزياء، يصفها ريمارك بأنها: «رقيقة، لكن بملامح هشّة واحساس داخلي بالغيرة من كل النساء».

****

زمن الحب

رواية ريمارك الجديدة التي أثار بها اسئلة عن المصير الإنساني والحرب والحب، وضع لها عنواناً «للحب وقت وللموت وقت»، حيث نجد بطل الرواية ايرنست غريبر، نشأ منذ صباه على العقيدة النازية، جندياً شاباً على الحدود الروسية، وهو مصاب بوهم متفاقم بفعل الأعمال الفظيعة التي شهدها، لكنه موزّع بين الواجب والضمير.

عاد من إجازة الى مدينته ليجدها مدمّرة، وبيته تحوّل الى أطلال، ووالديه مفقودين، وفي محاولة منه للبحث عنهما، يلتقي بمعلّمه القديم البروفيسور بولمان، الذي طرد من عمله بسبب مواقفه من الحرب، ويقول ارنست لمعلمه: «أود أن أعرف إلى أيّ حد انا متورط في جرائم الحرب، كما أود أن اعرف ما عليَّ أن أفعله». وفي هذه الأثناء يعثر على صديق طفولته الذي أرسل والده الى معسكر الاعتقال، بعدها يعود الى الجبهة ويطلب منه أن يطلق النار على عدد من الأسرى الروس، كان الضابط الألماني الذي طلب منه تنفيذ الأمر مصرّاً على أن يقوم ارتست بالمهمة، لكنه يرفض فيطلق النار على الضابط ويطلق سراح الأسرى الروس، وبينما كان الأسرى يهربون غير مصدّقين، أستل أحد الروس بندقية كان يخفيها وأطلق النار عليه وقتله.

كان ريمارك يتفاوض مع الناشرين حول روايته الجديدة ويعيش قصة حب عاصفة مع مارلين ديتريش التي طلبت منه الزواج، لكنه كان يتردد، ويشعر إنه إزاء امرأة تملك عواطف غاضبة، فهو كان على



الرغم من شـهرته، يـرى في تصرفات مارلين وعلاقاتهـا أمراً غريباً، فهو مـن بيئة محافظة، وبرغم شـهرته إلا أن تربيته ونشـأته أقـرب الى الرجل العادي منه الى أولئك الذين يبحثون عن علاقات عابرة، ولهذا اصبحت مداعبة مارلين للرجال وعبثها وسـهراتها تشـكّل عذاباً لـه، وتثير غيرته.
وفـي مذكراتها نجد ديتريش تتحدث عن صفـات ريمارك، الرجل الذي لايحـب النزوات كثيراً، ويعشـق عملـه، ويفضل الهـدوء والخلوة على أجواء الصخب والحفلات، ولهذا نجده يحاول أحياناً الهرب من اجواء مارليـن باسـتغراقه في العمل، متحاشـياً أجواء شـاطئ البحر، وحفلات الشراب الصاخبة.

وتكتـب مارليـن: «عندما يختفي بضعـة أيام أقلق عليـه، فأبحث عنه في كل الأماكن خشـية أن يكون قد اعتقل أو رحل الى ألمانيا، إنه كاتب حسّاس، ورقيق جداً، لايعرف الكذب».

ذات يوم قالت له، إنها ترغب بأن تلبس خاتم زواج يشتريه لها، حتى وإن كان قد قرر أن لا يتزوجها.

قـال لها وهو يبتسـم: «انصحك أن تتزوجي ممثلاً مشـهوراً، فأنا اقل شهرة منك، واخشى أن يكون زواجي منك لاستغلال اسمك».

صاحت فيه غاضبة:

- انت كاتب كبير ويمكن أن ترشدني الى الطريق الصحيح
- ولكنك ستزهقين مني ذات يوم

ردت بغضـب: صحيح إنك كاتب كبير.. لكنك تجاه النسـاء تتحول إلى رجل غبي دائماً.

كانـت مارلين ديتريش، تعتقد انها بحاجة الى رجل قوي الشـخصية، مثـل ريمارك، إلا إنها تشـعر أن مجدهـا كامرأة وممثلة، يحتـاج منها أن تعيـش الحياة بكل التفاصيل، وإن غيرة الرجـال يمكن أن تقف عثرة في طريقهـا. فيمـا ريمـارك من جانبه يؤمـن أن الحياة تتطلـب اكثر من حب امرأة، انها نضال في سـبيل الخلاص من الظلـم والعتمة والحروب، في



روايتـه «للحـب وقت وللموت وقت» يؤكد ريمـارك، إن الحب هو قدر الانسان، بشرط أن لايتورط كثيراً في الحروب، قرر هتلر أن يحرق كتب ريمـارك في سـاحة عامّة، مثلما قرر أن يرسـل وفداً الـى مارلين ديتريش يقنعهـا في العـودة الى وطنهـا ألمانيا وسـتكون النجمـة الأولى، وحين ترفض يصدر قراراً بمنع أفلامها، فتقرر أن تقف بقوة ضد النازيين، وكان ذلـك خلال تنقلها بين باريس وهوليوود، لتقوم بجولات فنية الغاية منها رفع معنويات جيوش الحلفاء كما سجلت نصوصاً دعائية بالألمانية ضد هتلر، وهذا ما لن يغفره لها النازيون،

يقف الفن الحقيقي، ضد الظلم والعنف، وضد أيّ نوع من الوحشية. إنّ الفـن، هو تمرّد. يحذّر لناس ضدّ الأكاذيب، والقمع، والحروب التي لا معنـى لها ولا تنتهي أبداً، وجميع أشـكال الشـرّ.. كتب ريمارك رواية «للحـب وقـت وللموت وقت» لتبقـى تروي لنا حكايـة الفنان والأديب وهو يقف ضد الظلم ويحارب بقوة توحش الحروب ويفضح جرائمها.

في ١٩٦٩ تتلقى مارلين مكالمة تخبرها أن ريمارك في وضع صحي سـيئ، تصر على أن تتحدث معه ورغم تعبه قال لها: «ليس بوسـعك أن تفعلي شيئاً، لايستطيع أحد أن يساعدني. كانت تلك آخر كلمات تسمعها منـه، لكنها أصرّت على أن ترسـل له الزهور كل يـوم وكذلك البرقيات، فـي أيلـول من عام ١٩٧٠ توفـي ريمارك، وترفض مارليـن الذهاب الى جنازتـه، تقول لأحد اصدقائها: «لو أننـي لم اكن عنيدة، لكنت اليوم الى جـواره، أودعـه الـوداع الأخير، بعدها دخلـت الى غرفتهـا لتغلق الباب عليها وتمتنع عن لقاء أي شخص، إنها في حالة حداد كاملة.. فقد رحل الشخص الوحيد الذي أحبته بصدق».



-٢٧-

الحب، حريق بلا انطفاء، وجوع بلا شبع

يسـأل الفرنسـي فرانسـو موريـاك: «هل الحب نوع من الإدمان»، في الاسـطورة الصينية نجد الآلهة «تشـانج بو» تقـول لمحبوبها ميلان: إني أشـتاق إليـك، وفي حكايـات الشـعر العربي، يبكـي مجنـون ليلى وهو يقول: وقالوا لو تشاء سلوت عنها.

فقلتُ لهمْ فانِّي لا أشَاءُ

يخبرنـا محقق ديوان «مجنون ليلى «عبد السـتار فراج، إن حب قيس وليلى كان مثل حب الناس جميعاً..تختلط فيه الطهارة بالرغبة، والشهوة بالتعفف، والروح بالجسد، وعلى عكس ما يعتقد العديد من الباحثين إن حب قيس لليلى، كان حباً عذرياً، فإن قيس كان يضم ليلى الى صدره بين الحين والآخر وهو القائل:

ضممتـك حتـى قلـت نـاري قـد انطفـأت

فلـم تطـف نيرانـي وزاد وقودهـا

ويقول في بيت آخر مخاطبا زوجها:

فـان كان فيكـم بعـل ليلى..فإنني

وذي العـرش قـد قبلـت ليلـى ثمانيـا

فهـل ظلـم المؤرخـون هذا العاشـق حين جعلـوه نموذجـا للمحب الفاشـل، ونموذجاً للمجنون، الذي يتعلق بوهم، ويجن في سـبيل شبح امرأة في الوقت الذي ينشد هذه الآبيات:



تـمـتـع بـلـيـلـى، إنـمـا أنـــتَ هـامـة

مـن إلــهـام يـدنـو كـل يـوم حمامها

لم يُصب قيس بالجنون، إنما طغى شعوره على سلطان عقله، كما يقول طه حسين وإن عاطفته فاضت من القلب فملكت عليه حياته، لقد دخل أول درجات الوجد. بالمقابل لم تكن ليلى مجرد امرأة. كانت رمزا لكل قصص العشق. ما من شاعر عشق إلا وهتف باسمها، وما من أحد حلم بامرأة إلا وكانت هي. وهي تشبه «هيلانه» عند اليونان حيث أشعلت الحب والحرب.. ولم يكن لليلى شكل محدد. حين سألوه عنها وصفها بكل ما هو جميل وصعب:

تـكـاد يـــدي، تـنـدى إذا مـا لمستها

وينبت في أطـرافـهـا الــورق النضر

إنها القمر حين الظلام، والمطر وقت العطش، ومجنون ليلى لايختلف في الحب كثيراً عن عمر بن ربيعة، كلاهما مولع بالعشق. لكن مدخل كل منهما للمرأة مختلف، فاذا كان قيس هام بامرأة واحدة، فان عمر بن ربيعة كانت له مع النساء صولات وجولات.

سأله سليمان بن عبد الملك: ياهذا ما يمنعك عن مدحنا ؟

قال عمر في إيجاز.. اني لا أمدح الرجال.. إنما أمدح النساء

يقول عنه عباس محمود العقاد: «إن العالم بالنسبة لعمر بن ربيعة بغير النساء ليس هو العالم، بدونهن تصبح الصحراء مصيدة.. وإذا كانت حياة الشعراء تدور بين محورين المال والحب، فإن المال لم يؤرقه يوماً، وكانت المرأة هي الجزء المكمل لحياته.. هي الأكثر إحساساً به».

يـهـواك مـا عـشـت الـفـؤاد فـإن أمـت

يـتـبـع صـــداي صـــداك بـيـن الأقـبـر

ومن بين قصص العلاقة مع النساء، كانت قصة المتنبي التي حيّرت الباحثين فيكتب طه حسين في كتابه مع المتنبي: «ان خشونته صرفته عن



الإقبـال الحقيقي على المرأة». لكن العلامة محمود محمد شـاكر يؤكد إنه عرف العشق وإلا ماكتب هذا البيت:

يـــاوجـــه داهـــيـــة لـــــولاك مـا
أكل الضنى جسدي وروض الأعظما

فهـل عـرف المتنبي الحب ؟ وهل كانت المرأة جـزءاً من طموحاته. لاشـك إن المتنبـي مر بأوقات اجتاحه فيها شـعور كبير بالحب والحنين الـى المرأة، ونجد أن إحساسـه بالحب يتعمق ويقوى في شـبابه: وما أنا إلا عاشق».

لكنـه في سـنين عمـره المتقدمـة، يحـاول أن يقنعنا بـأن الحب وهم يتشـبّث بـه الإنسـان العاجز، وإنـه أي المتنبـي لديه مناعة ضد العشـق، وإن قلبه لايمكن أن تسـيطر عليه امرأة، فمطامحه وشـهواته تنحصر في الحروب والبحث عن الأمجاد:

ومـــا الـعـشـق إلا غـــرة وطـمـاعـة
يُـعَـرّضُ قَـلـب نَـفـسَـه فَـيُـصـاب
وغـيـر فـــؤادي لـلـغـوانـي رمـيـة
وغـيـر بـنـانـي لـلـرمـاح ركـاب

لكن الشاعر العاشق لايستطيع أن يحجب الحقيقة دوماً، ففي فترات حياتـه القصيـرة، عذبـه الحـب وأضناه، وهـو يعتـرف إنه بـدون المرأة لايسـتطيع العيـش في هذه الدنيا، فالعشـق لـذة لايعرفهـا إلا من جرب الحب:

تَلَـذُّ لَـهُ المُـروءَةُ وَهيَ تُؤذي وَمَن يَعشَـق يَلَـذُّ لَهُ الغَرامُ كان الشـاعر يريـد أن يقـول إنه بريء مـن الحب، ولا يهمه أمر النسـاء، لكـن العديد من قصائدة تخبرنا إنه قتيل الغرام، ترديه سـهام العيون، وتحلو له القبل، ويضنيه قوام المرأة الجميلة:

كـــم قـــتـــل كـــمـــا قـــتـــلـــت شـــهـــيـــد
بـبـيـاض الـطـلـى وورد الـخـدود



وعيون المها ولا كعيون
فتكت بالمتيم المعمود

ويؤكد الكثير من الدارسين إن المتنبي هاما عشقاً بخولة أخت سيف الدولة الحمداني، إلا أن طه حسين يحاول أن يفند هذه الحكاية لأنه يعتقد إن شاعرا مثل المتنبي لايمكن أن يغامر بمكانته عند سيف الدولة من أجل امرأة، لكن محمود شاكر يجزم أن الشاعر أحب خولة، وإن سيف الدولة كان يعلم ذلك بل وأنه قد وعد المتنبي أن يزوجه من أخته يستشهد شاكر بكثير من شعر المتنبي ليثبت ذلك الحب:

كَتَمْتُ حُبّكِ حتى منكِ تكرمَةً
ثمّ اسْتَوَى فيهِ إسراري وإعْلاني
كأنّهُ زادَ حتى فَاضَ عَن جَسَدي
فصارَ سُقْمي بهِ في جِسْمِ كِتماني

ويؤكد محمود شاكر إن قصيدة الرثاء التي كتبها المتنبي بعد سمعه خير موتها: «لم تكن أبيات رثاء وإنما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيبته». ويذهب الدكتور جلال خياط في كتابه الممتع عن المتنبي وحياته الى تأييد هذا الرأي: «لماذا لاتحب أميرة رجلاً مثل المتنبي كان أشعر الناس» ونجد المتنبي يخبرنا بهذه العلاقة وهو يقول:

ولاذكرت جميلاً من صنائعها
إلا بكيت ولا ود بلا سبب.

واذا لم يكن المتنبي عاشقا لخولة، فمن أين له هذا الرأي، بان أحلى الحب ما صاحبه شك، فيحيا المحب بين الرجاء والإتقاء، أي أن يعيش حبه حقاً، فلا يموت بهجر ونسيان:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه
وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

وهذا ما يفسره أحد شراح ديوان المتنبي «أبو الحسن بن محمد



الواحدي» بانه «كتم الحب إكراما للمحبوب لأنه رجل شهم».

ولهذا يؤكد الواحدي أن عاطفة الحب والعشق لدى المتنبي ظهرت بشكل قوي خلال وجوده في الدولة الحمدانية، فأبيات العشق والحب في قصائده لم تكن حاضرة بكثرة قبل التحاقه ببلاط سيف الدولة وتواصلت تلك العاطفة بألم الفراق والشوق بعد مغادرته بلاط سيف الدولة، ويظهر في مقدمات قصائده وجود حب متوقد في قلب المتنبي:

لعَيْنَيْكِ ما يَلقَى الفُؤادُ وَمَا لَقي
وللحُبّ ما لم يَبقَ منّي وما بَقي
وَما كنتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قلبَه
وَلكِنّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ

يكتب جاك ماريون في كتابه ظاهرة الحب ان الرفض في الحب يُغرق العاشق في أعقد وأعمق أوجاع الاضطراب العاطفي مما يمكن أن يمر به الإنسان.

*****

جنون الهجران

كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، شقراء نحيلة جداً بسبب إصابتها بمرض السل، تزوجت من معلم طُرد من عمله بسبب إدمانه على الكحول، سوف يتعرّف هذا الرجل العاطل، على جندي شاب كان يعاني آنذاك من مرض الصرع، كان فيدور دستويفسكي قد تم نفيه الى هذه البلدة «سيمبالاتنسك» بعد أن أطلق سراحه بعفو من القيصر حيث إتّهم بمحاولة القيام بثورة مع مجموعة من الشباب، ومنذ أن وصل دستويفسكي الى هذه البلدة حتى ألحُق بفوج عسكري.

منذ اللقاء الاول بين المعلم العاطل والجندي الخارج من عذاب السجن، كان هناك رابط خفي ربط بين الاثنين، فقد عطف كل منهما على الآخر، ويصطحب المعلم ذات يوم الجندي فيدور دستويفيسكي



الى بيته وهناك يتعرف على زوجته «ماري دمتريفنا»، وسرعان ما عقدت صداقة بين الزوجة المريضة والجندي دستويفسكي، وها هو للمرة الاولى يجد امرأة تصغي إليه بانتباه، والمرة الأولى التي تتعاطف معه امرأة بهذا الشكل، كان كلا الاثنين يعاني من الوحدة ومصاعب الحياة، وكانت أحلامهم قد تبددت بسبب قسوة الحياة، وكثيراً ما كان يفكر دستويفيسكي بعلاقته بماريا، يكتب الى شقيقه: «آه لو كنت حراً..آه لو كانت حرة»، ومع مرور الأيام تبدأ قصة الحب بينهما تتوطد، وكان دستويفيسكي يكثر من زياراته لبيت صديقه المعلم وكان يعود من هذه الزيارات وهو يشعر بنوع من النشوة والسعادة، فهو يجرب الحب للمرة الاولى، فقبل لقائه بماريا كان لامباليا حيال النساء. يكتب الى شقيقه يصف ماريا: «تعرفت على سيدة مليحة ومثقفة جدا، وذكية للغاية وطيبة ورقيقة وأنيقة بقلب رائع كبير». وفي رسالة أخرى يكتب الى صديقه الكسندر فرانغيل معترفاً: «نعم.. أحبها بكل ما في قلبي من عنفوان العشق.ولكن لا أجسر على أن أخبرها بذلك، حتى لو قالت لي أحبك يافيدور لصرخت فيها إنك متزوجة، ولكن ليس ما كنت سأقوله لها نابع من قلبي أبداً !! إنما ما أعانيه هو إنني أخاف من الاقتراب أكثر منها، فماذا أفعل يا صديقي».ونجده يكتب في يومياته: «هل ماريا تحبني حقاً أم أن خيالي هيّأ لي ذلك، فجعل منها وكأنها تجن بحبي، وكم تمنيت أن تترك زوجها، وتأتيني تحت ثلوج سيبيريا لتطرق بابي قائلة: لقد تخلصنا منه يافيدور».

وتشاء الأقدار أن يحصل الزوج على وظيفة في بلدة تقع على بعد ٧٠٠ كيلومتر عن «سيمبالاتنسك» وتخبره ماريا بقرارها السفر مع زوجها. يكتب في يومياته: «لقد وافقت وقبلت ولم تحتج أو تعترض، وهذا هو الأمر المثير والمزعج في الموضوع».

ونجد دستويفيسكي يفقد كل حماسة للعمل، تنتابه حالات من الحزن والضجر، وهو يسمع الأخبار التي تأتيه من محبوبته ماريا، فهي أيضا تشكو وحدتها، ومن إدمان زوجها على الخمر، وتزداد الرسائل



بينهما، وكان دستويفيسكي لايعيش إلا في انتظار ساعي البريد، في ذلك الوقت أخذت نوبات الصراع تزداد عنده، وبتاريخ ١٤ آب يتلقى رسالة من ماريا لقد مات زوجها، وأخيراً أصبحت حرة وسوف يتمكن من الإرتباط بها، وبعد بضعة أسابيع يكتب لشقيقه: «بعد تبادلنا الأعترافات والأمنيات والعهود والمواثيق، إنها تحبني» والحقيقة إن ماريا كانت حائرة، فهي تعاني العوز والمرض وفي هذه الأثناء يتقدم رجل لخطبتها تكتب لدستويفيسكي: ما العمل، تقدم رجل يتصف بمزايا حسنة، ويشغل وظيفة ثابتة ومضمونة، وطلب مني أن أتزوجه ؟ فماذا أجيبه ؟

ويرد عليها برسالة يعترف فيها للمرة الاولى بحبه: «سأموت اذا فقدتك ياملاكي، أو إني سأصبح مجنوناً، أو سألقي بنفسي في النهر، فأنا لي حقوق عليك، بحق السماء أتفهمين».

لكنها بعد أشهر تخبره إنها ستتزوج من هذا الرجل، فهي الآن في التاسعة والعشرين وتحتاج الى من يقف الى جانبها في الحياة، ويعترف في رسالة الى شقيقه انه خسر الرهان، وان كل شيء في طريقه للضياع، ويقرر أن يصبح صديقاً لها يرعاها ويهتم بإبنها: «كل هذا من أجلها هي، من أجل أن لاتظل تعاني من البؤس والشقاء»، وهذا التعاطف الذي يبديه دستويفيسكي لماريا سيجعل منه الموضوع الرئيس لروايته «مذلون مهانون»

تقول بطلة الرواية: «لقد خنتك، فغفرت لي كل شيء، ولم تعد تفكر إلا بسعادتي».

ونجد صدى لحكاية عشقه اليائس في رواية الأبله، فالامير موشكين بطل الرواية على الرغم من حبه الشديد لنستاسيا، يدعها تهرب مع الرجل الذي اختارته.

لكن بعد شهور وفي لحظة يأس يعيشها ينتبه لطرقات على بابه وما أن يهم بفتح الباب حتى يجد ماريا ترتمي بحضنه، لقد تركها الرجل الذي قررت أن تتزوجه ولم تجد أمامها غير دستويفيسكي: «إنك قديس يافيدور. انا لاأستحقك.ولم أحب أحداً سواك».



فاستعاد دستوفيسكي الأمل وقرر الزواج منها فوراً، وتبدأ ماريا رحلة صعبة مع الرجل العبقري الذي تنتابه حالات صرع ويعاني من مطاردة الدائنين ومن الهوس بلعب القمار، لكنها رغم ذلك تكتب الى شقيقتها: «لست محبوبة ومدللة وحسب من قبل زوجي الطيب جدا والذكي جدا، بل أني محترمة جدا من قبل ذويه ومعارفه.

كان دستويفيسكي يخبر شقيقه بأنه يخشى هذا النوع من الحب، وفي الشهر الاول من الزواج سقط على الارض فجأة وانتابته نوبة من نوبات داء الصرع. وبسبب حالة البؤس والفقر والديون التي تلاحقهما عاشت ماريا تعاني من الخوف والمرض الذي بدا ينهكها، الى أن قضى عليها مرض السل ليجد دستويفيسكي نفسه من جديد وحيداً يكتب الى شقيقه: «يبدو إنني على خصام مع الحب، فها هو يغدر بي ويتركني أعاني الوحدة والمرض».

****

يأس الحب

اقترب منها معلمها ليخبرها أن هناك كاتباً بحاجة الى مساعدة موظفة اختزال، من هو هذا الكاتب؟ سألت الشابة آنا جريجوريفنا، أجاب الأستاذ إنه فيدور دستويفسكي. لم تصدق أول الأمر إن الاسم الذي يقصده الاستاذ هو نفسه كاتبها المفضل الذي طالما ذرفت الدموع وهي تعيد قراءة «ذكريات من منزل الأموات»، وأنها كانت مغرمة بـ «فرنكا» بطلة قصته الأولى «الفقراء»، فهي مثلها تكتب رسائل لشخص مجهول تخبره إن حياتها تغيرت منذ أن توفي والدها، لتبدأ الخطوة الأولى لها في مسيرة الفقر ومخاطره وهمومه !

وفي صبيحة اليوم التالي استيقظت آنّا جريجوريفنا على غير عادتها نشطة، كانت تنتظر هذا اليوم منذ شهور، أن تتحول من طالبة صغيرة الى موظفة، غادرت البيت مبكراً، كان لابد أن تمر على منزل صديقتها



ايميليا لتخبرها إنها ستضع أولى خطواتها على سلّم الحياة، ولتغيضها أيضا فهي ستلتقي وجها لوجه مع فيدور دستويفسكي الذي طالما تبادلت مع ايميليا كتبه.

في الساعة الحادية عشرة كانت تقف أمام الشقة ١٣ الواقعة في شارع بولشايا. ذكرتها البناية بأحداث رواية «الجريمة والعقاب» التي كانت قد أتمت قراءتها قبل مدة، تتلفت حولها، ربما في واحدة من هذه الشقق سكنت ذات يوم العجوز «اليونا» القاسية الأنانية التي ظهرت فجأة في طريق راسكولينكوف الذي شعر أمامها في لحظة أنها عقبة تقف في طريقه: «لم تكن العجوز إلا وعكة أردت أن أتخطاها مسرعاً قدر الإمكان، أنا لم أقتل العجوز، بل قتلت مبدأ».

تتذكر أنا جريجوريفنا إن والدها أعطاها يوماً مجلة الرسول الروسي، وفيها قرأت تلخيصاً قدمه دستويفسكي لروايته الشهيرة هذه، حين كتب ردا على تساؤلات القراء عن مغزى الجريمة قائلا: «هذه الرواية انما هي عرض سيكولوجي لجريمة... والحدث يدور في زمننا الراهن، أي في هذه السنة بالذات. أما صاحب الحدث فهو شاب طالب في الجامعة من أصول بورجوازية لكنه يعيش في فقر مدقع، لذلك يقرر، تحت تأثير بعض الأفكار الغريبة التي نراها رائجة هذه الأيام، أن يخرج بضربة واحدة من وضعه المزري: «لقد قرر أن يقتل امرأة عجوزً، هي أرملة لمستشار وتعمل اليوم في الربا. والشاب ينطلق في مشروعه من تساؤلات لا ينفك يطرحها على نفسه: «ما فائدة هذه المرأة؟ لماذا تراها تعيش؟ هل تنفع أحداً في عيشها؟ وهو يؤمن أن في مقتل العجوز خلاص له وأداء واجب تجاه إخوته في الإنسانية، لقد شعر وهو يفك الساطور من الإبزيم بأنه لم تعد لديه لحظة يضيعها».

أخيراً انتبهت آنا جريجوريفنا على صوت امرأة عجوز تقول لها: تفضلي ماذا تريدين ؟

للحظة تصورت انها تقف أمام عجوز «الجريمة والعقاب» بشالها الأخضر وعينيها الماكرتين، وقبل أن تعيد الخادمة عليها السؤال أجابت



بنبرة مترددة: «انا قادمة من طرف السيد أولخين وان صاحب المنزل على علم بموعدي معه».

دعتها الخادمة للدخول، وبعد دقيقتين ظهر أمامها كاتبها المفضل الذي لم يترك لها فرصة أن تأخذ نفسها حيث سألها مباشرة: هل أنتِ بارعة بالاختزال؟ وقبل أن تجيب طرح عليها سؤالاً آخر: منذ متى وأنتِ تعملين بهذه المهنة ؟ لكنه أخيراً تنبه الى أنها لم تجلس فطلب منها أن تدخل معه غرفة مكتبه، وقال للخادمة: أحضري لنا الشاي.

****

ادمان الحب

- كم أنجزنا من الصفحات؟ سألها دستويفسكي ذات يوم.

كان العمل قد انتظم برواية «المقامر»، واخذ دستويفيسكي يطمئن بأن الرواية ستسلم في موعدها المحدد، كان يشعر بمتعة غريبة وهو يعمل الى جانب هذه الفتاة الشابة، التي ستكون يوما بطلة قصة حياته الحقيقية، كان يملي عليها قصة غرام ألكسي ايفانوفيتش بالشابة الجميلة بولين سوسولوفا، فتاة بالغة العذوبة يقع في غرامها رجل مقامر، يضيف الى بطلة الرواية بعضاً من ملامح آنا جريجوريفنا، كانت هي تصغي إليه وتحاول أن تتخيل بطل الرواية يقع في غرامها إنه يقول لها: «في حضورك أفقد كل كرامتي» وحين يصل دستوفيسكي الى السطور التي يقول فيها ايفانوفيتش: «ضممتها بين ذراعي، قبلت يديها وقدميها، وجثوت على ركبتي أمامها». تكتب آنا جريجوريفنا في مذكراتها: «بعد أشهر وجدت دستويفيسكي وهو يعيد مشهد المعلم أليكسي ايفانوفيتش، وقع عند قدمي مقبلا، ضاماً إليه ركبتي وهو ينتحب بصوت عال، لا أتخيل أن بمقدوري أن أفقدك».

بتاريخ ٣٠ تشرين الاول عام ١٨٦٦، وبعد خمسة وعشرين يوما من العمل المتواصل، أصبحت «المقامر» جاهزة للطبع، وفي اليوم الأول



من تشـرين الثاني وحسـب الموعد المحدد ذهب دستويفسـكي لمقابلة ستيلوفسكي وتسليمه مخطوطة الرواية.

كان قـد اعتـاد على فتاة الاختزال والتي أصبحت تناقشـه بشـؤون أبطال رواياته بحماسـة، كانت فكرة فراقها تؤرقه وسـألها ذات يوم: «ضعي نفسك مـكان بطلة قصة المقامر لدقيقة واحدة وافترضي أن إيفانوفيتش هو أنا وأني أبـوح لك بحبي، وأنـي أطلب منك أن تكوني زوجتي قولـي بماذا يمكن أن تجيبي؟».

كان منزعجـاً مـن جرأته وخائفاً أن تفسـد كلماته هـذه الصداقة اللطيفة، ولم يكن يتوقع أن موظفة الاختزال سـتنظر الى عينيه بهدوء ثم تقول له بكل بساطة: «سأجيبك بأني أحبك وأني سأظل أحبك طوال حياتي».

نظر إليها دستويفسـكي غير مصدق، ثم عانقعها بعنف وهما يقفان وسط الشـقة ويكتب في يومياته: «كانت كلماتها مثل روح بعثت في لحظة قدسـية من جحيم مأساة أو موت».

****

لكي يدوم الحب

كان ديستويفسـكي يشـعر بـأن القـراء خذلوه فـي روايـة «المقامر»، والمبلـغ الـذي حصـل عليـه مـن الناشـر تقلـص كثيـرا بسـبب الديون المتراكمـة، ولاحـظ إن زوجتـه حامـل، وقـرر إن المولود سـيكون بنتا وانـه سيسـميها «ايمـي»، وأخفـى عـن آنـا جريجوريفنا روايـة «الحرب والسلام» التي صدرت حديثا، لان تولستوي يروي فيها احتضار الاميرة بولكونسكي اثناء الولادة.

الامير ميشـكين المصاب بالصرع يعود من عيادة في سويسـرا حيث يعالـج مـن مرض الصرع، وهو يتيم ولايملك شـيئا سـوى صرة ملابس هزيلـة، ولايعـرف شـيئاً مـن أمـور الحياة، وقـد قال لـه الطبيـب: «لقد حصلـت لـدي قناعـة تامة بأنـك طفـل حقيقي»، هـذا الطفل الـذي بلغ



السادسة والعشـرين من العمر مهذب خجول طيب القلب وساذج، وقد انقضـت حياته في تأملات ذاخلية، وعندما صدرت «الأبله» أربك بطلها النقـاد وحيّرهم، يقول تورجنيف لأحد النقاد: «يـا إلهي ما الذي لم يقله السـيد دستويفسـكي في هذه الرواية التـي هي في الحقيقة اشـبه بكتاب اعترافات ؟».

فـي «الأبله» يسـتعير دستويفيسـكي حياتـه أكثر مـن أي رواية أخرى له، ويروي فيها على لسـان بطله كيـف وقف على منصة مرتفعة وهو في الثامنة والعشرين واعتقد انه بقيت له من الحياة ثلاث دقائق لا أكثر، ولم يكن يتوقع ان سيقع في يوم من الايام بحب امرأة.



- ٢٨ -

حين يتحول الحب الى لحظات قصيرة من الجنون

تبـدأ الحكاية بلقـاء رجلين، في أمسـية ماطرة، في إحـدى الحدائق. الأول متخصـص فـي علـم الصوتيـات البروفيسـور هيغنـز. أمـا الثاني فهـو الجنرال بيكرينـغ، المتخصص باللغات واللهجـات الهندية. وأثناء حوارهمـا يتحدى هيغنز زميله في اسـتخدام خبرتـه في علم الصوتيات، لتحويل الفتاة إليزا دوليتل، بائعة الزهور في الحديقة، الى سيدة مجتمع، بمجرد تعليمها أناقة الحديث وأسرار اللهجة الراقية.

وإذ يقـول له الكولونيل أن هذا غير ممكـن، منطقياً، يقوم الرهان بين الرجلين. وعلى إثر ذلك يتقرب هيغنز من بائعة الزهور عارضاً عليها أن يعلمهـا الحديث بصورة صحيحة مقابل بعـض المال يعطيه لها. وهكذا يصطحبهـا، الى منزله، وتبدأ التمارين على الفور، فيما يشـعر هيغنز بأنه يسابق الزمن طالما أن الرهان مدته ستة أسابيع.

غيـر أن إليـزا لـم تخيّب أمـل هيغنـز، حيث نجدهـا تبدي اسـتجابة سـريعة للتعلم ما أذهل هيغنز. وهكذا خلال الفترة المحددة، تنجح إليزا فـي الامتحان الذي يجـري لها، ويتحسّـن نطقهاوطريقتها في الحديث، وسـنرى إن النطق لم يكن وحده ما تحسّن لديها. وانما سلوكها ونظرتها للمجتمـع، ويصطحـب البروفيسـور هيغنـز تلميذتـه إليـزا ليقدمهـا في حفـل يقيمـه أحد السـفراء على أسـاس أنها أميـرة من البـلاط، من دون أن يكشـف سـرها لأحد، وتتصرف إليزا مثل أميرة حقيقية، نطقاً وأناقة، وتبدو وسط ذهول هيغنز و صديقه الجنرال، كأنها حقا تنتمي الى واحدة



من العائلات الارستقراطية. ويهنئ الجنرال والبروفيسور نفسيهما بما حققاه من انتصار، وتنتبه إليزا أن الرجلان يتعاملان معها مجرد تمثال جميل ساهما في صناعته، ولا يحسبان حساباً لمشاعرها، فهي خلال الأسابيع التي امضتها في بيت هيغنز، وقعت في حبه، من دون أن ينتبه هو للأمر، وها هو الآن يتجاهلها كامرأة من لحم ودم، معتبراً إياها مجرد آلة أجرى عليها بعض الاختبارات الناجحة، وتسأل نفسها هل هي مجرد دمية صنعها هيغنز ليتباهى بها أمام الجميع، أم امرأة لديها مشاعر ومن حقها أن تحب وتعشق، وأن تجد رجلا يهيم بها؟ لكن البروفيسور يعيش في عالم آخر، إنه سعيد بنجاح تجربته، ولم يخطر في باله إن المرأة التي خضعت للتجربة يمكن أن تتحرك مشاعرها تجاهه، ونجده تقرر في لحظة غضب مغادرة الحفل، وينتبه هيغنز الى غياب إليزا، ويكتشف إنه لايستطيع الاستغناء عنها، وانها اصبحت جزءاً من حياته، لكن ليس كما تتمنى إليزا العاشقة، وإنما كامرأة يكمل معها تجاربه. وعندما يخبرها بالأمر تثور في وجهه، فها هو أخيراً لايقدر مشاعرها، ولايفهم إنها تحبه، فهي ليست بحاجة الى صديق وإنما الى حبيب، وتقرر أخيراً أن تخرج الى الحياة لتواجه المجتمع بشخصيتها الجديدة، بعد أن اصبحت تدرك جيدا إن الحب لايمكن أن يُطلب من شخص أناني.

كان جورج برنادشو في الستين من عمره حين نشر مسرحيته «بيجماليون» والتي استمد فكرتها، من قصة الشاعر الروماني أوفيد «تحولات». وفيها أن النحات بيجماليون يكره النساء، ويرى إن المرأة مخلوق كله عيوب وإنها وراء كل الكوارث التي تصيب الرجال ولم يكن موقفه هذا يحتمل المناقشة أو التغيير

لذلك أخذ على نفسه عهداً بألا يتزوج أو يفكر في النساء وقرر أن يهب حياته.

وبالرغم من موقف بجماليون من النساء فقد كانت أجمل تحفة فنية صنعتها يداه عبارة عن تمثال لامرأة فائقة الجمال، ويجد بجماليون نفسه قد وقع في غرام تمثاله وأحبه حبا شديداً واصبح لا يقدر على فراقه



لحظة واحدة، كان ينظر الى التمثال وهو يعتقد انه أمام امرأة حقيقية وليس تمثالاً.

في ١٨٩٨ تزوج برنادشو من تشارلوت باين تاونزيند. وعلى الرغم من أن زواجهما استمر حتى مماتها في ١٩٤٣، فقد قيل إنه طوال تلك الفترة التي أقام فيها شو علاقات عدة مع نساء أخريات. ومن هؤلاء الممثلة المسرحية ستيلا بياتريس كامبل التي كتب لها عام ١٩١٣ القصيدة التالية:

أريد تلك الشقيّة المشرّدة كحالي
أريد سيدتي الداكنة، أريد ملاكي
أريد مغويتي بجمالها
أريد فْرِيّا بشجرة تفّاحها.
أريد الأخفّ وزنا بين مصابيح الجمال السبعة عندي
شرفي، ضحكتي، موسيقاي، حبّي وحياتي
وخلودي...
أريد إلهامي، ذنبي، حماقتي وسعادتي
ذاتي العليا، جنوني وأنانيتي
ختام سلامة عقلي وقدسيتي
تغيُّر شكلي وطهري
يا ضوئي على الطرف الآخر من الماء
يا نخلتي على الطرف المقابل من الخلاء
وحديقة أزهاري اليانعة
متعي المليون بلا اسم
راتبي اليومي
حلم ليلتي
حبيبتي ونجمتي الساطعة.



كان برناردشو يُؤْمِن بأن الحبّ الخيالي أهم من الحبّ الواقعي، فالخيال أقوى من الحقيقة ولا يمكن أن يحبّ الرجل من خلال الاحتكاك ما يقوم الأحلام الجميلة التي توحي بها النساء من بعيد. يكتب في إحدى رسائله إلى أليس لوكيت إذا كنتِ قد استطّعْتِ أن تجعليني أشعر فهل تنكرين أَنني أَفْلَحْتُ في أن أجعلك تفكرين.

****

الموت حباً

يبدو إن موضوع الحب الخالص هو موضوع يستهوي القراء منذ عصر الكلاسيكيات الشهيرة، وانتهاء بقصص الحب الضائعة التي برعت السينما بتقديمها وكانت آخرها «تايتانيك». ويكتب إريك فروم في كتابه «فن الحب»: إن الانسان يتوق الى الحب الضائع، ويشغف به أشد الشغف. فما الذي كان سيحدث لو إن جولييت عاشت وتزوجت روميو ؟

في العام ٢٠٠٨ يكتب أريك سيغال مقالاً بعنوان «هل مايزال الحب حاضراً بقوة عند الشباب ؟» وكان قبل أربعين عاماً، حين كتب روايته الشهيرة «قصة حب» يعيش حياة بسيطة كأستاذ جامعي يلقي على طلبته محاضرات في الأدب، ويقرأ كل يوم فصولاً من روايته الأثيرة «ذهب مع الريح»، ويحلم أن يصبح نجماً محبوباً من النساء مثل كلارك غيبل الذي أدى باحتراف دور «ريت بتلر» في الفيلم الشهير المأخوذ من الرواية. لكن سيغال وهو يمسك بيد ابنته وهو على فراش المرض تساءل مع نفسه عما إذا كان في حياته إنساناً طيباً، أراد أن يقدم تفسيراً جديداً للحب الذي ظل الكُتّاب والمفكرون يضربون أخماساً بأسداس وهم يحاولون حل لغزه.ظل سيغال يشرح لطلبته ويحدثهم عن كبار الكُتّاب الذين تركوا لنا أحكامهم عن العشق. ومن خلال آثارهم نعرف أن ستندال كان مغرماً بزوجة جاره فقرر ان تكون بطلة عمله



الكبير «الأحمر والأسـود»، ونعرف أن د.ج.لورنـس الذي كتب أعنف قصص الغرام، لم يقبل أن يرى ضعفه سوى شخص واحد هو محبوبته، وان شـاعراً مثـل لويس أراغون يضع آلاف القصائـد ونحو ٦٠ «رواية» مـن أجل معشـوقته إلـزا، وكان مواطنه فلوبير قد قسّـم الحب الى أربعة أشياء: عاطفة، وذوق، وحس، وكبرياء.

لكـن إريـك سـيغال لم يكـن مغرمـاً بأراغـون، ويعتـرف إن الحب لا يمنحك الحق بأن تصبح مجرد ظل لمحبوبتك، ولا هو سبب للهلاك، مثلما كتب أراغون يوماً لإلزا: «يا حبي العظيم، يا سبب هلاكي، الحب السعيد لا يمكن أن يوجد

كان الشـاب الثري أوليفر باريت، يدرس القانون في جامعة هارفرد، لم يتوقع أن تسحره الصبية الجميلة جنيفر كافيلري، والتي كانت تدرس الموسـيقى، هو ينتمي الى أسـرة ثرية تمارس السياسة والاقتصاد، بينما هـي فتاة من عائلة فقيرة والدهـا خباز، لكن الحب بدأ يأخذ مجراه، ولا مكان لأن نقول إننا آسفون.

ورغم أن الأحداث تجري في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، إلا أن أسـرة ذلك الشـاب ترفض فكرة زواجهما وتقف حائلاً دون تلك العلاقة، التي كانت تشـعر كلاً من الشـاب والشـابة بالأمان والاستقرار والفرح، حكاية على غرار روميو وجوليت لكن بصيغة اميركية، الشاب يقرر تحدي أسـرته فيتزوج من حبيبته، ليجد نفسـه يعيش في عوز مالي بعد أن عاش في امبراطورية مالية، لكنه يواصل المشوار ويتخرجان من الجامعة، وكان حلمهما أن يرزقا بطفل، فيذهبان الى طبيب تحاليل بحثاً عن أسـباب العقم ليكتشـفا سـراً خطيراً، فجنيفر مصابة بسـرطان الدم، والمـوت يقترب منها، إلا إنها تصر علـى مواصلة الحياة والحب بنفس المتعة والمسـرة التي عاشـتها مـع حبيبها في الجامعة، سـيفرق الموت بينهمـا، لكـن الحب أقـوى، ولن يجعلنا نقول آسـفون علـى أيامنا التي مضـت، وتموت جوليت الأميركيـة، لكن الرواية التي لـم يتجاوز عدد صفحاتهـا الـ ١٥٠ صفحة ترفض أن تموت فهي وعلى مدى سـنوات،



ظلت على لائحة الكتب الأكثر مبيعاً، عشرات الملايين من النسخ توزع في كافة أنحاء العالم

ما السر؟ يتساءل الناقد الأدبي لصحيفة النيويورك تايمز.

الجواب: لأنها رواية بلا مغامرات ولا بطولات ولامطاردات، مجردة قصة رومانسية مؤلفها لم يحاول أن يتبع الأساليب الحديثة في الكتابة، لم يقترب من جيمس جويس ولا فرجينيا وولف، وكانت أستاذته في الكتابة امرأة ضعيفة البنية اسمها مرغريت ميتشل، كتبت على سرير المرض رواية وحيدة اسمها «ذهب مع الريح»، وحين تشفى وتستعيد عافيتها وتتذوق النجاح والشهرة، تنتهي حياتها تحت عجلة سيارة مسرعة.

ومثل رواية ذهب مع الريح التي كان سيغال مغرما بها، نجده حائراً في الفصل الأول، هل يبدأ الرواية بلحظة التعارف أم يبدؤها من النهاية، لتكن «ذهب مع الريح» مرشده الى هذا العالم العجيب والمدهش، فتبدأ الرواية بلا فصل أول: «ما رأيك ياقارئي في فتاة ماتت في الخامسة والعشرين من عمرها وكانت جميلة وذكية، أحبت موزارت وباخ وأحبتني»، نحن أمام محاولة لإستثارة مشاعر القارئ، وطوال صفحات الرواية يمضي المؤلف في وصف حياة الشابين، يخصص الصفحات الأخيرة لوصف موت جنيفر بكل تفاصيله، إنها قصيدة ألم، وليست قصة حب، حتى أن قراء الرواية يظلون مسمّرين في أماكنهم تخنقهم العبرات، وتخرج مجلة التايم بغلاف الرواية على صفحتها الأولى مع عنوان مثير: شباب أميركا يذرفون الدموع، قصة حب تعيد الحياة الى روميو وجوليت.

لم يكتب سيغال رواية محكمة الصنعة، ولم تدخله قصة حب الى قائمة الروائيين العظام، لكنها جعلت منه لسنوات الكاتب الأكثر مبيعاً والأكثر شهرة، يقول لمراسل التايم انه كتب رواية بسيطة جدا لكنه اعتنى بلحظات الحب والألم، لقد كان يريد أن يقول للجميع إن الموت هو النهاية المحتومة، ولكن رغم كل ذلك، يظل الحب هو



الذي يرسم الحياة. ولم تكن رواية سيغال «قصة حب»، نموذجاً للفن الحقيقي، يبدو إن سرّ ظاهرة نجاح الرواية، الذي بدأت مؤشراته تتضح منذ صدورها، يكمن في انسانيتها وسمتها التراجيدية. فسيغال يذكّر القارئ بعدد من الحقائق البسيطة المعروفة أبرزها أن المال ليس كل شيء عندما يتعلق الأمر بالمشاعر الانسانية، وإن الحياة ليست سهلة وخالية من الهموم كما تقدمها الدعاية. وإن الحب سيظل يعيش معنا برغم كل الظروف، وان كلمة آسف لامكان لها في مواجهة المصاعب، بعد قصة حب كتب سيغال عدداً من الروايات أبرزها، «قصة أوليفر» ورواية «رجل، أمرأة، ولد» و «الصف» وكلها تدور حول ثمن النجاح وأهمية الحب، والزواج، والاخلاص الانساني، وتصور الإغراءات والضغوط التي تجعل من الصعب على الفرد أن يعيش على نحو ملائم.

في آخر حوار معه قال إريك سيغال: «ان الحب جزء من نسيج وجودنا في الحياة، ويجب أن نعيشه بكل تفاصيله».

****

العاطفة الصادقة والمزيفة

في كتابه «ساحرون ومنطقيون» يخصص اندريه مورا فصلا بعنوان «برنادشو والنفور من العاطفة التقليدية» يكتب فيه: «الانسان العاطفي هو صاحب العواطف الصادقة، وليس الذي يلجأ الى اصطناع عواطف زائفة يستر بها رغبة كامنة في نفسه» ولكي نفهم ما يريد برنادشو علينا أن نعرف إن ساخر بريطانيا الشهير، كان قد تأثر بالفيلسوف الألماني نيتشه، وظل يردد أمام النساء عبارة نيتشه الشهيرة: «النساء يبحثن في الحب عن سعادتهن فقط».

كان فيلسوف المانيا قد اطاحت به أمراة في الحادية والعشرين من عمرها التقاها في روما، واستهل حواره معها بعبارة: «من أي نجم سقط كل منا على الآخر». كان قد ترك التدريس لأسباب تتعلق بصحته المتعبة،



راح يتنقل في فنادق متواضعة بين نيس وروما، باحثاً عن الإنسان الكامل.
كان يكتب في الصفحات الأخيرة من كتابه (العلم المرح)، يكتب الى صديقه بول ري: «حيّوا تلك الروسية باسمي فأنا متعطش لهذا النوع من البشر، وسأضع نفسي قريباً فريسة لهذا النوع من الشرك، فأنا بحاجه إليه في السنوات القادمة». ورغم أن نيتشه كان يعتقد إنه غير مؤهل للاتحاد مع امرأة ترغب في منح الراحة الى زوجها والبيت الدافئ المريح، لكنها تسلب وبإرادة كاملة زخم الاندفاع الداخلي للروح البطولية عند الرجل.
ويكتب في مقال طريف عن الزواج أن سقراط وجد في نهاية الأمر المرأة المناسبة، (انخا كسانتيب) القبيحة التي شجعته باضطراد مستمر على اداء مهمته العقلية حيث جعلت المنزل منفراً، وحين كانت تطرده خارج المنزل كانت بهذه الطريقة تسهم في جعله أكبر مجادل في اثينا، وهو يصف نفسه في ختام المقال مثل الطير الحر الذي يفضل الطيران وحيدا.

ونراه يتساءل في (زرادشت) عن معنى الزواج فتكون الإجابة إنه: «فقر الروح الذي يتشارك فيه اثنان..آه ! قذارة النفس التي يتشارك فيها اثنان، هذا الهناء الشقي الذي يتشارك فيه اثنان». ويضيف: «إن ما تسمونه حباً هو عبارة عن الكثير من لحظات الجنون القصيرة، ويضع زواجكم نهاية للحظات الجنون القصيرة تلك ويستبدلها بغباء طويل الأمد». عندما التقى فريدريك نيتشه بـ«لو اندرياس سالومي»، فكر اكثر من مرة ان يجرب هذه الكذبة الصغيرة المهندمة، انه الأمل في التخفيف من وحدة الفيلسوف، وربما الرغبة في طمأنة شقيقته التي تراه غارقا في افكاره السوداوية، والتي كانت تقول له دوما: «لابد أن تتزوج »، وكانت هذه الشقيقة تتقمص في مناسبات عديدة دور الخاطبة وتبحث له عن زوجة مناسبة، وتضع أمامه كل اسبوع الكثير من المرشحات، إلا أن هواجس الفيلسوف النزقة كانت شديدة الغرابة. ورغم أن الحلم بالعيش داخل منزل زوجي ظل يداعب خياله، لكنه في عام ١٨٧٧ سيكتب لشقيقته الكبرى: «ارجوك لا تشغلي نفسك بالبحث كثيراً، فإن المرأة الكاملة التي تناسبني أصبحت سلعة شحيحة». وفي رسالة أخرى يكتب



لها: «إن الزواج يخلو من المعنى، نحن نعيش لليوم، نعيش سريعا جدا، ونعيش بطريقة غير مسؤولة، وهذا ما نسميه تحديدا حرية ثم تتوالى الأزمات ويتوالد الكره ويصاب الأطفال بالخسارة، ويختتم رسالته بقوله: «ينبغي أن يمنع على الانسان حين يكون عاشقاً ان يتخذ قراراً يكون ملزماً له طوال حياته».

ولم يكن البحث عن زوجة لنيتشه بالأمر السهل، واذ كانت المشكلة عائدة في بعض الأحيان الى مظهره الفظ، فإنها أيضا كانت مرتبطة بخجله الشديد وطريقته الخرقاء في التعامل مع النساء، لكننا نراه في ربيع عام ١٨٧٦ يقع في غرام ماتيلدا ترامبيداخ، فتاة شقراء في الثالثة والثلاثين من العمر، اثناء محادثة عن شعر هنري لونغفيلو. وبعد أيام فوجئت الفتاة بجملة طويلة يلقيها استاذ الفلسفة أمامها وعلى عجالة كأنه يريد أن يتخلص من أمر صعب. كانت الجملة عبارة عن عرض للزواج: «ألا تعتقدين أن كلاً منا سيكون أفضل وأكثر تحرراً لو كنا معاً مما لو كان كل منا سيفعله منفرداً، فهل تجرؤين على القدوم معي في جميع دروب الحياة والتفكير». سألها وهو يتلعثم، لكنها نظرت الى شاربه الغليظ ثم اختفت، بعدها تتابعت سلسلة من حالات الرفض المشابهة، وفي ضوء اكتئابه وضعف صحته قرر ريتشارد فاغنر إن ثمة علاجا واحدا ممكنا: «عليك أن تتزوج من امرأة ثرية». ولم يخطر على بال الموسيقار الشهير، ان المرأة الثرية الوحيدة التي كان يحلم بها تلميذه هي زوجته كوزيما. فلسنوات ظل نيتشه يخفي مشاعره نحو زوجة فاغنر بحرص تحت غطاء الصداقة، ولم تكشف الحقيقة إلا بعد ان فقد عقله حيث كتب لها: «أنا أحبك يامعبودتي» في بطاقة معايدة أرسلها لها من المصحة.

عام ١٨٨٨ اعتقد إنه وجد المرأة المناسبة «لو اندرياس سالومي» وهي حبه الأكبر والأشد إيلاماً، فتاة جميلة وذكية، مسحورة بفلسفته. قال لها بعد اسبوعين من تعارفهما: «لم أعد أرغب بالبقاء وحيداً أبداً». كان في ذلك الوقت يعاني من مصاعب مالية، لم يبع ايَّاً من كتبه سوى نسخاً قليلة، وبعض المبالغ التي كان يحصل عليها من عائلته بالكاد تكفيه



لحجز أرخص الغرف في فنادق بائسـة وغالباً ما يتأخر في دفع الإيجار، ولم يعد قادراً على دفع تكلفة طبق العشاء. وقد منحته سالومي في بداية علاقتهما الأمل الزائف، رحلة الى مونت سـاكرو. هناك اكتشـفت رجلاً أشـعث الشـعر، مثقل القلـب دوماً، شـكاكاً، وتدل هيئته علـى الجنون، كتب الى شقيقته: «يبدو اني لم أعنِ شيئا بالنسبة لها أبداً». وفي الخطاب الأخير الذي أرسله الى سالومي لم يطلب منها أكثر من شيء واحد: «أن نشـعر إننا متحدان في كل ما لم تبلغه الأرواح»، ولكن حتى هذا رفضت أن تعِـده به، ونراها تقرر في النهاية الارتباط بالشـاعر رينيه ريلكه، الذي أراد أن يتحرش به ويدفعه الى مبارزة من اجل تلك الخائنة الروسية.

بعد هذه الخيبات التي تركت في أعماقه جروحاً عميقة، صب غضبه على النسـاء في كثير من مؤلفاته. قال: «النسـاء يتآمرن دائماً على نفوس أزواجهن الأكثر رفعة، يردن سـلب مسـتقبلهم منهـم لحاضر مريح بعيد عـن الألـم». في كتابـه «هكذا تكلـم زرادشـت» يكتب: «يجـب أن يهيأ الرجال للحرب، وأن تهيأ النساء للترفيه عن المحارب».

وقد دفعه رفض سـالومي لأن يعيش فـي أقصى درجات اليأس ونراه يكتب وهو يعيش اقصى حالات اليأس: «هذه اللقمة الأخيرة من الحياة كانـت أصعب مـا اضطررت الى مضغه حتى الآن ومـازال من المحتمل ان أختنـق بها، إنني أعيش الآن في عزلة تامة ومحطماً على نحو لايطيقه إنسان، ولو لم اكتشف الخدعة الكيميائية لتحويل هذا السماد الى ذهب، لضعـت، اننـي هنا أمام أفضل فرصة لإثبات انها ليسـت لـي، فإن جميع التجارب مفيدة وجميع الأيام مقدسة».

يكتـب برنادشـو إن: «النسـاء يتحدثـن دائمـا عـن العاطفـة والحب العاطفـي، ولكـن هذا مجـرد حديث وحيلة مرسـومة، ذلـك إن الهدف الأخيـر الذي تسـعى إليـه كل امـرأة هو الـزواج» ونرى برنادشـو يصوّر عواطف المرأة في مسـرحيته «الميجور بربارة» على انها معادلة مقلوبة، فالرجل هو الصيد، والمرأة هي الصياد، ولهذا فهي تواصل الصراع دون خوف و تردد حتى يستسـلم الخصم، إن الحب كما يؤكد عليه برنادشـو



هو تضحية تقدمها المرأة لقوة لا تستطيع حيالها شيئا، انها تضحي بنفسها مـن أجل هذا الهـدف، وتضحـي بالرجل أيضـا وفي مقدمة المسـرحية يكتب برنادشو: «إن العلاقة بين المرأة والرجل هي علاقة رجل الشرطة بالسجين الذي يمسك به».

ويضيف وهو يقدم لمسـرحيته الشـهيرة الـزواج: «في صراع الحب، نجد الرجل هو الخاسر دائماً بسبب أسرافه في الخيال».




مكتبة
الفكر الجديد

-٢٩-

ثلاثية الحب.. اللذة والألم والمغامرات

رحل في الثالث والسبعين من عمره، وطلب من إحد معارفه واصدقائه أن يبقى قبره مجهولاً، كان كازانوفا المولود عام ١٧٩٨ واسمه الحقيقي «جان كازانوفا دي سينيالت»، قد أوحى الى العديد من الكتاب والفنانين بشخصية العاشق الماجن الذي ما أن يذهب الى فراشه في الليل، حتى يبدأ بإحصاء النساء اللواتي سيسجل اسمائهن في يومياته، وقد وصلت إلينا الملامح الأساسية لشخصية هذا العاشق من خلال مذكراته التي اطلق عليها اسم «حكاية حياتي»، ترجمها الى العربية حلمي مراد ونشرت في سلسلة كتابي بعنوان «مذكرات كازانوفا».

ويخبرنا المترجم إن هذه الصفحات تروي حياة «أعظم عاشق عرفه التاريخ»، والغريب إن كازانوفا الذي يخبرنا في مذكراته إنه أوقع في شراكه أكثر من ١٢٥ امرأة، ظل شكله غامضاً، برغم العديد من اللوحات الفنية التي رسمت له ولمغامراته، حيث لم يحفظ له العالم سوى صورتين غير واضحتين، وظل شكله وهيئته لغزا يحير الباحثين، حتى عثر عام ١٩٥٣ وبطريق الصدفة في إحدى المخازن الخاصة بتاجر للصور في ايطاليا، على صورة قديمة مكتوب عليها عبارة «جان جاك كازانوفا ١٧٦٧» وقد تحقق خبراء اللوحات الفنية، من أن اللوحة تعود الى رسام كان صديقاً لكازانوفا ويدعى «رفائيل منجز» وقد رسمت الصورة للعاشق الايطالي الأشهر وهو في الثانية والاربعين من عمره حيث تُظهره مصاباً بتضخم في الغدة الدرقية، جاحظ العينين، ذا ذقن مدبب وأنف ضخم وشفتين تنمان عن ميل



شهواني، لكنه يملك وسامة محببة هي التي ساعدته على الإيقاع بالنساء.

يخبرنا كازناوفا في مذكراته انه جرّب الحب وهو في الخامسة عشر من عمره، مع فتاة حسناء اسمها «باتينا» كان لها الكثير من المعجبين، وكانت هي من جانبها تميل الى شاب أكبر منها عمراً، ولم يجد كازناوفا من وسيلة للوصول إليها سوى إنه أشاع أن الفتاة مصابة بمرض خطير ومعدٍ، وهكذا ابتعد الجميع عنها، لتصبح أول مغامرة نسائية ناجحة في حياته.

كان كازانوفا يرى إن الحب يجلب طمأنينة النفس ويكتب في احدى رسائله الى أحد اصدقائه: «لقد علمت ان لديك شهوة جسدية قوية نحو ملذات الحب، عندما لاتسبب الحزن والغم لأحد، لك أن تلبي رغباتك كما تريد». وهكذا نرى الحب عند كازانوفا ينحصر في الملذات التي يمكن التسامح معها وقبولها، ويقول في مذكراته انه لايمكن بأي شيء إشباع شهوة الحب، فمثلها مثل الظمأ الذي يعاني منه الإنسان في حلمه، والذي لايستطيع إرواءه.

واذا ما كان كازانوفا يشجع على مغامرات العشق، فانه أيضاً يتوجه إلى الشباب ويقدم لهم نصائح عن أحوال الحب: كيف يتصرف الشاب أمام السيدة، كيف يرتدي ثيابه، كيف يتحادث مع امرأة جميلة، كيف يصل إلى قلبها، وبحسب كازانوفا فان جميع الوسائل صالحة ومناسبة من أجل الوصول الى الحب المتبادل، بما في ذلك الخداع والتصنع، وإظهار العواطف الغرامية المسبهة وحلف الأيمان، وتعد مذكرات كازانوفا دليلاً تطبيقيا في فن الحب، ويؤكد كازانوفا إن الحرية في الحب تأتي من المغامرة التي من شروطها أن تضع العاشق في موضع الخطر، فلا حب من دون مخاطرة.

بدأ كازانوفا كتابة مذكراته في سنة ١٧٩١، واستمر في كتابتها عدة أعوام، حتى أنهاها عام ١٧٩٨، قبل وفاته بأشهر قليلة، وكان يكتبها بتأثر، وهو يرى تلك الحياة المليئة بالمغامرات تمر أمام عينيه وتبعث إليه ذكريات المجد والشباب، وكان يعتزم إصدار الجزء الأول منها منذ سنة ١٧٩٧، ولكن الموت عاجله، ولم يتح له تنفيذ أمنيته.



وتقدم إلينا هذه المذكرات الممتعة شخصية كازانوفا في جميع صورها، صورة المحب الذي يطارد المرأة بكل شغف واهتمام، ليأسرها بظرفه وسحره، وصورة السائح المتجول الذي يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها باحثاً عن المال والنساء، أو صورة الشريد الذي لا يملك قوت يومه، وأخيراً صورة المفكر الأديب الذي يلتمس في القراءة، نسيان المراة، وفي المذكرات نتعرف على نوع النساء اللواتي يثرن اهتمام العاشق فنراه يروي لنا هذه الحكاية التي توضح فلسفته في الحب: «ذات يوم كنت في طريقي، فمرت بي عربة تحمل مغنية حسناء ذائعة الصيت يومئذ، وأنا أعشق المغنيات والممثلات بنوع خاص، ومع أن المغنية كانت فتية وكانت حسناء، فإنها لم تثر في نفسي رغبة ما، ذلك أنها كانت حسناء جداً. ولكن خادمتها كانت بالعكس فتاة سمراء ساحرة ذات قد ممشوق وعينين وضاءتين، فوقعت في حبها على الفور».

يكتب في مذكراته إن «الحب أكثر الآلهة مكراً ودهاءً، ولاتتجلى عبقريته قدر ما تتجلى وسط الصعاب والعراقيل..ولما كان مجرد وجوده يتوقف على إمتاع اولئك الذين يتفانون في عبادته، فإن هذا الإله ينتزع النجاح من أعماق الحالات المحفوفة باليأس..ويخلق المناسبات التي تحقق هذا النجاح».



جنون الحب

حذروها منه فهو مثل كازانوفا يتنقل من امرأة الى أخرى، لكنه سحرها عندما شاهدته يؤدي على المسرح دورا كوميديا، بعدها قدمت معه عام ١٩٣٧ فيلما بعنوان «نار فوق إنكلترا» فوقع الاثنان في الحب.

قال لها مدير أعمالها إن علاقتها بلورنس اوليفيه ليست في مصلحتها خصوصا وانها نجمة كبيرة: عليك أن تدركي ياسيدتي إنني أعرف هذا



الوسـط ودهاليزه، أن لورنس أقل منك شـهرة بكثيـر، وأخاف أن تكون علاقتك به لاستغلال اسمك.

صرخـت بحـدة: لكـن لورنس ممثل موهـوب وهو الذي يرشـدني إلى الطريق الصحيح

العام ١٩٤٠ يرتبطان رسمياً، يصعد نجم اوليفيه في المسرح، والصحف تلاحق بطلة ذهب مع الريح، وذات يوم تخبره أن ايليا كازان يريدها أن تؤدي دور البطولة في فيلم عربة اسمها الرغبة

قال لها متحمسا: مسرحية تنسيسي وليامز انها تحفة فنية

وتقف أمام مارلون براندو ويأتيها لورنس بالصحف التي تشـيد بالنجاح الكبير الذي حققه الفيلم

- اقرئـي ماذا كتبوا عنـك: أدت فيفيان لي، دور بلانش باقتدار الحسـناء الجنوبية التي تتشـبث بأوهام رومانسـية، دورها يذكرنا بالفتاة الجنوبية أيضا سكارليت أوهارا في ذهب مع الريح.

- أنتَ سبب كل هذا النجاح ياحبيبي

لكـن رغـم النجـاح الكبير الـذي حققته فـي الافـلام التالية آنـا كارنينا، وكليوباتـرا، والعاشـقة في جسـر واترلـو، وامرأة اللـورد هاملتـون وأوفيليا حبيبة هاملت... إلا أن اسـطورة سـكارليت أوهارا في ذهب مع الريح ظلت تلاحقها ولـم تستطع أن تخرج من أسر سكارليت.

وتكتـب فـي يومياتهـا: «كيف يمكنني ان أقتلهـا هذه السـكارليت التي تحتلني تماماً وتكاد تمحوني؟».

ومن هنا راحت ترفض الأدوار تباعاً، لتقف أمام المرآة بوجهها الشاحب ويديها المرتجفتين وتخاطب صورتها وكأنها تخاطب سكارليت أوهارا.

فـي ذلك الحيـن لم يتردد تنسـي ويليامز، الـذي طالما عبّر عـن حبه لها واعجابه بها اذ مثلت دور بلانش في مسـرحية «عربة اسـمها الرغبة»، في أن يقول آسـفاً: «طالما أن فيفيان عرفت الحب والغيرة، لم يعد في وسـع شـيء الآن ان يبعد عنها شبح الجنون».



بعد عشر سنوات من زواجها من لورنس اوليفيه تصاب بمرض الغيرة القاتلة، فقد كانت تبكي باستمرار لان اوليفيه مشغول عنها في المسرح، ونراها تكتب له في احدى الرسائل: «أنا جائعة الى حبك».

وذات يوم تقول له: هل أنا حقاً أجيد التمثيل، أم الجمهور يراني مجرد امرأة جميلة ؟

- دعكِ من هذه الأوهام فأنت لاتزالين أفضل وأجمل ممثلة

وأبلغها لورنس إنه سيسافر مع فرقته المسرحية وتطول غيبته فتكتب اليه عن معانتها وهي تعيش وحيدة: «يا أعز حبيب، حبي معك في كل ثانية، وأنا أعرف أن نجاحك لي فيه نصيب، وسأكون فخورة بك».

تطول أيام اوليفيه في السفر فتصاب فيفيان بمرض نفسي تُنقل على إثره للمستشفى. ويترك لورنس عمله في لندن ويسرع إليها، وفي المستشفى تخبره إنها لاتستطيع العيش ثانية واحدة من دون وجوده معها

- أرجوك إني اختنق أريد العودة الى بيتنا

- وبعد أن عادت الى البيت زادت حالتها سوءاً حتى اضطر الطبيب أن يمنحها المهدئات

- هي مصابة بانفصام الشخصية، قالها الطبيب للورنس اوليفيه

- لكنها لم تشكو من المرض طوال عشر سنوات

- يبدو أن أشياء جدت في حياتها، جعلت المرض يظهر بقوة على السطح.

وعندما تخرج من المستشفى تقول لمدير أعمالها: ارجوك ابحث لي عن دور في السينما، لابد أن أجد دورا بمستوى ذهب مع الريح

- لكنك لاتزالين ممثلة عظيمة

- لورنس أفضل مني، لقد منح لقب الفارس، ثم لقب لورد

- وهو زوجك وحبيبك.

- عندما تزوجته كنت اكثر شهرة ونجومية منه، واليوم هو الأشهر وأخاف أن يبحث عن ممثلة اخرى اكثر شهرة مني..ترى من سيختار



قال له الطبيب

- أنتَ مشكلتها ياسيد لورنس

- لكني أحبها ولا استطيع فراقها

- علاجهـا أن تتركهـا، تبتعد عنها نجاحك المسـتمر يعذبها، يبعدها عن احساسـها كزوجة، ويشـعل الغيرة فـي قلبها، انها تخـاف أن تفقدك بسبب شهرتك.

- وأخاف ان يعذبها الطلاق

- ستعتاد عليه، وسترتاح بدونك.

- سأفعل من أجلها فقط.

****

ذهب مع الريح

كانـت مرغريـت ميتشـل تعانـي من كسـور فـي العظـام، وهـي منذ ثلاث سـنوات لاتسـتطيع مغادرة الفراش، تقضي أيامهـا ولياليها بقراءة الروايات، وذات يوم يسـألها وهو يشـير الى أكوام الكتب التي تكدست حولها: «لمـاذا لاتكتبين روايتك الخاصة»، المرأة الصغيرة ذات العينين الزرقاويـن والمولـودة عـام ١٩٠٠، كانـت كل مسـاء تـذرف الدمـوع وهـي تعيـد قراءة صفحات من رواية الكسـندر دوماس الشـهيرة «غادة الكاميليـا»، ولا تـزال تتذكر كيف أن أمها عاشـت حياتهـا مغرمة بهذه الرواية، وقد أخبرتها أنها أصرت أن تسـميها مرغريت تيمناً باسم بطلة الروايـة التـي تواجه أخلاق المجتمـع الزائفة، فتمـوت وحيدة بعد أن وقف الجميع ضد قصة حبها مع الشاب أرمان دوفال

حيـن نشـر دوماس الابن روايتـه «غادة الكاميليا» عـام ١٨٤٨ كان في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يتوقع أن تحقق هذا النجاح الكبير الـذي حولـه، بين ليلـة وضحاها، من كاتـب مغمور الى نجـم تطارده المعجبات. الجميع يسأله عن الفتاة مرغريت غوتييه التي كانت تشتهر



بحبها لأزهار الكاميليا، وحكايتها وكانت مرغريت على وشك إقامة العائلة الأرستقراطية الثرية، الذي هامت به وهام بها و حين يبدآن في عيش حكاية غرام حقيقية تريد مرغريت عبرها أن تبتعد عن عالم اللهو الذي انغمست فيه، أملاً في أن يعطيها الحب طهراً تتوق إليه. وإذ يخيل إلى العاشقَين أن الحب ونبله سيدومان معهما إلى الأبد، يأتي تدخل والد آرمان، الذي يجن جنونه حين تتناهى إليه حكاية الحب بين ابنه ومرغريت، فيسارع إلى لقائها ويقول لها إن حبها لابنه سيؤدي إلى دمار مستقبل الشاب، وسيقف عثرة في وجه مستقبله وتدفعها ونزعتها الإنسانية الى الاقتناع بمنطق الأب فتقرر بأن تضحي بنفسها وبحبها من أجل سعادة آرمان وسمعته ومستقبله.

أعادت مرغريت في ذهنها أحداث رواية دوماس الشهيرة، ثم أمسكت القلم ووضعت أمامها مجموعة من الأوراق، وبدأت تكتب: «لم تكن سكارلت أوهارا في الحقيقة فتاة خارقة الجمال، لكن قلما كان الرجال يستطيعون مقاومة فتنتها الساحرة، كان وجهها جذاباً، أما عيناها فتلمعان بنظرات لاسعة كالسياط». ستدور أحداث الرواية التي لم تختر اسماً لها في مدينة اتلانتا التي عاشت فيها طفولة سعيدة، أمضت ساعات تكتب وحين انتهت أخفت الصفحات تحت الوسادة، لم تكن تريد أن يعرف زوجها إنها أخذت بنصيحته، كانت مقتنعة بأن محاولتها في الكتابة ستكون لها وحدها، لأنها لن تجرؤ على نشر هذه الصفحات التي خطتها على أوراق ملونة وبأحجام مختلفة، فالأمر أولاً وأخيراً، هو محاولة لقضاء الوقت، والتغلب على ضجر الرقاد في السرير لأكثر من ثلاثة أعوام.

لكن بعد أكثر من تسعة أشهر تبدأ الأوراق تتضخم، ولم يعد الأمر سراً أنها تجرب حظها في الرواية، فالفتاة النحيلة التي عملت في الصحافة كمراسلة لمدة سنوات في قسم المحليات، كانت تدرك جيداً ان مايجري على أرض الواقع لاعلاقة له بالخيال، فـ «جراند أوهارا» اللاجئ الايرلندي الذي دخل الولايات المتحدة عام ١٨٤٨



قرر أن يقضي حياته في هذه المدينة، فاشترى مزرعة وتزوج، وها هو سعيد ببناته الثلاث، إحداهن أطلق عليها اسم سكارليت ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراوين والطباع الحادة، والتي ما أن بلغت السادسة عشرة من عمرها حتى بدأت عيون الرجال تطاردها، والجميع يطلب رضاها، لكنها تختار أشلي ويلكس، شاب عاطفي وحالم، لكنه مغرم بفتاة أخرى اسمها ميلاني التي يتزوج منها، ما يجعل سكارليت تفقد أعصابها، وتقرر في لحظة غضب أن تتزوج أول انسان يتقدم اليها، ويقع الاختيار على شقيق حبيبها أشلي، وما هي إلا سنوات قليلة حتى تقع الحرب الأهلية الاميركية، أشلي وشقيقه يذهبان الى القتال، ويموت زوج سكارليت، فيما يواصل أشلي القتال، وخوفا من اقتراب نيران الحرب من أبواب اتلانتا، تفكر سكارليت بالهرب مع ميلاني وطفلتها، فتطلب من غني الحرب الشاب اللعوب، ريت بوتلر مساعدتها، تقضي شهوراً تتجول بين المنحدرات والغابات، وما ان تضع الحرب أوزارها، تقرر العودة الى مدينتها، لكنها لا تجد الآن سوى بيوت محروقة، الأم توفيت والأب أصيب بمرض عقلي بعد أن رأى عالمه الذي بناه بيديه ينهار أمامه، لكن سكارليت تقرر أن تبني كل شيء من جديد معاهدة نفسها أن لاتهزم ثانية.

بعد أن علم الزوج أن مرغريت تواصل كتابة عملها الروائي أخذ يسألها بين الحين والاخر: أين وصلت الرواية؟

- لكنها ياعزيزي مجرد أوراق كتبتها للترفيه عن نفسي.

كان الزوج مقتنعها بأن زوجته المقعدة، ليست في حالة صحية وذهنية تؤهلها للدخول الى عالم الأدب، ولهذا لم يطلب منها يوماً أن يقرأ ما كتبته، هذا إضافة الى أن خطها رديء، لكنها لاتزال تطلب المزيد من الكتب، كل شيء عن الحرب الأهلية، مجلدات عن تاريخ أميركا وجغرافيتها، يقول لشقيقتها:

- ليتني لم أقترح عليها ذلك الاقتراح.

وبعد أسابيع يسألها: ماذا سيكون اسم الرواية ؟



- ذهـب مع الريح»، هـذه العبارة التقطتها من قصيدة كانت قد قرأتها قبـل أيام، ثم أضافـت: إذا ما انتهيت من هـذه الأوراق فلن أعود للكتابة ثانية.

- كما تشـائين قال لها، وهو يلاحظ أن صحتها بدأت تتحسـن، كلما تقدمت في صفحات الرواية.

لكنها تواجه مشكلة، فقد انتهت من كتابة الرواية باستثناء الفصل الأول الذي وجدت صعوبة في إكماله بعد ان كتبت السطورالأولى، ولكن من سيهتم للفصل الأول، اذا كانت الرواية لن ترى النور وسيقرأها المقربون فقط، وذات مساء قالت لزوجها:

- لن أسمح لأحد بقراءة ماكتبت، هذا قرار نهائي.

إلا أن المفاجاة كانت في انتظار الجميع، فقد وقعت الأوراق بيد ناشر مغامر، كان يبحث عن مؤلفين شـباب، لكنه يواجه مشـكلة رغم إعجابه بالروايـة فهي بلا فصل أول: «ربما تكون هذه صرعة جديدة»، قال لأحد العامليـن معه. لكن قـرار طباعتها كان قد اتخذ رغـم أن مرغريت كانت عاجـزة عـن اكمال الرواية، لايهـم ليقرأها الناس كما هي. الناشـر الذي كان يتوقع ان الخمسـة آلاف الاولى من الرواية التي طبعها ستباع خلال عـام أو عامين، ولم يكن يحلم أن تصل المبيعات خلال العام الأول الى عشرة ملايين نسخة.



الحب هو الرهان

تتعامـل رواية ذهب مع الريح مع موضوع الحب على خلفية الحرب الأهلية فـي الولايات المتحدة الاميركية والتي تكاد تكون قد دمرت كل شـيء ويظل الحب هو الرهان الحقيقي للخروج مـن مأزق ذلك الدمار وانهـار الدم التي سـالت والعلاقات الاجتماعية التـي اصابها الكثير من الخلـل والعطب. فمع كل همسـة حب عشـرات القتلى ومـع كل مفردة



سخية بالاحاسـيس العاطفية شلال من الدماء التي تصبغ الشاشة باللون الاحمـر وكأن ذلـك الفيلم يريدنا أن نقلب صفحـة الألـم وبلا رجعة من اجل شيء أكبر واسمى وهو الحب.

تكتـب فيفيان لـي في إحدى رسـائلها الى لورنس اوليفيـه: «لن أمل ولن أتعب أبداً في النظر اليك، إن الحب يتدفق في كل عرق من عروقي، إن حياتي كلها تتوقف على كلمة منك».



-٣٠-

علينا أن نبحث بأنفسنا عن السعادة والحب كل يوم

كان في الخامسة عشرة، حساساً رقيق القلب وخجولاً بحكم التربية العسكرية الصارمة التي فرضها عليه والده الضابط القديم في الجيش العثماني، دخل دور المراهقة متوهماً إن الحب يأتي من النظرة الاولى، وبسبب خجله وخوفه الذي لازمه طويلاً تعثر في علاقاته مع النساء، يكتب الفنان جواد سليم في مذكراته: «إن أكثر النساء اللواتي قطعن علاقتهن معي كان سببها برودي وخجلي».

وهو يعترف بعد ذلك إنه تأثر كثيرا بمفهوم افلاطون للحب، ففي مكتبة والده عثر على كتاب «المأدبة» الذي يعد من أهم الكتب التي شرح لنا فيها الفيلسوف الأغريقي مفهومه للحب يقول افلاطون الحب أذن هو حب للجمال، وإن المبدأ الملهم للرجال في حياتهم هو الحب، وليس الثراء ولا المجد. ونجده يكتب لصديقه عيسى حنا في رسالة بتاريخ ١٩٣٧ : «الى الآن لم أتعرف الى فتاة لأجعلها صديقة لي..أخرج معها وأشاركها قسماً من وقتي»، في عام ١٩٣٨ ينتقل جواد سليم الى روما ويكتب لعيسى رسالة يعترف من خلالها: «إنني أحب ياصديقي.. أحب..لقد رأيت كل ما كنت أتصوره عن الحب بل وأكثر» كان هذا في أوائل أيامه في روما التي مارست تأثيراً أشبه بالسحر عليه. كانت الفتاة التي أحبها اسمها ماريا، يصفها لنا بأنها حسناء ذات شعر اسود فحم.

في روما يقصد المتاحف وتسحره أعمال مايكل آنجلو، ويقرأ عن تأثر هذا الفنان الايطالي الشهير بنظرية افلاطون عن الحب والخلق



والتكويـن، فالعبقـري الايطالـي كان مشـدودا الـى أفـكار الفيلسـوف الأغريقـي الـذي كانت نظريتـه الجمالية مفتاحـاً لأعمال مايـكل آنجلو فيمـا بعد: «ليس ما أعنيه بجمال الأشـكال ما يراه النـاس عادةً جميلاً أو يحسـبونه كذلك وراء ما يرونه من كائنات أو صوراً لهذه الكائنات، إنما الجميل عندي قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من اشكال فريدة في ذاتها» كان مايكل آنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) فناناً شكلته الفلسـفة والحيـاة، غير أن قصص الحب الفاشـلة كانت تطـارده، وبينما كان ذهنه منغمسـاً في أفكار افلاطون عـن الجمال والحب، كانت حياته العاطفية أشـبه بالمأسـاة، فقد عاش يعاني من فشل قصة حب في شبابة، وحيـن عرف في الخمسـين مـن عمره الفتـاة الجميلة «فيتوريـا كولينا»، كانـت هي قد خرجت من تجربة حب خاسـرة، ولهـذا لم تتطور العلاقة العاطفية بينهما وظلت أشبه بالحب الافلاطوني الخالص.

****

على طريقة غادة الكاميليا

هـل كان جـواد سـليم ينظر الـى الحب نظـرة إفلاطونيـة ؟ يكتب فـي دفتـر يومياته: «كنـت لا اتصل بامـرأة إلا وأفكر ما سـتقودني إليه تصرفاتـي في المسـتقبل، فإما أن أتركهـا وما إنْ أتجرد مـن العاطفة» يخبرنـا جبـرا إبراهيـم جبـرا، بأن جـواد سـليم كان دائـم البحث عن الجمال الانثوي ليتمتع بمعانيه، وليسـتمد منه أعمالاً فنية. في يومياته نقرأ: «كانت الأوقات الصباحية للمعرض خاصة بالنساء، فذهبت في أكثرهـا، كنت أقضـي الوقت في سـماع قطع من الموسـيقى والتفرج علـى النسـاء.. تلك الرقة الأنثويـة الهائلة والعيون الواسـعة السـوداء المليئة بالرغبة المكبوتة والحياء الجذاب. وأجمل شـيء لفت نظري هـو هـذا الرداء العجيب - العبـاءة - والطريقة التي يلبسـن بها العباءة، وهـو يتمخطرن أمام المعروضات بنعومـة واهتزاز متثاقل. وهي تنزل



من على رؤوسـهن ثم تلتف حول أدوار الكتف وتأخذ قطعة منها في الـدوران حول الذراع العاري الأسـمر ويخر قسـم منهـا إلى الأرض سـابحاً حول الردفين بشـكل مبهـم ثم ملتفـاً حول السـاق الملونة». (جواد سليم.. اليوميات- من كتاب الرحلة الثامنة جبرا ابراهيم جبرا).

في العام ١٩٤٠ يتعرف جواد سليم على فتاة من عائلة ارستقراطية، يكتـب جبـرا إبراهيم جبـرا: «إن الفنـان الشـاب كان معجبـاً بعناصر الجمـال التـي اسـتهوته في تلـك الفتـرة» وفـي يوميات جواد سـليم نتعرف على فتاة: «سـمراء، جسـدها الحـار الممتلئ المثير..شـعرها الطويـل المبعثر، حركاتها، ضحكاتها، عطفهـا، حنانها، حبها» ونجد جـواد يهيم بهذه الفتاة فيقرر ان ينصب خيمة على شـاطئ دجلة قرب منزل تلك الفتاة ليراها كل يوم، وشاهده الجميع كيف كان يدور حول البيـت ولايجـرؤ أن يدخـل فيرجع الى خيمتـه، ويكتب فـي يومياته: «أشـعر بحالـة اضطراب عندما اراهـا وارتجف، واذا شـاهدتها يخيم الصمـت عليّ، أسـير معهـا ثم أتركهـا، قلت لها ذات يوم إن الاشـياء الجميلـة جـداً تؤلمني بعـض الأحيان» وفي مكان آخـر من اليوميات يكتـب: «ذهبت لترتدي ثوباً جديدا، وعندما دخلت كدت انصعق في محلـي، لا أري مـاذا اقول..لقـد ظهرت بثوبها هذا، صـورة من أفظع صور للجمـال والفتنة.في تلك اللحظة كدت أذوب، كدت أبكي، أن هذه القطعة من القماش الإلهية الرائعة التي فصلتها أيدي الجنة كانت على بدنها العاري تماماً».

ونجده يقتبس بيتا من الشـعر للشاعر الانكليزي إليوت ليضعه في أول الصفحـة مع تخطيط بعنوان «مرآة وجهي»: «أني أفكر كثيراً بك. ما أبعد الزمن منذ أن رأيتك!».

وفي صفحة أخرى يكتب انني شغوف برواية غادة الكاميليا ويقرر أن يعيد صياغة الرواية على شكل لوحات.

كان جواد سـليم يعاني آثار الحب، وهو منذ أيام يجلس في خيمته بانتظـار خـروج فتاة أحلامـه، يقرأ ويخطـط ويرسـم، وكل نهار يعيد



قـراءة صفحـات من رواية الكسـندر دوماس الابن «غـادة الكاميليا»، ويخبر أصدقائه انه مغرم بهذه الحكاية الساحرة وبالفتاة مرغريت التي تواجه أخلاق المجتمـع الزائفة، فتموت وحيدة بعد أن وقف الجميع ضد قصة حبها مع الشاب أرمان دوفال

حين نشـر دوماس الابـن روايته «غادة الكاميليـا» عام ١٨٤٨ كان في الثالثة والعشـرين من عمره، لم يتوقع أن تحقق هذا النجاح الكبير الـذي حوله، بيـن ليلة وضحاها، مـن كاتب مغمور الـى نجم تطارده المعجبـات. الجميـع يسـأله عن الفتـاة مرغريـت غوتييه التـي كانت تشتهر بحبها لأزهار الكاميليا، وحكايتها وكانت مرغريت على وشك إقامةعلاقة مع آرمان أبن العائلة الأرسـتقراطية الثرية، الذي هامت به وهـام بهـا و حين يبدآن في عيـش حكاية غرام حقيقيـة تريد مرغريت عبرها أن تبتعد عن عالم اللهو الذي انغمسـت فيه، أملاً في أن يعطيها الحـب طهـراً تتـوق إليـه. وإذ يخيل إلـى العاشـقَين أن الحـب ونبله سيدومان معهما إلى الأبد، يأتي تدخل والد آرمان، الذي يجن جنونه حين تتناهى إليه حكاية الحب بين ابنه ومرغريت، فيسـارع إلى لقائها ويقول لها إن حبها لابنه سـيؤدي إلى دمار مسـتقبل الشاب، وسيقف عثرة في وجه مسـتقبله وتدفعها ونزعتها الإنسانية الى الاقتناع بمنطق الأب فتقرر بأن تضحي بنفسها وبحبها من أجل سعادة آرمان وسمعته ومستقبله.

بعد ثلاث سـنوات من العشـق والهيام ولوعـة الآنتظار يقرر جواد سـليم أنه لاأمـل، وان هذه الفتاة التي احبها لم تبادله نفس المشـاعر: «ليوم أظن قد انتهى كل شيء بيني وبين... وأظن أيضاً قد انتهى الحب بينـي وبين أي امرأة أخرى، يجب أن لا أنكر على نفسـي أني وصلت عمراً جدياً يجب أن أكرسه لأمور أهم من التسلية والعواطف - الحب - وضياع الوقت. وفوق ذلك قد وصل عمري الخامسة والعشرين فأنا في طور آخر الآن غير طور الشباب. وأيضاً لا أعتقد أن امرأة أياً كانت سـتتعلق بي. هذا مـا أتصوره! من يدري؟»، ونـراه يختتم قصة الحب



هذه بعبارة: «ستكون اللحظات والثواني التي رأيتك فيها خالدة كأيام الربيع».

*****

الحب من اللقاء الاول

خافت الأم على ابنتها الوحيدة من العيش بمفردها في مدينة كبيرة ومزدحمة مثل لندن كانت الفتاة «لورنا هيلز» في السابعة عشر من عمرها قد انهت الدراسة الثانوية بنجاح وحصلت على منحة للدراسة في معهد لاعداد المعلمين، لكنها كانت ترغب في دراسة الفنون فتقرر أن تقدم أوراقها الى كلية سيلد للفنون، يأتي الجواب بالموافقة.

في لندن التي تدخلها للمرة الاولى تجد سكنا لدى زوجين في السبعين من العمر، كانت لورنا قد دخلت لندن في ايلول عام ١٩٤٥ (انعام كجه جي.. لورنا سنواتها مع جواد سليم).

وصل جواد سليم الى لندن عام ١٩٤٦، كان انذاك في الخامسة والعشرين من عمره، يعاني من قصة حب فاشلة، عندما شاهدته لورنا للمرة الاولى كان اشبه بالشاب العبثي في ملبسه وتصرفاته، يهتم بالموسيقى، والشعر وقراءة الروايات، والأهم من ذلك كان لديه غيتارا ايطاليا وذات يوم فاجأ الجميع بارتدائه ثياباً اسبانية، وقد ساهم حب الموسيقى والشعر والروايات في بناء علاقة صداقة بين الفتاة الانكليزية والشاب العراقي: «فكانا يذهبان معاً الى العروض المسرحية الراقصة حينما يتوفر لهما ثمن التذاكر، أو يمضيان الوقت في الأحاديث الفنية» (لورنا سنواتها مع جواد سليم).

كان جواد سليم أول طالب عربي تتعرف عليه لورنا هيلز، ولاحظت انه مثل معظم القادمين من الشرق ينطق اللغة الانكليزية بطريقة مختلفة وجذابة، ولهذا شعرت منذ لقائهما الاول إنها أمام شاب يمكن أن تثق به كثيرا، وإن صداقتهما يمكن أن تتحول الى حب في يوم من الايام،



وتخبرنـا في حديثها مع انعام كجه جـي إنها: «لم تقل له في ذلك الوقت انهـا تحبه، ولا تذكر انـه صارحها بانه يحبها او يريد أن يتزوجها، لكنهما كانا مدركين لإحسـاس الحب في داخلهما، ويشعران أن طريقهما باتت واحدة في الآتي من الايام».

ويبـدو أن لورنـا كانـت تشـعر أن هنـاك ما يجذبهـا الى هذا الشـاب الشرقي المرح، سـريع النكتة والبديهية إنها تقول: «من حظنا أننا التقينا. فلـو ابديت شـطارة أكبر في الفـرع العلمي، لما وصلت قدمي في سـيلد يوماً».

عندمـا حصـل جـواد على شـهادة التخرج عـام ١٩٤٩ وحـان وقت عودته الى بغداد، نجده يفكر بلورنا وحياته معها، ويخبر اصدقاءه انه قرر الزواج منها، وفي يوم يفاجأها بان يطلب منها ان تعرفه على أمها وابيها، يركبان القطار الى منطقة شـيفيلد التي تسكن فيها عائلة لورنا. هذه المرة يقـرر جـواد أن يتغلب على تردده، وأن يعلن حبـه صراحة، وحين يواجه مشكلة مع دائرة البعثات التي تمنع الطالب من الزواج اثناء دراسته يخبر والـد لورنا الذي يقول له: «عد الى بلدك أولاً ايها الشـاب، فإذا شـعرت هناك انك مازلت راغبا في الزواج من ابنتي..يكون لكل حادث حديث» (لورنا سنواتها مع جواد سليم).

في أحد ايام شهر ايلول من عام ١٩٥٠ تصل الشابة الانكليزية النحيلة لورنا هيلز الى بغداد، وبعد اسبوع من وصولها وجدت نفسها تقف أمام قاضي المحكمة الشـرعية لتصبح زوجة أشـهر فنان عراقي ولتعيش معه اجمـل قصة حب تنتهي بموتـه المبكر وتتذكر لورنـا تفاصيل اللحظات الاخيـرة مـن حياة جـواد: «كنا في سـيارتنا الصغيـرة التـي يقودها جواد متوجهين الى شـارع الجمهورية، عندما توقف زوجي فجأة ونحن وسط إحدى المسـتديرات، وقال ان يشـعر بوخز في قلبه، نزلت بسرعة لآخذ القيـادة بدلاً عنه، عدنا الـى البيت واتصلت بالدكتور سـالم الدملوجي، الذي تولى نقله الى المستشفى، مرت عشرة أيام بدا لنا خلالها إن وضع زوجي تحسن وانه تجاوز مرحلة الخطر، لكن بدأت بعض المضاعفات



تسبب حالة خطيرة، وفي نهار ٢٣ كانون الثاني ١٩٦١ بينما أقف الى جوار سريره احمل قنينة المغذي، لفظ جواد أنفاسه الاخيرة في صمت وهدوء وغادرنا مسرعا كعادته للحاق بموعد ينتظره». (لورنا سنواتها مع جواد سليم)

كان جواد قبل أيام قد تسلق جدار نصب الحرية الذي اوشك على الانتهاء منه، لينظر الى عمله النظرة الاخيرة.

في واحدة من رسائله التي بعث بها الى صديقه عيسى حنا من لندن يكتب جواد سليم: «نحن نعيش كأننا لا نعيش..نعيش في انتظار شيء لم ندر ما هو.نحن مسيرون ام مخيرون؟ يمكنك أن تكون سعيدا، ويمكنك أن تكون شقياً أيضاً..اقرأ في رواية لجين أوستن إن علينا أن نكون أقوياء الإرادة ونبحث بإنفسنا عن السعادة والحب والفرح كل يوم».

****

كبرياء وهوى

«مساء الاحد، الساعة تقارب من العاشرة مساء، أجلس في غرفة المكتب، أكتب السطور الاولى من رواية جديد لم أختر لها عنوان بعد، كانت الكلمات تنساب مني بسهولة (من الحقائق التي يقر بها الناس جميعا، أن الاعزب الذي يمتلك مالاً وفيراً لابد أن يكون في حاجة الى زوجة) تركت القلم وذهبت باتجاه النافذة، الطقس ينذر بالعواصف والأمطار».

بهذه الكلمات التي كتبتها الروائية الانكليزية جين أوستن تبدأ في كتابة إحدى رواياتها الشهيرة «كبرياء وهوى» كانت في الثامنة والثلاثين من عمرها حققت روايتها «العقل والعاطفة» نجاحاً كبيراً، وكانت قبلها قد أرسلت الى الناشر رواية بعنوان «انطباعات اولية» لم تلق استحسانا حيث رفضها الناشر، فقررت أن تعود لها من جديد تعدل فيها وتضيف لها وتغير عنوانها الى «كبرياء وهوى».



كانت جين اوستن فتاة جميلة، عيناها براقتان، شعرها مجعد ناعم، لها وجنتان مستديرتان ممتلئتان، وفم وأنف صغير وكانت مرحة، بارعة في الحديث، تحسن الغناء والرقص، كانت مغرمة بالقراءة وسهرت ليال طويلة تذرف الدموع على «آلام فرتر» لغوته.

عندما كتبت روايتها الأولى «انطباعات أولى» عام ١٧٩٦ لم تجد ناشراً لها، كانت في السابعة عشر من عمرها فقررت أن تتوقف عن الكتابة، ويقال انها في تلك الفترة كانت تعيش قصة حب شغلتها عن التفكير بالرواية، ويخبرنا كاتب سيرتها إنها وقعت في الحب أكثر من مرة، لكن قصة الحب العنيفة عاشتها وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، إلا إنها لم تكن محظوظة في معظم قصص الحب، تقول لابن شقيقتها في صباح اليوم التالي من انهيار قصة الحب: «كل شيء يمكن أن يحدث، أي شيء يمكن أن يتحمله الإنسان، إلا أن يتزوج بغير حب».

تحاول أوستن من خلال اعمالها الروائية ان تُشرك المرأة والرجل في حكاية رومانسية طرفها يجذب أحدهما الى الآخر وهي تحدد نظريتها عن الحب بالعبارة التالية: «يكون للرجل ميزة الاختيار، وللمرأة فقط قوة الرفض». توصي على لسان اليزابيت في رواية كبرياء وهوى: «تأكّدي من أنّك تفهمين بالفعل ما تشعرين به لأنّ مشاعرك قد تخدعك، فكّري قبل أن تتصرّفي وحتّى لو مرّ الكثير من الوقت ستحبّين في نهاية المطاف وستحظين بحياة عاطفية رائعة».

أنجزت جين أوستن خمس روايات في حياتها وسادسة نشرت بعد وفاتها، لم تحقق لها الشهرة آنذاك، لكنها اكتسحت عالم الشهرة بعد وفاتها بـ ٥٢ عاماً، بعدما نشر ابن شقيقتها سيرتها الذاتية. كانت أولى رواياتها «العقل والعاطفة» قد نشرت باسم مستعار عام ١٨١١، ثم توالت بعدها الروايات الأربع خلال ستة أعوام، ونشرت الرواية السادسة في العام الذي تلا رحليها.

أثارت روايات جين أوستن قضايا اجتماعية ونسوية مبكرة في ذلك العصر، حيث مثلت طموحات النساء في الطبقة الثرية والمتوسطة في



التطلع صوب حياة أقل ألماً للوصول إلى ما يحقق ذواتهن، لا سيما ما يتعلق بتعقيدات الحب والأحلام التي تخبو في ظل حياة غالباً ما يستحوذ على تفاصيلها الرجال. وفي عرضها العلاقة بين الجنسين.

يتناول الفصل الأول من رواية «كبرياء وهوى» صوراً حول إغراء المال وينتهي بنهاية صاخبة لإحدى الشخصيات. تدور الأحداث في الريف الإنكليزي، وتحكي عن الواقع الذي تعيشه عائلات الطبقة الوسطى، ونظرتهم المتعالية إلى أفراد الطبقة الارستقراطية.

إليزابيث الابنة الثانية لعائلة (بنيت) تتمتع بشخصية مرحة، ذكية، وثائرة. تتمرد على واقعها الذي يفرض عليها القبول بأول شخص يتقدم إلى خطبتها كي يوفر لها مستقبلاً يقيها الفقر الذي تعانيه عائلتها، فتطلق أفكارها إلى ما هو أبعد من ذلك. تبحث عن الحب، الحياة، والسعادة الحقيقية. فتقودها أقدارها لتدخل في دهاليز علاقات متشابكة مع أفراد من الطبقة الارستقراطية، حيث تكتشف زيف هذه الحياة الباذخة المترفة. ورغم ذكائها، إلا أن تسرعها في الحكم على ظاهر الأمور وتصديق من تثق بهم، يجعلها تبني تصوراً جائراً لشخصية «دارسي» الذي تشعر نحوه بالانجذاب رغم كل شيء.

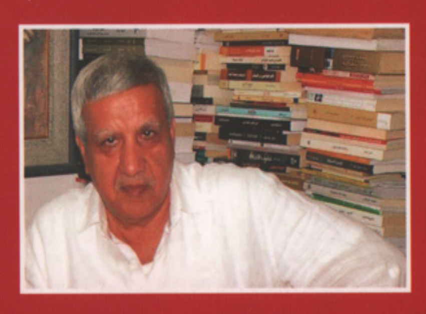
تكتب ابنة شقيقها تصف عمتها جين أوستن في خطاب وجهته الى ناشر سيرتها: «كانت العمة جين عطوفة، وتعرف كيف تكون أكثر رقة وتهذيباً عند مخالطة الناس». عاشت جين أوستن مخلصة لقصة الحب التي تملكتها وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، أدركت أن مرض التدرن لايمكن ان يجمعها مع من تحب، فقررت أن تكتب وصاياها عن الحب والزواج في روايات تعد اليوم الأشهر حيث بيعت رواية «كبرياء وهوى» أكثر من ٢٠ مليون نسخة منذ صدورها. تكتب في يومياتها: «الحب المميّز يحتاج إلى بعض الدعم، لذا لا تتصرّفي بطريقة دفاعيّة حين توجد الرومانسية لأنّ أيّ أمر ممكن الحصول».



الفهرست



إن الحياة هي الحب ، والحب هو الحياة « هذه العبارة قرأتها قبل سنوات وهي للمفكر الهندي نيسار كادتا مهراج . وقد توقفت عندها كثيراً، وأنا أسأل ما الحب ؟ وهو سؤال ظل الكُتّاب والمفكرون يضربون أخماساً بأسداس وهم يحاولون حل لغزه . حاول «أوفيد»الذي ظهر قبل أكثر من ألف عام تاركاً القضاء والسياسة متفرغاً لكتابة موسوعته»فن الهوى»في أن يدرك سر الحب . بثلاثية شعرية مكرسة بالكامل لمفهوم العشق : « مراثي الحب وعلم الحب ودواء الحب « ، ونجد الحب عند أوفيد ليس مجرد زينة الحياة كما كتب الفيلسوف أبيقور ، بل هو الحياة كلها ، فبالنسبة له ، ليس هناك حياة كاملة من دون حب ومن دون معاناة الحب الدائمة.



أمّا سقراطُ فقد صوّر الحبّ على أنه جنّيٌّ عظيم وكان تلميذه أفلاطون يرى أنّ الروح تصل إلى الخير من خلال الحب ، ودائما ما تضعنا الكتب في قلب أشهر قصة حب ربطت بين فيلسوفين هما جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار، وكذلك العلاقة الكبيرة التي ربطت بين الفيلسوف الألماني هايدغر والفيلسوفة حنة أرندت، فقد رأى هايدغر أن أرندت كانت تبث ما أطلق عليه الفكر العاطفي في كتاباته، أي يتحدث عن لحظة الإلهام التي مثلتها أرندت في حياته، وهو الحب الذي مثل لكليهما لحظة جملت حياتهما، فهيدغر يرى أن لا شيء يقود إلى قلب العالم أكثر من الحب.

وحين عصفت الأهواء بشيخ مثل تولستوي انزوى جانباً ليسطر ملحمة الحب في أنا كارنينا: »على رصيف المحطة لمحت قوامه. عجباً، ما الذي جاء به الى هنا؟ لم أكن أعلم إنك كنت على سفر. لماذا أنتَ هنا؟ سألته، قال وهو ينظر في عينيها: تعلمين أنني جئت في إثرك. فليس في وسعي تجنب ذلك».



